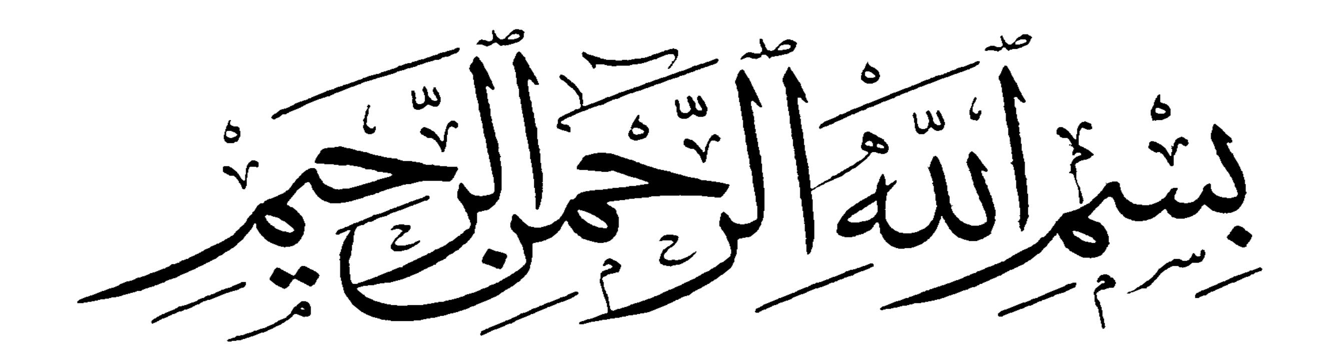
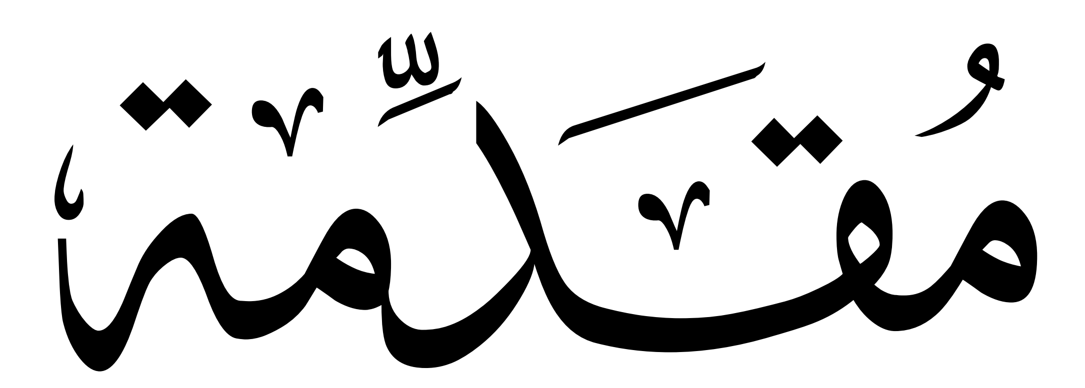

بسم الله الرحمن الرحيم


مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على نعمه وآلائه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، والصلاة والسلام على أشرف رسله وأنبيائه، محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه وأتباعه، أما بعد:

فإن من حكمة الله تعالى أن جعل للرسل وأتباعهم خصوماً وأعداءً، يمكرون ويكيدون، ويسعون للقضاء على الدين، وإطفاء نور الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾(٢)، وقال تعالى ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٣)

وإن من أخطر هؤلاء الأعداء والخصوم على مر العصور: الملاحدة الجاحدون لربهم، المنكرون لرسالاته وكتبه ودينه، وهؤلاء قد جاءت

---

(١) سورة الأنعام: ١١٢.

(٢) سورة الفرقان: ٣١.

(٣) سورة الصف: ٨ – ٩.

النصوص الشرعية بفضحهم، وكشف أستارهم، والرد على أباطيلهم، ودحض شبهاتهم، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾(١)

والمسلمون في هذا الوقت الذي تكالبت فيه أنواع الأعداء بالصد عن سبيل الله تعالى؛ في أمس الحاجة إلى قيام أهل العلم وطلبته بالنصح لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ومن النصح: الرد على الملاحدة، ودحض شبهاتهم، ونقض أصولهم، وهدم بنيانهم؛ لينهار الباطل على رؤوسهم، ويزهق الكفر والإلحاد، وينهزم جيش الشيطان وجنوده وأعوانه، وينتصر الحق وتظهر معالمه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾(٢)

وقد قام علماء الإسلام الراسخون في العلم من أئمة السلف الصالح وأعلام أئمة أهل السنة والجماعة بالتصدي لهؤلاء الأعداء، ومن هؤلاء العلماء الأعلام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي: ابن قيم الجوزية(ت ٧٥١) – رحمه الله – رحمة واسعة، فقد كان في مؤلفاته من العلم الغزير والتحقيق والتحرير ما لا يوجد في كثير من المؤلفات والكتب.

---

(١) سورة الأنبياء: ١٨.

(٢) سورة غافر: ٥١.

ومن أبرز جهوده – رحمه الله – الردود على الملاحدة ونقض أصولهم بأقوى عبارة وأحسن بيان بالدليل والبرهان، وهذا مما دفعني أن أجمع هذه الردود العلمية العظيمة والتقريرات السديدة في رسالة علمية لنيل درجة العالمية العالية (الدكتوراه) بعنوان: **(جهود الإمام ابن القيم ومنهجه في الرد على الملاحدة وأثره على من بعده)** نصرة للحق وللدين، وإعانة للمجاهدين من أهل العلم والفضل الذين يردون على أعداء الإسلام؛ فيستفيدون من كلام هذا العَلَم العلّامة، ويفيدون به المسلمين، ومن شاء الله عز وجل هدايته، وبالله التوفيق ومنه نستمد العون والتأييد.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١– أهمية جمع جهود أعلام الإسلام وأئمة السنة في نصرة الحق ودحض الباطل.

٢– المكانة العلمية الجليلة للإمام ابن القيم – رحمه الله – وحسن تأليفه، وجودة كلماته، وقوة تأثيره، مما يجعل جمع كلامه له أهمية بالغة، وفائدة كبيرة، خصوصاً في الرد على طوائف الملاحدة.

٣– أهمية هذا الموضوع –أعني الرد على الملاحدة– خصوصاً في هذا الزمن الذي اشتدت فيه وطأة أعداء الإسلام، وتنوعت فيه أساليبهم في الدعوة للإلحاد وترويج شبهاته، وقد اطلعت على شيء من حربهم الفكرية،

ودعوتهم العلنية للإلحاد في بعض الكتب والمواقع ووسائل التواصل عبر الشبكة العنكبوتية.

٤- مسيس الحاجة لتحذير المسلمين من الدعوات الإلحادية، وتحصين أبناء المسلمين من أوضار هذا الكفر المستبين.

٥- الإسهام في محاربة الإلحاد ونقض أصوله وفضح باطله.

٦- أني لم أجد - حسب حدود اطلاعي- من سبقني بالكتابة في جمع جهود ابن القيم في الرد على الملاحدة على وجه الخصوص.

هدف الموضوع:

جمع جهود ابن القيم في الرد على الملاحدة ودراستها دراسة عقدية، وربطها بالعصر الحاضر من خلال المقارنة بين جهوده وجهود العلماء قبله وبعده وتوظيفها فيما يحقق هدف الموضوع.

وهناك بحوث كثيرة ومؤلفات عديدة قديمة وحديثة في الرد على الملاحدة بشكل عام، وليس فيما وقفت عليه دراسة عن جهود الإمام ابن القيم في ذلك.

الدراسات السابقة:

كثرت الدراسات المتعلقة بالإمام ابن القيم –رحمه الله–في جميع الفنون والعلوم، لكن بعد البحث وسؤال المختصين لم أجد دراسة لجهوده رحمه الله فيما يتعلق بالرد على الملاحدة من خلال كتبه،والله أعلم.

حدود البحث:

هذا البحث سيتناول الدراسة المتعلقة بجهود ابن القيم في الرد على الملاحدة ممن أنكر وجود الخالق من الفلاسفة، والطبائعيين، والدهرية، والباطنية ونحوهم.

ومقصودي بالإلحاد هو: إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى أو ما كان من لازم المذهب إلحادا صريحًا، وأما الإلحاد الجزئي وليس بصريح المذهب كما يقع فيه بعض محرفة الصفات كالأشعرية والمعتزلة وغيرهم وكذا ما يقع من بعض أرباب التصوف وغيرهم فلا يدخل في الدراسة.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وأربعة أبواب، وخاتمة، وفهارس تفصيلية.

المقدمة: وتشتمل على الخطبة، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وهدف الموضوع، والدراسات السابقة، وحدود البحث، وخطة البحث، ومنهج البحث.

التمهيد وفيه:

- **التعريف بمفردات العنوان وفيه ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام ابن القيم – رحمه الله –.

المبحث الثاني: التعريف بالإلحاد.

المبحث الثالث: مدى استفادة الإمام ابن القيم – رحمه الله – ممن سبقه من العلماء في الرد على الملاحدة.

الباب الأول: جهود ابن القيم في بيان حقيقة الإلحاد وأنواعه وأسبابه وآثاره، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: تعريف ابن القيم للإلحاد، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإلحاد لغة وشرعا عند ابن القيم.

المبحث الثاني: سياق أبرز أقوال المفسرين وشراح الحديث في بيان معنى الإلحاد.

المبحث الثالث: الفرق بين تعريف ابن القيم للإلحاد وتعريفات من سبقه من أهل العلم.

الفصل الثاني: بيان ابن القيم لأنواع الإلحاد. وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أنواع الإلحاد عند ابن القيم رحمه الله.

المبحث الثاني: أنواع الإلحاد عند أبرز من سبقه من أهل العلم.

الفصل الثالث: بيان ابن القيم لأسباب الإلحاد، وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول: فساد التصور.

المبحث الثاني: فساد الإرادة والقصد.

المبحث الثالث: الجهل.

المبحث الرابع: كثرة الأهواء وخفاء التوحيد والسنة.

المبحث الخامس: كيد الكفار من اليهود والنصارى.

المبحث السادس: كيد الشيطان الرجيم.

المبحث السابع: ضعف ردود المتكلمين على الكفار من أسباب استطالة الملاحدة.

المبحث الثامن: ترجمة كتب الملاحدة ونشرها.

الفصل الرابع: بيان ابن القيم لآثار الإلحاد وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: آثار الإلحاد في فساد العقيدة.

المبحث الثاني: آثار الإلحاد في فساد البلاد والعباد.

المبحث الثالث: آثار الإلحاد في ضعف الأمة وتفرق كلمتها وتسلط الأعداء عليها.

المبحث الرابع: الإلحاد من أسباب سقوط الدول.

المبحث الخامس: أثر الإلحاد في تقوية شأن المذاهب الباطلة.

الباب الثاني: موقف الإمام ابن القيم من فرق الملاحدة وأصنافهم: وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: موقف الإمام ابن القيم - رحمه الله - من ملاحدة الفلاسفة الإلهيين. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالفلاسفة وأبرز مقالاتهم.

المبحث الثاني: بيان موقف ابن القيم من الفلاسفة.

المبحث الثالث: ذكر مواقف أبرز أهل العلم من الفلاسفة

الفصل الثاني: موقفه من ملاحدة الفلاسفة الدهريين. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالدهرية وأبرز مقالاتهم.

المبحث الثاني: بيان موقف ابن القيم من الدهرية.

المبحث الثالث: ذكر مواقف أبرز أهل العلم من الدهرية.

الفصل الثالث: موقفه من ملاحدة الفلاسفة الطبائعيين. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالطبائعيين وأبرز مقالاتهم.

المبحث الثاني: بيان موقف ابن القيم من ملاحدة الطبائعيين.

المبحث الأول: استدلاله بأدلة الفطرة.

المبحث الثاني: استدلاله بأدلة العقل.

الفصل الثالث: استدلاله بالحس والمشاهدة في رده على الملاحدة.

الفصل الرابع:. منهج ابن القيم في عرض الحكم والأسرار والغايات الحميدة في بديع خلق الله تعالى. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ذكر ابن القيم لبعض أسرار خلق الإنسان، واستدلاله بها على وجود الله تعالى.

المبحث الثاني: ذكر ابن القيم لبعض أسرار خلق الحيوانات واستدلاله بها على وجود الله تعالى.

المبحث الثالث: ذكر ابن القيم لبعض أسرار خلق الأجرام السماوية والأرضية، واستدلاله بها على وجود الله تعالى.

الفصل الخامس:. موقف الإمام ابن القيم - رحمه الله - من عرض شبهات الملاحدة ونقضها، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهج ابن القيم في عرض شبهات الملاحدة: وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: عرض الشبهات على سبيل الإجمال.

المطلب الثاني: نقض كل شبهة بالتفصيل واستعمال جميع أنواع الأدلة في النقض.

المطلب الثالث: بيان ابن القيم للموقف الصحيح الواجب على المؤمن عند ورود الشبهات.

المبحث الثاني: ذكر ما أورده ابن القيم من شبهات الملاحدة ورد عليها.

الفصل السادس: موقفه من استدلالات أهل الكلام في الرد على الملاحدة. وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان ابن القيم لفساد طرق المتكلمين

المبحث الثاني: تعقب ابن القيم لاستدلالات المتكلمين وحججهم الضعيفة في الرد على الملاحدة وغيرهم.

الفصل السابع: مقارنة بين منهج ابن القيم – رحمه الله – ومنهج من جاء بعده في الرد على الملاحدة. وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ذكر أبرز العلماء الذين ردوا على الملاحدة بعد ابن القيم.

المبحث الثاني: مقارنة بين منهج ابن القيم ومنهج من جاء بعده من أهل العلم.

الباب الرابع: أثر الإمام ابن القيم – رحمه الله – على من جاء بعده من أهل العلم في الرد على الملاحدة. وفيه فصلان:

الفصل الأول: العلاقة بين مظاهر الإلحاد في زمن ابن القيم - رحمه الله - ومظاهر الإلحاد في العصور التي بعده إلى العصر الحاضر.

الفصل الثاني: أثر الإمام ابن القيم - رحمه الله - على من جاء بعده من العلماء إلى عصرنا هذا في الرد على الملاحدة.

الخاتمة:

وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

الفهارس:

فهرس الآيات.

فهرس الأحاديث.

فهرس الأعلام.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

سأسير بعون الله وتوفيقه على المنهج الاستقرائي التحليلي، وسأتعامل مع المادة العلمية وفق النقاط الآتية:

١. جمع المادة العلمية من جميع مؤلفات الإمام ابن القيم – رحمه الله – فيما يتعلق بردوده على الملاحدة بشتى أنواعهم وفرقهم.

٢. دراسة هذه المسائل دراسة عقدية نقدية، مع الإشارة إلى مظان كلام الملاحدة، وشبهاتهم التي ساقها الإمام ابن القيم رحمه الله.

٣. عزو الآيات إلى سورها بذكر السورة ورقم الآية، وكتابتها بالرسم العثماني.

٤. عزو الأحاديث إلى مظانها في كتب السنة النبوية، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليهما، وأن كان في غيرهما عزوته إلى مصادره، ثم نقلت حكم أهل العلم عليه.

٥. توثيق النقول من مصادرها الأصلية.

٦. عزو الآراء العلمية وأقوال الملاحدة المنقولة في البحث إلى الكتب المعتمدة في الفرق والملل والنحل.

٧. التعريف بالفرق، والملل، والطوائف، والأماكن، والأعلام غير المشهورين.

٨. الالتزام بعلامات الترقيم، وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

٩. خدمة البحث بفهارس علمية تيسر للباحث الوصول إلى الفائدة على النحو المبين في الخطة.

شكر وتقدير

الحمد لله، والشكر له سبحانه وتعالى أولاً وآخراً، فهو سبحانه صاحب المن والعطاء، أشكره عز وجل على نعمة الإسلام والسنة، وعلى ما يسر من إتمام هذا البحث.

وأثني بالشكر للقائمين على الجامعة الإسلامية، وعلى رأسهم معالي مدير الجامعة الشيخ الأستاذ الدكتور/ عبدالرحمن بن عبدالله السند، فلهم جزيل شكري، وعظيم عرفاني على ما يقدمونه من تيسير سبل العلم لطلابه في شتى البقاع.

كما أشكر القائمين على كلية الدعوة وأصول الدين وأخص بالشكر القائمين على قسم العقيدة على ما يقدمونه من جهود عظيمة لطلاب العلم، فجزاهم الله خير الجزاء.

والشكر موصول لشيخي الفاضل الأستاذ الدكتور: محمد بن عبدالوهاب العقيل الذي تولى الإشراف على هذه الرسالة، وأعطاها اهتمامًا كبيرًا حتى خرجت في هذا السفر، وقد كان لملحوظاته وتصويباته كبير الأثر على البحث والباحث فجزاه الله عني خيرًا.

كما أشكر فضيلة المناقشين الكريمين -حفظهما الله- على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة وتقويمها، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

التعريف بمفردات العنوان

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام ابن القيم رحمه الله.

المبحث الثاني: التعريف بالإلحاد.

المبحث الثالث: مدى استفادة الإمام ابن القيم – رحمه الله – ممن سبقه من العلماء في الرد على الملاحدة.

المبحث الأول:

ترجمة موجزة للإمام ابن القيم رحمه الله

اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

هو العلامة الشيخ الإمام الفاضل المُتَفَنِّن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، الدمشقي الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، شمس الدين أبو عبد الله الحنبلي المعروف بابن قيم الجوزية.

مولده سابع صفر، سنة إحدى تسعين وست مئة [(١)].

رحلاته:

قال ابن رجب - رحمه الله -: (حج مرات كثيرة، وجاور بمكة. وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة، وكثرة الطواف أمرا يتعجب منه)[(٢)].

أشهر شيوخه:

١. والده أبو بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي قيم الجوزية (ت٧٢٣).

٢. شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (ت٧٢٨).

٣. الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت٧٤٢).

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات للصفدي (٢/١٩٥)، وأعيان العصر وأعوان النصر (٤/٣٦٨)، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٥/١٧٠، ١٧١)، وتوضيح المشتبه لابن ناصر الدين الدمشقي (٤/٢٨٩)، والرد الوافر له أيضًا (ص: ٦٨).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٥/١٧٣).

٤. عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية النميري، أبو محمد شرف الدين أخو شيخ الإسلام ابن تيمية.

٥. أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة الحنبلي أبو العباس، المعروف بالشهاب العابر (ت٦٩٧).

٦. محمد بن أبي الفتح البعلبكي، شمس الدين أبو عبد اللخ الفقيه النحوي (ت٧٠٩).

٧. سليمان بن حمزة بن أحمد بن قدامة تقي الدين أبو الفضل المقدسي الحنبلي (ت٧١٥).

٨. إسماعيل بن يوسف بن مكتوم القيسي الدمشقي الشافعي أبو الفداء صدر الدين (ت٧١٦).

٩. محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي الشافعي، صفي الدين الهندي الفقيه الأصولي (ت٧١٥).

١٠. علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد الكندي علاء الدين الوداعي، ويعرف بكاتب ابن وداعة (ت٧١٦)[١].

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر (١٣٧/٥)، البداية والنهاية (٣٣٥/١)، شذرات الذهب (٤٣٧/٥)، الوافي بالوفيات (٢٧١/٢)، طبقات المفسرين (٩١/٢).

أشهر تلاميذه:

تتلمذ عليه طلاب كثر منهم:

١. محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي، شمس الدين (ت٧٤٤).

٢. محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي الشافعي (ت٧٤٨).

٣. ابنه: عبد الله بن محمد بن قيم الجوزية، شرف الدين (ت٧٥٦).

٤. علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، تقي الدين (ت٧٥٦).

٥. محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي، المقري التلمساني (ت٧٥٩).

٦. خليل بن أيبك الصفدي، صلاح الدين (ت٧٦٤).

٧. إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، الشافعي أبو الفداء عماد الدين (ت٧٧٤).

٨. عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالرحمن زين الدين أبو الفرج بن رجب الحنبلي (ت٧٩٥).

٩. محمد بن محمد بن محمد بن الخضر الغزي الشافعي (ت٨٠٨).

١٠. محمد بن يعقوب بن محمد محيي الدين ابو الطاهر الفيروزأبادي الشافعي صاحب القاموس (ت٨١٧). وغيرهم[١].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٥/١٧٣-١٧٤)، والرد الوافر (ص: ٦٨)، طبقات الحفاظ للسيوطي (ص٢٥)، شذرات الذهب (٦/١٥٣-١٥٥)، الدرر الكامنة (٢/٣٩٦)، البداية والنهاية =

ثناء العلماء عليه:

قال ابن رجب[(١)]: (وتفقه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام. وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالما بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم، ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى).

قال الذهبي[(٢)] في المختصر: (عني بالحديث ومتونه، وبعض رجاله، وكان يشتغل في الفقه، ويجيد تقريره وتدريسه، وفي الأصلين، وقد حبس

(٢١٨/١٤)، الأعلام (٣١٥/٢)، إنباء الغمر (٤٦٠/١)، البدر الطالع (٢٥٤/٢)، التاج المكلل لصديق حسن خان (ص٤٦٦).

(١) هو: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السّلامي البغدادي ثم الدمشقيّ، أبو الفرج، زين الدين، الشيخ الإمام العالم العلّامة، الزاهد القدوة، الحافظ، العمدة، الثقة، الحجّة، الحنبلي المذهب، من مؤلفاته: "شرح جامع الترمذي"، "جامع العلوم والحكم"، "القواعد الفقهية" توفي سنة ٧٨١هـ. انظر: شذرات الذهب (٥٧٨/٨).

(٢) هو: شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي، الإمام الحافظ، كان مولده في سنة ثلاث وسبعين وستمائة، من مؤلفاته: "تاريخ الإسلام"، "سير أعلام النبلاء"، "ميزان الاعتدال في نقد الرجال"، توفي سنة ٧٤٨هـ. انظر: طبقات الشافعية للسبكي (١٠٠/٩).

مدة؛ لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل، وتصدى للأشغال، وإقراء العلم ونشره)[(١)].

قال القاضي برهان الدين الزرعي[(٢)] عنه: (ما تحت أديم السماء أوسع علما منه)[(٣)].

قال ابن حجر[(٤)]: (وكان جرئ الجنان واسع العلم عارفا بالخلاف ومذاهب السلف)[(٥)].

قال الشوكاني[(٦)]: (العلامة الكبير المجتهد المطلق المصنف المشهور)[(٧)].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٥/١٧١- ١٧٢).

(٢) هو: برهان الدّين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن هلال الزّرعي ثم الدمشقي، الفقيه الحنبلي الأصولي المناظر الفرضي، ولم يصنّف كتابا معروفا، توفي سنة ٧٤١هـ. شذرات الذهب (٨/٢٢٧).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٥/١٧٤).

(٤) هو: شهاب الدّين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد، الشهير بابن حجر، شيخ الإسلام علم الأعلام أمير المؤمنين في الحديث حافظ العصر، من مؤلفاته: "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، «تغليق التعليق"، "تبصير المنتبه بتحرير المشتبه" توفي سنة ٨٥٢هـ شذرات الذهب (٩/٣٩٥).

(٥) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٥/١٣٨).

(٦) هو العلامة محمد بن علي بن عبد الله الشوكانى، وُلِد في سنة ١١٧٣هـ من مؤلفاته: "فتح القدير" في التفسير، وكتاب "نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار" في الحديث، وكتاب "إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والميعاد والنبوات هذا وقد توفى الشوكانى – رحمه الله – سنة ١٢٥٠هـ انظر: التفسير والمفسرون للذهبي (٢/٢١١).

(٧) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/١٤٣).

قال ابن كثير[١]: (لا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطليها جدا ويمد ركوعها وسجودها)[٢].

---

(١) هو: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصرويّ ثم الدمشقي الفقيه الشافعي، الإمام المحدّث المفتي البارع، من مؤلفاته: "البداية والنهاية"، "التفسير"، "طبقات الشافعية" توفي سنة ٧٧٤هـ. انظر: شذرات الذهب (٣٩٧/٨).

(٢) البداية والنهاية ط إحياء التراث (٢٧٠/١٤).

أشهر مصنفاته:

أثنى ابن رجب على شيخه ابن القيم وذكر جملة كبيرة من مصنفاته فقال: (وصنف تصانيف كثيرة جدا في أنواع العلم، وكان شديد المحبة للعلم، وكتابته ومطالعته وتصنيفه، واقتناء الكتب، واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره) [(١)]. ثم ذكر جملة كبيرة من تصانيفه[(٢)]، منها:

١- " سفر الهجرتين وباب السعادتين "[(٣)] مجلد ضخم.

٢- " مراحل السائرين بين منازل " إياك نعبد وإياك نستعين "[(٤)] مجلدان، وهو شرح " منازل السائرين " لشيخ الإسلام الأنصاري، كتاب جليل القدر.

٣- الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية " وهي" القصيدة

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١٧٤/٥، ١٧٥، ١٧٦).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (١٧٤/٥، ١٧٥، ١٧٦)، وينظر: الوافي بالوفيات (١٩٦/٢)، وتوضيح المشتبه (٢٨٩/٤).

(٣) ويسمى: "طريق الهجرتين وباب السعادتين" مطبوع عدة طبعات منها طبعة دار السلفية، القاهرة، مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ في مجلد.

(٤) ويسمى: " مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين"، من طبعاته: طبعة دار الكتاب العربي - بيروت، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م في مجلدين.

النونية في السنة"[١] مجلدان.

٤- " الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة"[٢].

٥- " حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح "[٣] وهو " صفة الجنة " مجلد.

٦- " مفتاح دار السعادة "[٤] مجلد ضخم.

٧- " اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية "[٥] مجلد.

٨- " شرح الأسماء الحسنى "[٦].

---

(١) قام بتحقيقه وشرحه أربعة باحثين، بمرحلة الماجستير، في قسم العقيده والمذاهب المعاصرة، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد طبع عدة طبعات منها طبعة مكتبة ابن تيمية، القاهرة الطبعة: الثانية، ١٤١٧هـ في مجلد، وطبعة دار عالم الفوائد، في ثلاثة مجلدات الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ مع شرحه.

(٢) ويسمى: "الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة " طبع بتحقيق الباحث: علي بن محمد الدخيل الله، في رسالة دكتوراه، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ، عدد الأجزاء: ٤، وليس بكامل.

(٣) مطبوع عدة طبعات منها طبعة مطبعة المدني، القاهرة في مجلد، وطبعة دار عالم الفوائد، في مجلدين.

(٤) ويسمى: " مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة "مطبوع عدة طبعات منها طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، جزئان في مجلد.

(٥) مطبوع عدة طبعات منها طبعة بتحقيق الباحث: عواد عبد الله المعتق، الناشر: مطابع الفرزدق التجارية – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ٢ (الجزء الأول دراسة من المحقق).

(٦) لم يطبع في ما أعلم. .

٩- " هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى "[١].

١٠- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل[٢].

١١- الروح[٣].

وفاته:

توفي – رحمه الله- تعالى – ثالث عشر شهر رجب الفرد سنة إحدى وخمسين وسبع مئة[٤]. ودفن بمقبرة الباب الصغير من دمشق عند والديه رحمهما الله وكانت جنازته مشهودة[٥].

---

(١) وقد قام بتحقيقه في رسالته للدكتوراه، د. محمد أحمد الحاج، في قسم العقيده والمذاهب المعاصرة، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الناشر: دار القلم- دار الشامية، جدة – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، في جزء واحد.

(٢) من طبعاته طبعة دار الفكر – بيروت، ١٣٩٨ – ١٩٧٨، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، في مجلد.

(٣) من طبعاته طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٥ – ١٩٧٥، في مجلد، وقد قام بتحقيقه في رسالته للدكتوراه، د. بسام علي سلامة، في قسم العقيده والمذاهب المعاصرة، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وانظر كتاب: ابن القيم حياته، وآثاره للشيخ بكر أبو زيد (ص١٢٧ وما بعدها).

(٤) أعيان العصر وأعوان النصر(٣٦٨/٤)، والوافي بالوفيات١٩٧/٢، وتوضيح المشتبه٢٨٩/٤.

(٥) الرد الوافر (ص: ٦٨).

وقال ابن رجب - رحمه الله-: (توفي - رحمه الله - وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس ثالث عشرين رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. وصلى عليه من الغد بالجامع عقيب الظهر، ثم بجامع جراح. ودفن بمقبرة الباب الصغير، وشيعه خلق كثير، ورؤيت له منامات كثيرة حسنة رضي الله عنه)[1].

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١٧٦/٥).

المبحث الثاني:

التعريف بالإلحاد

في هذا المبحث سأتناول تعريف الإلحاد في اللغة والاصطلاح.

أولاً: تعريفه في اللغة:

سأذكر تعريفه عند أبرز علماء اللغة حيث نراهم اتفقوا على أن الإلحاد مأخوذ من اللحد وهو الميل:

عرفه الزجاج[١] بأمرٍ معنوي فقال:. . . (معنى الإلحاد في اللغة: العدول عن القصد)[٢].

ونقل الأزهري[٣] عن ابن السكيت[٤] حيث قال: (اللحد: الشق في جانب القبر،

(١) هو: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، كان من أهل الفضل والدين، كان يخرط الزجاج، ثم مال إلى النحو، فلزم المبرد، من مؤلفاته: "معاني القرآن"، "الاشتقاق"، "خلق الإنسان" مات في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٤١٣/١).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٤٢١/٣).

(٣) هو: محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح الأزهري اللغوي الأديب الهروي الشافعي أبو منصور، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وكان رأسا في اللغة، من مؤلفاته: "التهذيب في اللغة"، "تفسير ألفاظ مختصر المزني"، "التقريب في التفسير" مات في ربيع الآخرة سنة سبعين وثلاثمائة. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢٠/١).

(٤) هو: يعقوب بن إسحاق أبو يوسف بن السكيت، كان عالما بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر، راوية ثقة، وكان معلما للصبيان ببغداد، ثم أدب أولاد المتوكل، له تصانيف =

وجاء عن الليث[١] أنه قال: اللحد: ما حفر في عرض القبر)[٢].

قال ابن فارس[٣]: (اللام والحاء والدال أصل يدل على ميل عن استقامة. يقال: ألحد الرجل، إذ مال عن طريقة الحق والإيمان. وسمي اللحد لأنه مائل في أحد جانبي الجدث. يقال: لحدت الميت وألحدت. والملتحد: الملجأ، سمي بذلك لأن اللاجئ يميل إليه)[٤].

كثيرة في النحو ومعاني الشعر وتفسير دواوين العرب؛ زاد فيها على من تقدمه، مات يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة أربع وأربعين ومائتين. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢/٣٤٩).

(١) هو: الليث بن المظفر، وقيل: الليث بن نصر بن يسار الخراساني، وقيل: الليث بن رافع بن نصر بن يسار، كان من أكتب الناس في زمانه بارعا في الأدب بصيرا بالشعر والغريب والنحو، وكان كاتبا للبرامكة. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢/٢٧٠).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٤/٢٤٣)، والصحاح للجوهري(٢/٥٣٤).

(٣) هو: أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب أبو الحسين اللغوي القزويني، كان نحويا على طريقة الكوفيين، من مؤلفاته: "المجمل في اللغة"، "فقه اللغة"، "مقدمة في النحو" مات سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بالري. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (١/٣٥٢).

(٤) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٢٣٦).

وأما لسان العرب فجاء فيه: (. . لحد في الدين يلحد وألحد: مال وعدل، وقيل: لحد مال وجار. ابن السكيت: الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس فيه، يقال قد ألحد في الدين ولحد أي حاد عنه)[١].

ونقل الطبري[٢] عن العرب بأن: أصل "الإلحاد" في كلامهم: (العدول عن القصد، والجورُ عنه، والإعراض، ثم يستعمل في كل معوَجّ غير مستقيم)[٣].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣/ ٣٨٨ مادة (لحد)، ونحوه في تاج العروس للزبيدي ١٣٥/٩.

(٢) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، الإمام العلم المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر الطبري، مولده سنة أربع وعشرين ومئتين كان من أفراد الدهر علما، وذكاء، وكثرة تصانيف، قلّ أن ترى العيون مثله، من مؤلفاته: "أخبار الامم وتاريخهم"، "التفسير"، " تهذيب الآثار " توفي سنة ٣١٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٦٧/١٤).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٢٨٢).

الإلحاد في الاصطلاح:

بعد ما عرفنا معنى الإلحاد عند أهل اللغة، سأعرف الإلحاد عند أهل الاصطلاح، فقد عرفه أهل العلم بعدة تعريفات تجتمع كلها على اختلاف ألفاظها، بأنه إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى.

وقد عرف شيخنا د. غالب عواجي الإلحاد بأنه: (كل فكر يتعلق بإنكار وجود خالق هذا الكون – سبحانه وتعالى، سواء أكان عند المتقدمين من الدهرية[1]، أو عند من جاء بعدهم من الشيوعيين، والماركسيين[2])[3].

والمراد بالإلحاد في هذا البحث: هو المعنى المصطلح عليه في هذا العصر، وهم: من أنكروا وجود رب خالق لهذا الكون، متصرف فيه، يدبر أمره بعلمه وحكمته، ويجري أحداثه بإرادته وقدرته، واعتبار الكون أو مادته الأولى

---

(١) هم طائفة كافرة، جحدوا الخالق المدبر العالم القادر، ونسبوا الخلق إلى الدهر، ويقولون: بأن العالم لم يزل، ويقولون ببقاء الدهر، ولا يؤمنون بالحياة الأخرى،. انظر: الفصل لابن حزم (١٥/١)، والملل والنحل للشهرستاني (١١/١).

(٢) الشيوعية مذهب فكري يقوم على الإلحاد، وأن المادة هي أساس كل شيء، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات، وبالعامل الاقتصادي. ظهرت في ألمانيا على يد ماركس وإنجلز، وتجسدت في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة ١٩١٧م بتخطيط من اليهود، وتوسعت على حساب غيرها بالحديد والنار. وضعت أسسها الفكرية النظرية على يد كارل ماركس اليهودي الألماني ١٨١٨ – ١٨٨٣م وهو حفيد الحاخام اليهودي المعروف مردخاي ماركس، وتنسب الشيوعية أيضا إلى مؤسسها فتسمى "الماركسية" انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٩١٩/٢).

(٣) ينظر: المذاهب الفكرية المعاصرة د. غالب عواجي ١٠٠٣/٢.

أزلية، واعتبار تغيراته قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار الحياة - وما تستتبع من شعور وفكر حتى قمتها الإنسان - من أثر التطور الذاتي للمادة(١).

وجاء في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة أن (الإلحاد هو: مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى)(٢).

وعرفه بعضهم بأنه: إنكار وجود الخالق سبحانه، والقول بأن الكون وجد بلا خالق(٣).

وقد ورد لفظ "الإلحاد " في القرآن في ثلاثة مواضع:

١. ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٤).

٢. ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾(٥).

---

(١) انظر: كواشف زيوف المذاهب المعاصرة لعبد الرحمن الميداني ص (٤٠٩).
(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٨٠٣/٢)
(٣) الإلحاد التعريف وأسباب الظهور، لحفيدة الحميراء.
(٤) سورة الأعراف: ١٨٠.
(٥) سورة النحل: ١٠٣.

٣. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[١].

وسأذكر أقوال بعض أهل العلم بعد كل موضع من هذه المواضع الثلاثة.

فأما آية الأعراف فقد قال الإمام ابن جرير الطبري – رحمه الله – في تفسيرها: (أما قوله: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ ﴾، فإنه يعني به المشركين، وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها "اللات" اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو "الله"، وسموا بعضها "العُزَّى" اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو "العزيز").

ثم نقل الطبري عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ ﴾، قال: (إلحاد الملحدين: أن دعوا "اللات" في أسماء الله)، ونقل عن قتادة[٢]: ﴿ يُلۡحِدُونَ ﴾ قال: يشركون) [٣].

---

(١) سورة فصلت: ٤٠.

(٢) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة، ثبت، يقال: ولد أكمه وهو رأس الطبقة الرابعة، مات سنة بضع عشرة. تقريب التهذيب (ص٧٩٨).

(٣) تفسير الطبري (١٣/٢٨٢).

وقال السعدي[١] – رحمه الله –: (وقوله: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[٢] أي: عقوبة وعذابا على إلحادهم في أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، و إما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها)[٣].

وقال شيخنا ابن عثيمين[٤] – رحمه الله – في معنى هذه الآية: (الإلحاد في الأسماء هو الميل فيها عما يجب، وهو أنواع:

---

(١) هو: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السَّعْدي التميمي، ولد سنة ١٣٠٧هـ من مؤلفاته تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن، والقواعد الحسان في تفسير القرآن، والأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، وتوفي في عنيزة سنة ١٣٧٦هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٣/٣٤٠).

(٢) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٣) تفسير السعدي (ص٣١٠).

(٤)هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن العثيمين الوهيبي التميمي، العالم الجليل والمربي الفاضل والقدوة الصالحة والطود الشامخ في العلم والزهد والتواضع والورع والفتوى، ولد سنة ١٣٤٧هـ، في مدينة عنيزة، وتوفي سنة ١٤٢١هـ، من مؤلفاته: "الشرح الممتع على زاد المستقنع"، "شرح العقيدة الواسطية"، "أحكام القرآن الكريم". انظر: ترجمته بقلم أحد تلاميذه في مقدمة كتاب شرح العقيدة الواسطية (١/٩).

النوع الأول: أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه، كما سماه الفلاسفة علة فاعلة وسماه النصارى: أباً، وعيسى: الابن، فهذا إلحاد في الأسماء الله وكذلك لو سمى الله بأي اسم لم يسم به نفسه، فهو ملحد في أسماء الله.

ووجه ذلك أن أسماء الله عز وجل توقيفية، فلا يمكن أن نثبت له إلا ما ثبت بالنص، فإذا سميت الله بما لم يسم به نفسه، فقد ألحدت وملت عن الواجب.

وتسمية الله بما لم يسم به نفسه سوء أدب مع الله وظلم وعدوان في حقه، لأنه لو أن أحداً دعاك بغير اسمك أو سماك بغير اسمك، لاعتبرته قد اعتدى عليك وظلمك هذا في المخلوق، فيكف بالخالق؟!

إذاً، ليس لك حق أن تسمي الله بما لم يسم به نفسه، فإن فعلت، فأنت ملحد في أسماء الله.

النوع الثاني: أن ينكر شيئاً من أسمائه، عكس الأول، فالأول سمى الله بما لم يسم به نفسه، وهذا جرَّدَ الله مما سمى به نفسه، فينكر الاسم، سواء أنكر كل الأسماء أو بعضها التي تثبت لله، فإذا أنكرها، فقد ألحد فيها.

ووجه الإلحاد فيها: أنه لما أثبتها الله لنفسه، وجب علينا أن نثبتها له، فإذا نفيناها، كان إلحاداً و ميلاً بها عما يجب فيها.

وهناك من الناس من أنكر الأسماء، كغلاة الجهمية[١]، فقالوا: ليس لله اسم أبداً! قالوا: لأنك لو أثبت له اسماً، شبهت بالموجودات، وهذا معروف أنه باطل مردود.

النوع الثالث: أن ينكر ما دلت عليه من الصفات، فهو يثبت الاسم، لكن ينكر الصفة التي يتضمنها هذا الاسم، مثل أن يقول: إن الله سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، وخالق بلا خلق، وقادر بلا قدرة. . . وهذا معروف عن المعتزلة [٢]، وهو غير معقول!

ثم هؤلاء يجعلون الأسماء أعلاماً محضة متغايرة، فيقولوا: السميع غير العلم، لكن لكها ليس لها معنى! السميع لا يدل على السمع! والعليم لا يدل على العلم! لكن مجرد أعلام! !

---

(١) الجهمية: هم أصحاب الضّال جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، وأول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل الله عن صفاته. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٨٦/١)، وفرق معاصرة لغالب عواجي (١١٣٢/٣).

(٢) المعتزلة فرقة ظهرت في القرن الثاني الهجري بزعامة واصل بن عطاء الغزال، وقد تفرقت المعتزلة فرقا كثيرة، ويجمعهم إطار عام وهو الاعتقاد بالأصول الخمسة: التوحيد على طريقة الجهمية، والعدل على طريقة القدرية، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على طريقة الخوارج. انظر: فرق معاصرة لغالب عواجي (١١٦٣/٣-١١٦٥)

ومنهم آخرون يقولون: هذه الأسماء شيء واحد، فهي عليم و سميع وبصير كلها واحد، لا تختلف إلا بتركيب الحروف فقط، فيجعل الأسماء شيئاً واحداً! !

وكل هذا غير معقول، ولذلك نحن نقول: إنه لا يمكن الإيمان بالأسماء حتى تثبت ما تضمنته من الصفات.

النوع الخامس: أن ينقلها إلى المعبودات، أو يشتق أسماء منها للمعبودات، مثل أن يسمي شيئاً معبوداً بالإله، فهذا إلحاد، أو يشتق منها أسماء للمعبودات مثل: اللات من الإله، والعزى والعزيز، ومناة من المنان، فنقول: هذا أيضاً إلحاد في أسماء الله، لأن الواجب عليك أن تجعل أسماء الله خاصة به، ولا تتعدى وتتجاوز فتشتق للمعبودات منها أسماء.

هذه أنواع الإلحاد في أسماء الله.

فأهل السنة والجماعة لا يلحدون في أسماء الله أبداً بل يجرونها على ما أراد الله بها سبحانه و تعالى ويثبتون لها جميع أنواع الدلالات، لأنهم يرون أن ما خالف ذلك، فهو إلحاد)[١].

(١) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (ص١١٩).

وقال القرطبي[١] – رحمه الله – في تفسير آية النحل: (﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ ﴾[٢] الإلحاد: الميل، يقال: لحد وألحد، أي مال عن القصد وقد تقدم في الأعراف. وقرأ حمزة[٣]" يَلحَدون" بفتح الياء والحاء، أي لسان الذي يميلون إليه ويشيرون أعجمي)[٤].

وقال الشوكاني – رحمه الله – في تفسيره: (﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ ﴾[٥] الإلحاد: الميل، يقال: لحد وألحد أي: مال عن القصد. . . أي: لسان الذين يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمي)[٦].

---

(١) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرْح الأنصارى، الخزرجى، الأندلسى، القرطبى المفسِّر، من مصنفاته: كتابه في التفسير المسمى بـ "الجامع لأحكام القرآن"، وكتاب التذكار في أفضل الأذكار، وكتاب التذكرة بأمور الآخرة، وتُوفى ودُفن بها في شوَّال سنة ٦٧١ هـ انظر: التفسير والمفسرون للذهبي (٢/٣٣٦).

(٢) سورة النحل: ١٠٣

(٣) هو حمزة بن حبيب ابن عمارة بن إسماعيل، الامام القدوة، شيخ القراءة، أبو عمارة التيمي، مولاهم الكوفي الزيات، توفي سنة ثمان وخمسين ومئة. انظر: سير أعلام النبلاء (٧/٩٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٧٨).

(٥) سورة النحل: ١٠٣

(٦) فتح القدير (٣/٢٣٣).

وقال الشنقيطي[١] – رحمه الله –: (﴿ يُلۡحِدُونَ ﴾[٢]، أي: يميلون عن الحق. والمعنى لسان البشر الذي يلحدون، أي: يميلون قولهم عن الصدق والاستقامة إليه ؛ أعجمي غير بين، ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[٣]، أي: ذو بيان وفصاحة)[٤].

وقال القرطبي – رحمه الله – في تفسير آية فصلت، وهو الموضع الثالث: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ [٥] أي: يميلون عن الحق في أدلتنا. والإلحاد: الميل والعدول. ومنه اللحد في القبر لأنه أميل إلى ناحية منه. يقال: ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل. ولحد لغة فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا: ﴿ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ [٦]وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحق فقالوا: ليس القرآن من عند الله، أو هو شعر أو سحر، فالآيات آيات القرآن. قال مجاهد[٧]: ﴿ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية

---

(١) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ولد سنة ١٣٢٥هـ له كتب، منها (أضواء البيان في تفسير القرآن، منع جواز المجاز، ومنهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، وتوفي بمكة سنة ١٣٩٣هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٦/٤٤-٤٥).

(٢) سورة النحل: ١٠٣

(٣) سورة النحل: ١٠٣

(٤) أضواء البيان (٢/٤٥٤).

(٥) سورة فصلت: ٤٠.

(٦) سورة فصلت: ٢٦.

(٧) هو: مجاهد بن جبر الإمام أبو الحجاج مولى السائب بن أبي السائب المخزومي المكي المقرئ =

واللغو والغناء. وقال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يكذبون في آياتنا. وقال السدي(١): يعاندون ويشاقون. وقال ابن زيد (٢): يشركون ويكذبون. والمعنى متقارب. وقال مقاتل(٣): نزلت في أبي جهل. وقيل: الآيات المعجزات، وهو يرجع إلى الأول فإن القرآن معجز)(٤).

وقال الشوكاني - رحمه الله -: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ (٥) أي: يميلون عن الحق، والإلحاد: الميل والعدول، ومنه اللحد في القبر: لأنه أميل إلى ناحية منه، يقال ألحد في دين الله: أي مال وعدل عنه، ويقال لحد)(٦).

المفسر أحد الأعلام، توفي سنة ثلاث ومائة وقد نيف على الثمانين. انظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي (ص٣٧).

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي الأعور، أحد موالي قريش، مات سنة بضع وعشرين ومئة. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٤).

(٢) هو: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني، كان صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيرا في مجلد، وكتابا في الناسخ والمنسوخ، توفي سنة اثنتين وثمانين ومئة. انظر: سير أعلام النبلاء (٨/٣٤٩).

(٣) هو: أبو الحسن، مقاتل بن سليمان البلخي، كبير المفسرين، أجمعوا على تركه، مات سنة نيف وخمسين ومئة. انظر: سير أعلام النبلاء (٧/٢٠١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٥/٣٦٦).

(٥) سورة فصلت: ٤٠.

(٦) فتح القدير (٤/٥٩٤).

وقال الطاهر بن عاشور [١]– رحمه الله –: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾[٢] استئناف ابتدائي قصد به تهديد الذين أهملوا الاستدلال بآيات الله على توحيده. . . والإلحاد حقيقته: الميل عن الاستقامة، والآيات تشمل الدلائل الكونية المتقدمة في قوله: ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾[٣] وقوله: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ ... ﴾[٤]إلخ. وتشمل الآيات: الآيات القولية المتقدمة في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾[٥]. فالإلحاد في الآيات مستعار للعدول والانصراف عن دلالة الآيات الكونية على ما دلت عليه. والإلحاد في الآيات القولية مستعار للعدول عن سماعها وللطعن في صحتها وصرف الناس عن سماعها، وحرف في من قوله: ﴿ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ للظرفية المجازية لإفادة تمكن إلحادهم حتى كأنه مظروف في

---

(١) هو: محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، من مؤلفاته: "مقاصد الشريعة الإسلامية"، "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، "التحرير والتنوير" في تفسير القرآن، توفي سنة١٣٧٧هـ.

(٢) سورة فصلت: ٤٠.

(٣) سورة فصلت: ٩.

(٤) سورة فصلت: ٣٧.

(٥) سورة فصلت: ٢٦.

آيات الله حيثما كانت أو كلما سمعوها. ومعنى نفي خفائهم: نفي خفاء إلحادهم لا خفاء ذواتهم إذ لا غرض في العلم بذواتهم)[(١)].

وإضافة إلى ما تقدم فقد توسع المتأخرون من أهل العلم في استعمال كلمة "الإلحاد" حتى شمل من جحد ربوبية الله عز وجل على خلقه، بل نكاد نجزم أن استعمال المتأخرين لهذه الكلمة في هذا المعنى بالذات، كما تقدم ذكره في تعريف الإلحاد اصطلاحاً.

ويرى بعض المعاصرين في تعريف الإلحاد أنه إنكار وجود الرب سبحانه وتعالى، وهو ما سأتناوله بالبحث في هذه الرسالة[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/٣٠٣-٣٠٤).

(٢) انظر: كواشف زيوف المذاهب المعاصرة لعبد الرحمن الميداني ص (٤٠٩)، ينظر: المذاهب الفكرية المعاصرة د. غالب عواجي ٢/١٠٠٣.

الربط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظ الإلحاد:

إن المعنى الاصطلاحي للإلحاد مشتق من المعنى اللغوي له، إلا أنه زيد عليه، فالمعنى اللغوي للإلحاد هو الميل، والمعنى الاصطلاحي هو: ميل عن الحق.

وبينهما إطلاق وتقييد، فالمعنى اللغوي مطلق، والمعنى الاصطلاحي مقيد له كما قرر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله[1].

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/٣٠٠).

المبحث الثالث:

مدى استفادة الإمام ابن القيم - رحمه الله - تعالى ممن سبقه من العلماء في الرد على الملاحدة.

من خلال النظر في تقريرات ابن القيم - رحمه الله - تعالى يتضح أنها كانت تقريرات شاملة، فجمع أصول الردود على الملاحدة وبين خطأ ما سلكه بعض المتقدمين من علماء الكلام والفلاسفة[١] الذين ردوا على الملاحدة بردود ضعيفة، أو تفتح باب الاستطالة على أهل الإسلام. من ذلك أن ابن القيم - رحمه الله - تعالى بين اعتماد المتكلمين[٢] في إثبات حدوث العالم على دليل التمانع أو حدوث الأجسام، ووضح الخلل المترتب على هذه الطريقة الفاسدة وشمل نقده الفخر الرازي[٣]،

---

(١) الفلاسفة: نسبة إلى الفلسفة، وهي كلمة يونانية مركبة من كلمتين (فيلا) بمعنى الإيثار، أو المحبة، و(سوفيا) بمعنى الحكمة وقد تطور هذا المصطلح حتى صار يعني النظر العقلي المتحرر من كل قيد، حتى وإن صادم الدين، وفي ظل هذه الفلسفة نشأت ثلاث مدارس فلسفية تختلف فيما بينها في الأصول، وهم الدهريون، والطبائعيون، والإلهيون. انظر: الموسوعة الميسرة (١١٠٨/٢-١١١٠)، مصطلحات في كتب العقائد للحمد ص (٩٤).

(٢) المتكلمون: نسبة إلى علم الكلام، وهو علم حادث في الملة، وله عند أصحابه تعريفات، منها: (أنه علم يقتدر معه إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه) ولم يقم علم الكلام وتوضع أصوله إلا في عهد المأمون بعد أن ترجمت كتب اليونان الفلسفية إلى اللغة العربية، وقد ذم السلف الصالح علم الكلام، والمشتغلين به لأنه بسببه تسقط هيبة الأدلة السمعية، بل هيبة الرب تبارك وتعالى. انظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٤/١)، الموسوعة الميسرة (١٠٩٦/٢-١٠٩٧).

(٣) هو: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازيّ، من مؤلفاته: "مفاتيح الغيب"، "معالم أصول الدين"، "المحصول في علم الأصول"، توفي سنة ٦٠٦هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣٨١/٣-٣٨٥) ، شذرات الذهب (٢١/٥)، الأعلام للزركلي (٣١٣/٦).

وسيف الدين الآمدي(١)، وأبي حامد الغزالي(٢)، والجويني(٣)، وأبي بكر الباقلاني(٤).

كما أنه انتقد المتكلمين من أتباع المذاهب الأربعة الذين دخل عليهم بعض أصول أهل الكلام، كابن الزاغوني(٥)، و ابن شاقلا(٦).

---

(١) هو: علي بن محمد بن سالم التغلبي، أبو الحسن، سيف الدين الآمدي: أصولي، باحث، من مؤلفاته: "الإحكام في أصول الأحكام"، "منتهى السول"، "دقائق الحقائق" توفي سنة٦٣١ هـ. انظر: وفيات الأعيان (٢٩٣/٣).

(٢)هو: أبوحامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، الشافعي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط، من مؤلفاته: "إحياءعلوم الدين "، "تهافت الفلاسفة "، "المستصفى من علم الأصول " توفي سنة ٥٠٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٢٣/١٩).

(٣) هو: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجُوَيْني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين: أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعيّ، من مؤلفاته: "البرهان"، "نهاية المطلب في دراية المذهب"، "الورقات "، توفي سنة٤٧٨ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٤٦٨/١٨).

(٤) هو: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني، أبو بكر: قاض، من كبار علماء الكلام. انتهت اليه الرياسه في مذهب الأشاعرة، من مؤلفاته: "إعجاز القرآن"، "الإنصاف"، "دقائق الكلام"، توفي سنة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٩٠/١٧).

(٥) هو: علي بن عبيد الله بن نصر بن السريّ ابن الزاغوني ، أبو الحسن: مؤرخ، فقيه، من أعيان الحنابلة، من مؤلفاته: "الإيضاح"، "الإقناع"، "الخلاف الكبير" توفي سنة ٥٢٧ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٤١٢/١٤)، الأعلام للزركلي (٣١٠/٤).

(٦) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاقلا البغدادي البزاز، شيخ الحنابلة وتلميذ أبي بكر عبد العزيز، وكان صاحب حلقة للفتيا والأشغال بجامع المنصور توفي كهلا في رجب سنة سنة تسع وستين وثلاثمائة. شذرات الذهب (٦٨/٣).

قال ابن القيم – رحمه الله – تعالى منتقدًا الفلاسفة والمتكلمين: (إن الفلاسفة لما أوردوا عليكم هذه الحجة بعينها في نفي الصفات أجبتم عنها بأن قلتم- واللفظ للرازي في نهايته – فقال: قوله: يلزم من إثبات الصفات وقوع الكثرة في الحقيقة الإلهية، فتكون تلك الحقيقة ممكنة، قلنا: إن عنيتم به احتياج تلك الحقيقة إلى سبب خارجي، فلا يلزم لاحتمال استناد تلك الصفات إلى الذات الواجبة لذاتها، وإن عنيتم به توقف الصفات في ثبوتها على تلك الذات المخصوصة، فذلك مما يلزمه، فأين المحال؟ قال: وأيضا فعندكم الإضافات صفات وجودية في الخارج فيلزمكم ما ألزمتمونا في الصفات في الصور المرتسمة في ذاته من المعقولات تلك، ومما يحقق فساد قول الفلاسفة أنهم قالوا: إن الله عالم بالكليات، وقالوا: إن العلم بالشيء عبارة عن حصول صورة مساوية للمعلوم في العالم، وقالوا: إن صورة المعلومات موجودة في ذات الله تعالى، حتى ابن سينا[1] قال: إن تلك الصفة إذا كانت غير داخلة في الذات كانت من لوازم الذات، ومن كان هذا مذهبا له كيف يمكنه أن ينكر

(١) هو: أبو علي، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، البلخي ثم البخاري، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق، كان أبوه كاتبا من دعاة الاسماعيلية، من مؤلفاته: "الانصاف"، "الشفاء"، "القانون"، توفي سنة ٤٢٨ هـ. سير أعلام النبلاء (١٧/٥٣١).

الصفات! قال: وبالجملة فلا فرق بين الصفاتية[١] وبين الفلاسفة، إلا أن الصفاتية يقولون: إن الصفات قائمة بالذات، والفلاسفة يقولون هذه الصور العقلية عوارض متقومة بالذات، والذي تسميه الصفاتية صفة يسميه الفلسفي عارضا، والذي يسميه الصفاتي قياما يسميه الفيلسوف قواما ومقوما، فلا فرق إلا بالعبارات، وإلا فلا فرق في المعنى. هذا لفظه فيقول له مثبتوا العلو: هلاّ قنعت منا بهذا الجواب بعينه حين قلت يلزم من علوه أن يتميز منه شيء عن شيء، ويلزم وقوع الكثرة في الحقيقة الإلهية، وتكون قد وافقت الشرع ونصوص الأنبياء، وكُتب الله كلها، وأدلة العقول والفطر الصحيحة، وإجماع أهل السنة قاطبة)[٢].

ومما يؤكد أن ابن القيم – رحمه الله – لم يلتفت إلى أقوال المتكلمين ما ورد في كتبه – رحمه الله – من انتقاد استدلالاتهم ومنهجهم في مصادر التلقي، ومن ذلك اعتمادهم على دليل التمانع.

---

(١) يريد الرازي بهم سلف الأمة الذين يثبتون الصفات لله إجمالا على ما يليق بجلاله، وسُمُّو بذلك؛ لأن المعتزلة ينفون الصفات، والسلف يثبتونها، فسُميت المعتزلة: المعطلة، والسلف الصفاتية، وقد تطلق الصفاتية عند مؤلفي أهل السنة من ينكر بعض الصفات ويؤمن ببعضها، كما تطلق على الأشعرية، والمشبهة والكرامية. انظر: الملل والنحل (١/١١٦، ١١٩)، الصواعق المرسلة (٤/١٣٢٧، ١٣٧٠).

(٢) الصواعق المرسلة: (٤/١٣٢٥-١٣٢٧).

وأنقل نصاً يدل على موقف ابن القيم من هذا الدليل، قال ابن القيم – رحمه الله – عن دليل التمانع، ونقده له: (قال الجبري: دليل التوحيد ينفي كون العبد فاعلا، وأن يكون لقدرته تأثير في فعله وتقريره بدليل التمانع، قال السني: دليل التوحيد إنما ينفي وجود رب ثان، ويدل على أنه لا رب إلا هو سبحانه، ولا يدل على امتناع وجود مخلوق له قدرة وإرادة مخلوقة يحدث بها، وهو وقدرته وإرادته وفعله مخلوق لله، فهو بعد طول مقدماته واعتراف فضلائكم بالعجز عن تقريره، وذكر ما في مقدماته من منع ومعارضة إنما ينفي وجود قادرين متكافئين قدرة كل واحد منهما من لوازم ذاته، ليست مستفادة من الآخر، وهو دليل صحيح في نفسه، وإن عجزتم عن تقريره ولكن ليس فيه ما ينفي أن تكون قدرة العبد وإراداته سببا لوجود مقدوره وتأثيرها فيه تأثير الأسباب في مسبباتها، فلا للتوحيد قررتم بدليل التمانع، ولا للجبر، وقد كفانا أفضل متأخريكم بيان تنافي هذا الدليل من المنوع والمعارضات) [1].

---

(١) شفاء العليل (ص١٥٠).

وكذلك بيّن ما لدى الفلاسفة المنتسبين للإسلام من الضلالات حتى في طريقة ردهم على الملاحدة، وذلك في آخر المجلد الثاني من كتابه "إغاثة اللهفان"[(١)] في معرض رده على الفلاسفة.

ومن خلال ما تقدم يظهر أن ابن القيم لم يعتمد في رده على الملاحدة على أهل الكلام والفلسفة، بل اعتمد الإمام ابن القيم - رحمه الله - على الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، ثم على أفهام العلماء المعتبرين ممن أدركه وسبقه واستفاد منهم، وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كما ذكر ذلك ابن القيم نفسه في كتابه الميمية، والنونية عندما مدح شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - تعالى لتسببه في نقله من الضلال إلى الهدى.

وقد ذكر ابن تيمية - رحمه الله - عدداً من العلماء الذين ردوا على الملاحدة ومنهم أبوبكر بن الطيب الباقلاني، وعبد الجبار الهمداني[(٢)]، وأبو

---

(١) (٢/٢٥٥-٢٦٣).

(٢) هو: القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل الهمذاني ، العلامة المتكلم، شيخ المعتزلة، أبو الحسن ، من كبار فقهاء الشافعية، من كؤلفاته: " الامالي في الحديث " و " دلائل النبوة " و " طبقات المعتزلة "، " شرح الاصول الخمسة"، توفي سنة خمس عشرة وأربع مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/١٤٥).

حامد الغزالي، وأبو اسحاق الإسفراييني[١] وابن فورك[٢] وابو يعلى الفراء[٣] و ابن عقيل[٤] و الشهرستاني[٥] وغيرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – تعالى في رده على ملاحدة الفلاسفة: (ثم إن هؤلاء إنما يتبعون كلام ابن سينا، وابن سينا تكلم في أشياء

(١) هو: أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفراييني الاصولي الشافعي، الملقب ركن الدين، أحد المجتهدين في عصره، وصاحب المصنفات الباهرة، من مؤلفاته: "جامع الحلي في أصول الدين والرد على الملحدين" توفي سنة٤١٨هـ. سير أعلام النبلاء (٣٥٣/١٧)، الأعلام (٦١/١).

(٢) هو: أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ الأصبهاني، من مؤلفاته: مشكل الحديث وغريبه"، " التفسير"، " غريب القرآن"، وكانت وفاته سنة ست وأربعمائة. انظر: وفيات الأعيان (٢٧٢/٤)، الأعلام للزركلي (٥/ ١٦٢).

(٣) هو: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفَرَّاء، أبو يعلى: عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون. من أهل بغداد، من مؤلفاته: "الإيمان"، "أربع مقدمات في أصول الديانات"، "أحكام القرآن"، توفي سنة ٤٥٨ هـ. انظر: تاريخ بغداد (٢٤٨/٢)، الأعلام للزركلي (٩٩/٦).

(٤) هو: علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، أبو الوفاء، يعرف بابن عقيل: عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته. كان قويّ الحجة، اتهم ببعض آراء المبتدعة، ويقال أنه تراجع وتاب، من مؤلفاته: "الفنون"، " الفرق"، "الفصول"في فقه الحنابلة"، توفي سنة ٥١٣ هـ. سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٣).

(٥) هو: محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، أبو الفتح، شيخ أهل الكلام والحكمة، وصاحب التصانيف، كان إماما في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، من كتبه: "الملل والنحل"، "نهاية الإقدام في علم الكلام"، "الإرشاد إلى عقائد العباد". انظر: سير أعلام النبلاء (٢٨٦/٢٠)، الأعلام للزركلي (٢١٥/٦).

من الإلهيات، والنبوءات، والمعاد، والشرائع، لم يتكلم فيها سلفه ولا وصلت إليها عقولهم ولا بلغتها علومهم، فإنه استفادها من المسلمين، وإن كان إنما أخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين كالإسماعيلية[١]، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم، من اتباع الحاكم العبيدي[٢] الذي كان هو أهل بيته واتباعه معروفين عند المسلمين بالإلحاد، أحسن ما يظهرونه دين الرفض وهم في الباطن يبنطون الكفر المحض.

وقد صنف المسلمون في كشف أسرارهم وهتك أستارهم كتبا كبارا وصغارا، وجاهدوهم باللسان واليد، إذ كانوا أحق بذلك من اليهود والنصارى، ولو لم يكن إلا كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار للقاضي أبي

---

(١) سموا بذلك نسبة إلى محمد بن إسماعيل عليه رحمة الله، وليسوا على دينه، وقالوا: إنه الذي كتم السر الباطن عندهم الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر بكتمه عن الناس، إلا عن وصيه علي بن أبي طالب، واستكتكتمه ألا يخرج منه ذلك، إلا إلى من يخلفه من الأئمة المعصومين من ذريته حتى انتهى ذلك إلى محمد بن إسماعيل، وأنكروا حقائق اليوم الآخر والجنة والنار، وحملوا ذلك على تأويلات اصطلحوا عليها، فقالوا: القيامة حدوث الشر، والميزان ميزان الحكمة، إلى غير ذلك. البرهان في عقائد أهل الأديان (ص٤٧، ٤٨، ٥٠)، الملل والنحل (٢/٢٧، ٢٨).

(٢) هو: الحاكم بأمر الله، أبو علي منصور بن العزيز نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي، العبيدي المصري الرافضي، بل الاسماعيلي الزنديق المدعي الربوبية الحاكم بأمر الله، مولده في سنة خمس وسبعين وثلاث مئة، ووفاته سنة إحدى عشرة وأربعمائة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/١٧٣).

بكر محمد بن الطيب[١]، وكتاب عبد الجبار بن أحمد، وكتاب أبي حامد الغزالي، وكلام أبي إسحاق[٢]، وكلام ابن فورك، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، والشهرستاني، وغير هؤلاء مما يطول وصفه.

والمقصود هنا أن ابن سينا أخبر عن نفسه أن أهل بيته أباه وأخاه كانوا من هؤلاء الملاحدة، وأنه إنما اشتغل بالفلسفة بسبب ذاك، فانه كان يسمعهم يذكرون العقل والنفس.

وهؤلاء المسلمين الذين كان ينتَسب إليهم هم مع الإلحاد الظاهر والكفر الباطن أعلم بالله من سلفه الفلاسفة، كأرسطو[٣] وأتباعه فان أولئك ليس عندهم من العلم بالله إلا ما عند عباد مشركي العرب ما هو خير منه.

وقد ذكرت كلام أرسطو نفسه الذي ذكره في "علم ما بعد الطبيعة" في "مقالة اللام" وغيرها، وهو آخر منتهى فلسفته، وبينت بعض ما فيه من الجهل، فانه ليس في الطوائف المعروفين الذين يتكلمون في العلم الإلهي مع

---

(١) هو الباقلاني، تقدمت ترجمته.

(٢) هو الاسفراييني، تقدمت ترجمته.

(٣) هو: أرسطوطاليس، ولد سنة ٣٨٤ق. م، فيلسوف يوناني، تتلمذ على أفلاطون، وعلم الأسكندر الأكبر ملك مقدونية، وكان يحاضر ماشيا فسمي هو وأتباعه بالمشائين. انظر: بغية الطلب في تاريخ حلب للعقيلي (١٣٤٤/٣)، والموسوعة العربية الميسرة (ص١١٧).

الخطأ والضلال مثل علماء اليهود والنصارى وأهل البدع من المسلمين وغيرهم أجهل من هؤلاء ولا أبعد عن العلم بالله تعالى منهم.

نعم لهم في الطبيعيات كلام غالبه جيد، وهو كلام كثير واسع، ولهم عقول عرفوا بها ذلك، وهم قد يقصدون الحق، لا يظهر عليهم العناد، لكنهم جهال بالعلم الإلهي إلى الغاية، ليس عندهم منه إلا قليل كثير الخطأ.

وابن سينا لما عرف شيئا من دين المسلمين –وكان قد تلقى ما تلقاه عن الملاحدة وعمن هو خير منهم من المعتزلة والرافضة[1] – أراد أن يجمع بين ما عرفه بعقله من هؤلاء وبين ما أخذه من سلفه، فتكلم في الفلسفة بكلام مركب من كلام سلفه ومما أحدثه مثل كلامه في النبوات وأسرار الآيات والمنامات، بل وكلامه في بعض "الطبيعيات" و"المنطقيات" وكلامه في "واجب الوجود" ونحو ذلك)[2].

وممن استفاد ابن القيم –رحمه الله – منهم في الرد على الملاحدة:

١. الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – تعالى في قصته مع الملاحدة[3].

---

(١) الرافضة: طائفة من طوائف الشيعة، تعتقد بأحقية أهل البيت بالإمامة على باقي الصحابة بمن فيهم الشيخان – رضي الله عنهما – على أن هذه الإمامة ركن من أركان الدين بنص النبي – صلى الله عليه وسلم – وأن الأنبياء والأئمة معصومون، ويشمل أيضاً كل من يقول بالبداء والرجعة. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (١/١٥)، والموسوعة الميسرة (٢/١٠٥٩).

(٢) الرد على المنطقيين: (١/١٤١/١٤٤).

(٣) انظر: العقيدة الطحاوية (٢/٣٥).

٢. الإمام مالك – رحمه الله – تعالى في وصيته بالإعراض عن الملاحدة وشبهاتهم.

٣. الإمام الشافعي – رحمه الله – تعالى استفاد منه ومن منهجه في سده الطرق على أهل الكلام حيث قال عنهم: " حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام"[(١)].

٤. الإمام أحمد – رحمه الله – تعالى في كتاب "الرد على الجهمية و الزنادقة".

والمتأمل في كتب ابن القيم – رحمه الله – يرى نفَسَه السلفي في اعتماده على القرآن و السنة، وإجماع السلف، والآثار المروية عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين – رحمهم الله – وكذلك استدلالاته العقلية الصحيحة مخالفاً بذلك منهج المتكلمين والفلاسفة، والصوفية[(٢)] وغيرهم من أهل البدع.

---

(١)تحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة (ص٤١).

(٢) الصوفية: فرقة دينية انتشرت في القرن الثالث، وقد مر التصوف بمراحل، فقد كان أوله زهدا في الدنيا وانقطاعا لعبادة الله عز وجل ثم صار حركات ومظاهر خالية من الروح والعبادة، ثم صار إلحاداً وخروجاً عن دين الله؛ فقالوا بالحلول، ووحدة الوجود، وإباحة المحرمات، وترك الواجبات وعلم الباطن. انظر: اعتقاد فرق المسلمين والمشركين (ص٨٧، ١١٥)، الموسوعة الميسرة (١/٢٤٩)، والصوفية الغلاة القائلين بوحدة القائلين بوحدة الوجود، يصدق عليهم بأنهم ملاحدة، إذ مؤدى قولهم إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى.

الباب الأول: جهود ابن القيم في بيان حقيقة الإلحاد وأنواعه وأسبابه وآثاره، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: تعريف ابن القيم للإلحاد .

الفصل الثاني: بيان ابن القيم لأنواع الإلحاد .

الفصل الثالث: بيان ابن القيم لأسباب الإلحاد .

الفصل الرابع: بيان ابن القيم لآثار الإلحاد .

الفصل الأول:

تعريف ابن القيم للإلحاد.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإلحاد لغة وشرعا عند ابن القيم.

المبحث الثاني: سياق أبرز أقوال المفسرين وشراح الحديث في بيان معنى الإلحاد.

المبحث الثالث: الفرق بين تعريف ابن القيم للإلحاد وتعريفات من سبقه من أهل العلم.

المبحث الأول:

تعريف الإلحاد لغة وشرعاً عند ابن القيم.

سبق معنا تعريف الإلحاد لغة عند أهل اللغة، وفي هذا المبحث سأذكر التعريف اللغوي والشرعي للإلحاد عند ابن القيم – رحمه الله –:

قال ابن القيم في تعريف الإلحاد لغة: (وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته "ل ح د" فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط)[(١)].

وبهذا يتضح أن ابن القيم – رحمه الله – فسر الإلحاد لغة بما يتوافق مع ما قرره أئمة أهل اللغة العربية كما تقدم في البحث.

وقال ابن القيم في تعريف **الإلحاد شرعاً**: (الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل)[(٢)].

وقال أيضاً: (والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها)[(٣)].

وقال أيضاً: (وحقيقة الإلحاد فيها العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها)[(٤)].

---

(١) بدائع الفوائد (١/١٦٩) و فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى (ص: ٤٥).
(٢) بدائع الفوائد (١/١٦٩) و فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى (ص: ٤٥).
(٣) بدائع الفوائد (١/١٦٩) و فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى (ص: ٤٥).
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/٥٤).

فعُرف بذلك أن تعريف ابن القيم - رحمه الله - تعالى للإلحاد شرعاً لا يخرج عن تعريفات أهل العلم المفسرين للإلحاد.

وبهذا يتضح أن ابن القيم - رحمه الله - تعالى يقسم الإلحاد إلى قسمين:

القسم الأول: الإلحاد العام، وهو: الذي سماه الإلحاد في الدين.

والقسم الثاني: الإلحاد في الأسماء والصفات.

والمراد بالإلحاد في هذا البحث: هو المعنى المصطلح عليه في هذا العصر، وهم: من أنكروا وجود رب خالق لهذا الكون، متصرف فيه، يدبر أمره بعلمه وحكمته، ويجري أحداثه بإرادته وقدرته، واعتبار الكون أو مادته الأولى أزلية، واعتبار تغيراته قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار الحياة - وما تستتبع من شعور وفكر حتى قمتها الإنسان - من أثر التطور الذاتي للمادة[1]

(١) انظر: كواشف زيوف المذاهب المعاصرة لعبد الرحمن الميداني ص (٤٠٩).

المبحث الثاني:

سياق أبرز أقوال المفسرين وشراح الحديث في بيان معنى الإلحاد.

بعد ما انتهينا من تعريف الإلحاد لغة وشرعا عند ابن القيم – رحمه الله – سأسوق في هذا المبحث بعض أقوال لمفسرين وشراح الحديث في بيان معنى الإلحاد.

كلام المفسرين وغيرهم في معنى قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[(١)]

(قال ابن عباس ومجاهد: عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان) [(٢)].

(وروي عن ابن عباس ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[(٣)] يكذبون عليه)[(٤)].

قال ابن جرير: (وهذا تفسير بالمعنى) ثم قال: (ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى) [(٥)].

وقيل: يلحدون أي يشركون. حكاه ابن جرير عن قتادة [(٦)].

(١) سورة الأعراف: ١٨٠.
(٢) مدارج السالكين (٥٤/١) وأخرجه الطبري في التفسير (٥٩٦/١٠-٥٩٧)، وتفسير البغوي (٣٠٧/٣).
(٣) سورة الأعراف: ١٨٠.
(٤) مدارج السالكين (٥٤/١)، وأخرجه الطبري في التفسير (٥٩٧/١٠).
(٥) تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص٣٣).
(٦) تفسير الطبري (٥٩٧/١٠).

وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة [(١)].

وقال ابن جرير في معنى الإلحاد: (وأصل "الإلحاد" في كلام العرب: العدول عن القصد، والجورُ عنه، والإعراض. ثم يستعمل في كل معوَجّ غير مستقيم) [(٢)]

وقال البغوي[(٣)] - رحمه الله - تعالى: (وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يسم به، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) [(٤)].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[(٥)]: (قال ابن عباس: من غير رب، ومعناه: أخلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق؟ وذلك مما لا يجوز أن يكون، لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة

---

(١) تفسير البغوي (٣٠٧/٣).

(٢) تفسير الطبري(٥٩٧/١٠).

(٣) هو: الشيخ الامام، العلامة القدوة الحافظ، شيخ الاسلام، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المفسر، من مؤلفاته: "شرح السنة"، و "معالم التنزيل" و "المصابيح" مات في شوال سنة ست عشرة وخمس مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (٤٤٢/١٩).

(٤) تفسير البغوي (٣٠٧/٣).

(٥) سورة الطور: ٣٥.

الاسم، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[(١)] لأنفسهم وذلك في البطلان أشد، لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟

فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا فليؤمنوا به، ذكر هذا المعنى أبو سليمان الخطابي[(٢)].

وقال الزجاج: معناه: أخلقوا باطلا لا يحاسبون ولا يؤمرون؟ وقال ابن كيسان[(٣)]: أخلقوا عبثا وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون، فهو كقول القائل: فعلت كذا وكذا من غير شيء أي: لغير شيء، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[(٤)] لأنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(٥)] فيكونوا هم هم الخالقين، ليس الأمر كذلك، ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾)[(٦)].

---

(١) سورة الطور: ٣٥.

(٢) هو: الإمام العلامة، الحافظ اللغوي، أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، صاحب التصانيف، ولد سنة بضع عشرة وثلاث مئة، من مؤلفاته: "شرح السنن"، "غريب الحديث"، "العزلة"، مات في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة. سير أعلام النبلاء (٢٣/١٧).

(٣) هو: عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر الأصم. فقيه معتزلي مفسر، كان من أفصح الناس وأفقههم وأورعهم، له "تفسير". انظر: طبقات المفسرين للداودي (٢٧٤/١)، الأعلام للزركلي (٣٢٣/٣).

(٤) سورة الطور: ٣٥.

(٥) سورة الطور: ٣٦.

(٦) تفسير البغوي (٣٩٢/٧).

وقال ابن الجوزي[١] - رحمه الله - تعالى: (اللحد: شق في جانب القبر، ومنه الإلحاد: وهو الميل عن الاستقامة في الدين)[٢].

وقال ابن كثير - رحمه الله - تعالى: (وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر)[٣].

وقال ابن كثير - رحمه الله - تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ . . . ﴾[٤]: (يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾

---

(١) هو: جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الشيخ الامام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الاسلام، مفخر العراق، ولد سنة تسع أو عشر وخمس مئة، من مؤلفاته: "الناسخ والمنسوخ"، "تلبيس إبليس"، "المدهش" توفي سنة ٥٩٧هـ. سير أعلام النبلاء (٢١/٣٦٥).

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (١/٢٤٥).

(٣) تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/٥١٦)، وانظر: فتح الباري لابن حجر (١٢/٢١٠)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/١٥٨).

(٤) سورة إبراهيم: ١٠.

وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى)[(١)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٨٢).

وقال الطاهر بن عاشور: (ولما كان إنكار الخالق أو إنكار كماله أو إنكار ما جاءت به رسله ضربا من كفران نعمته على جاحدها، أطلق عليه اسم الكفر، وغلب استعماله في هذا المعنى. وهو في الشرع إنكار ما دلت عليه الأدلة القاطعة وتناقلته جميع الشرائع الصحيحة الماضية حتى علمه البشر وتوجهت عقولهم إلى البحث عنه، ونصبت عليه الأدلة، كوحدانية الله تعالى ووجوده، ولذلك عد أهل الشرك فيما بين الفترة كفارا. وإنكار ما علم بالضرورة مجيء النبيء – صلى الله عليه وسلم – به ودعوته إليه، وعده في أصول الإسلام، أو المكابرة في الاعتراف بذلك، ولو مع اعتقاد صدقه، ولذلك عبر بالإنكار دون التكذيب. ويلحق بالكفر في إجراء أحكام الكفر عليه كل قول أو فعل لا يجترىء عليه مؤمن مصدق، بحيث يدل على قلة اكتراث فاعله بالإيمان، وعلى إضماره الطعن في الدين، وتوسله بذلك إلى نقض أصوله، وإهانته بوجه لا يقبل التأويل الظاهر)[(١)].

---

(١) التحرير والتنوير (١/٢٤٨-٢٤٩).

وقال ابن حجر - رحمه الله -: (قال أهل اللغة: أصل الإلحاد الميل والعدول عن الشيء، وقيل للمائل عن الدين: ملحد، وسمي اللحد لأنه شق يعمل في جانب القبر فيميل عن وسط القبر إلى جانبه بحيث يسع الميت فيوضع فيه ويطبق عليه اللبن) [1]. وقال ملا علي القاري[2]: (. . . الإلحاد، فإنه في الأصل لمطلق الميل) [3].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٣/٢١٢-٢١٣).

(٢) هو: علي بن (سلطان) محمد، نور الدين الملّا الهروي القاري، فقيه حنفي، من صدور العلم في عصره. ولد في هراة وسكن مكة، وتوفي بها، من مؤلفاته: " تفسير القرآن"، "الأثمار الجنية في أسماء الحنفية "، "شرح مشكاة المصابيح" توفي سنة ١٠١٤هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٥/١٢).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/٦٧٢).

المبحث الثالث:

الفرق بين تعريف ابن القيم للإلحاد وتعريفات من سبقه من أهل العلم.

بالنظر إلى المبحثين السابقين الأول والثاني، الأول وهو تعريف ابن القيم للإلحاد، والثاني وهو تعريف المفسرين وشراح الحديث للإلحاد ممن سبق الإمام ابن القيم - رحمه الله - يتبين أن أنه قد وافق من سبقه من أهل العلم في تعريفهم للإلحاد، فكلهم اتفقوا في تعريف الإلحاد بأنه: هو الميل عن الحق، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ.

وأما تفسير قتادة - رحمه الله - تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ ﴾[(١)] أي: يشركون[(٢)]، ومثله قول ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يُلْحِدُونَ ﴾[(٣)] أي: يكذبون علي[(٤)]، فهذا لا يخالف أصل المعنى، إذ أن كل من مال عن الحق فقد كذب على الله تعالى، وكذلك كل من مال عن الحق وسمى الآلهة الباطلة بأسماء الله الحق فقد أشرك، ومن أشرك فقد ألحد.

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٢)حكاه ابن جرير عن قتادة، تفسير الطبري (١٠/٥٩٧). .

(٣) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٤) مدارج السالكين: (١/٥٤)، وانظر تفسير (١٠/٥٩٦-٥٩٧). .

الفصل الثاني:

بيان ابن القيم لأنواع الإلحاد.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أنواع الإلحاد عند ابن القيم.

المبحث الثاني: أنواع الإلحاد عند أبرز من سبقه من أهل العلم.

المبحث الأول:

أنواع الإلحاد عند ابن القيم

بعد أن مرَّ بنا تعريف ابن القيم للإلحاد لغة وشرعاً، وعرفنا الفرق بين تعريفه، وتعريف من سبقه من أهل العلم، ففي هذا المبحث، أذكر أنواع الإلحاد التي ذكرها ابن القيم - رحمه الله - تعالى:

النوع الأول: الإلحاد في الأسماء والصفات وهو أقسام:

١- تسمية الأصنام بها.

٢- تسمية الله بما لا يليق به.

٣- وصفه جل وعلا بالنقائص والعيوب.

٤- تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها.

٥- تحريفها وتأويلها.

٦- تشبيه صفات الله بصفات خلقه.

في بيان ذلك يقول ابن القيم رحمه الله:

(فالإلحاد في أسمائه أنواع:

أحدها: أن يسمى الأصنام بها؛ كتسميتهم اللات من الإلهية والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلها؛ وهذا إلحاد حقيقة فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا،

وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص؛ كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلولة، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها؛ كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني. . .

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علوا كبيراً)[1].

ويقول أيضاً: (فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم: وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلاً، وشرعاً وعرفاً، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً، تعالى الله عما يقول الملحدون علوا كبيرا)[2].

---

(١) فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى (ص٤٦– ٤٧)بتصرف.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٥٤/١).

النوع الثاني من أنواع الإلحاد التي ذكرها ابن القيم – رحمه الله –: الإلحاد في الدين، ومعناه إنكار ربوبية الله عز وجل، وجحد النبوات والمعاد(١).

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ... ﴾(٢) الآيات.

(يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣) وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾(٤)، ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾(٥) وكانوا يجحدون الصانع – تعالى – ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٦) قال له: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾(٧). ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة (٣/٩١٩).

(٢) سورة الشعراء: ٢٣-٢٨.

(٣) سورة الشعراء: ٢٣.

(٤) سورة القصص: ٣٨.

(٥) سورة الزخرف: ٥٤.

(٦) سورة الزخرف: ٤٦.

(٧) سورة طه: ٤٩ – ٥٠.

يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ (١) أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون؛ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (٢) أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلا لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ (٣) أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه: أن لكم إلها غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (٤) أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه. ﴿ قَالَ ﴾ أي: فرعون لقومه: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٥) أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم ربا

---

(١) سورة الشعراء: ٢٤.

(٢) سورة الشعراء: ٢٤.

(٣) سورة الشعراء: ٢٥.

(٤) سورة الشعراء: ٢٦.

(٥) سورة الشعراء: ٢٧.

غيري. ﴿ قَالَ ﴾ أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [(١)] أي: هو الذي جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربا، والمغرب مشرقا، كما أخبر تعالى عن ﴿ ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(٢)]) [(٣)].

وقال أيضاً: (قال مجاهد وعكرمة[(٤)]: جَاءَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ- لَعَنَهُ اللهُ - إِلَى رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - وفي يده عظم رميم، وهو يفته ويذروه فِي الْهَوَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَتَزْعُمُ أن الله يبعث هذا؟ قال - صلى الله عليه وسلم -: « نعم، يمتيك اللهُ تَعَالَى ثُمَّ يَبْعَثُكَ ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ »، وَنَزَلَتْ

(١) سورة الشعراء: ٢٨.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٨.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/١٣٨-١٣٩).

(٤) هو: عكرمة أبو عبد الله مولى ابن عباس، أصله بربري، ثقة ثبت عالم بالتفسير. تقريب التهذيب (ص٦٨٧).

هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾[(١)] إلى آخرهن[(٢)]، و قال ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[(٣)]، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر[(٤)]عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَنَّ الْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ أَخَذَ عَظْمًا مِنَ الْبَطْحَاءِ فَفَتَّهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: أَيُحْيِي اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: « نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللهُ ثُمَّ يُحْيِيكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ»، قَالَ: وَنَزَلَتِ الْآيَاتُ من آخر يس[(٥)]، . . . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث)[(٦)].

---

(١) سورة يس: ٧٧.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٨٦/١٩)، وهو في صحيح السيرة النبوية للألباني (ص٢٠٠).

(٣) هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، العلامة، الحافظ، صنف في الفقه، وفي اختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الامصار، من مؤلفاته "الرد على الجهمية"، "التفسير"، "الجرح والتعديل"، توفي سنة سبع وعشرين وثلاث مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٦٣/١٣).

(٤) هو: سعيد بن جبير الأسدي مولاهم الكوفي ثقة ثبت فقيه. تقريب التهذيب (ص٣٧٤).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢٠٣/١٠)، والضياء في المختارة (١٠٨/٤) رقم (٨٢) وصححه.

(٦) تفسير ابن كثير (٥٩٣/٦–٥٩٤).

المبحث الثاني:

أنواع الإلحاد عند أبرز من سبقه من أهل العلم

سبق ذكر تعريف ابن القيم للإلحاد وبيان أنواعه التي ذكرها.

وقد استفاد ابن القيم ذلك التقسيم من كلام من سبقه من المفسرين وغيرهم وإن لم يصرح كثير منهم بالتقسيم. وإليك طرفا من كلامهم – رحمهم الله –:

قال السمعاني[(١)]: (الإلحاد: هو الميل عن الحق، وإدخال ما ليس في الدين، قيل: والإلحاد في الأسماء هاهنا: كانوا يقولون في مقابلة اسم الله: اللات، وفي مقابلة العزيز: العزى، ومناة في مقابلة المنان، وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة، وهذا أعظم الإلحاد في الأسماء، فهذا معنى قوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[(٢)]) [(٣)].

فتضمن كلام السمعاني مرتبتين للإلحاد في أسماء الله:

---

(١) هو: أبو المظفر منصور ابن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، السمعاني، المروزي، الحنفي، ثم الشافعي، الامام العلامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، ولد سنة ست وعشرين وأربع مئة، تعصب لاهل الحديث والسنة والجماعة، وكان شوكا في أعين المخالفين، وحجة لاهل السنة، من مؤلفاته: " التفسير"، " الانتصار بالاثر"، " قواطع الأادلة" توفي سنة تسع وثمانين وأربع مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/١١٤).

(٢) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٣) تفسير السمعاني (٢/٢٣٦).

المرتبة الأولى: مقابلة أسماء آلهتهم بأسماء الله فيقولون: اللات في مقابلة اسم الله، والعزى في مقابلة اسم العزيز وهكذا.

المرتبة الثانية: تسميتهم أصنامهم آلهة. وذكر أن هذا أعظم الإلحاد.

قال السمعاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾[1]: (أي: يميلون إلى الجحد والتكذيب في آياتنا. وكل من مال من الحق إلى الباطل، ومن التوحيد إلى الشرك فهو ملحد. وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾[2] أي لا يخفى كفرهم علينا)[3].

ونحو ذلك قول البغوي: (﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾[4] هم المشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم فزادوا ونقصوا، فاشتقوا اللات من "الله" والعزى من "العزيز"، ومناة من "المنان"، هذا قول ابن عباس ومجاهد.

---

(١) سورة فصلت: ٤٠.

(٢) سورة فصلت: ٤٠.

(٣) تفسير السمعاني (٥/٥٤).

(٤) سورة الأعراف: ١٨٠.

وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة. وروي عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[(١)] أي يكذبون. وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يسم به، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم)[(٢)].

فتضمن كلام البغوي ثلاثة أنواع من الإلحاد:

١- تسمية الأوثان بها على سبيل الاشتقاق والمقابلة، فيسمون اللات اشتقاقا من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان كما سبق.

٢- تسمية الأصنام آلهة.

٣- تسمية الله بما لم يسم به، ولم ينطق به كتاب ولا سنة.

ويقرر ابن العربي[(٣)] ما قرره المفسرون قبله فيقول: (قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[(٤)] يقال: ألحد ولحد: إذا مال. والإلحاد يكون بوجهين: بالزيادة فيها، والنقصان منها، كما يفعله الجهال الذين يخترعون

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٢) تفسير البغوي (٣/٣٠٧).

(٣) هو: أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، ابن العربي الاندلسي الاشبيلي المالكي، الامام العلامة الحافظ القاضي، صاحب التصانيف، من مؤلفاته: "أحكام القرآن"، عارضة الاحوذي في شرح جامع أبي عيسى الترمذي"، " المحصول " توفي سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/١٧٩).

(٤) سورة الأعراف: ١٨٠.

أدعية يسمون فيها الباري بغير أسمائه ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله، إلى غير ذلك، مما لا يليق به)[١].

فتضمن كلام ابن العربي ذكر وجهين من الإلحاد:

الوجه الأول: الإلحاد في أسماء الله بالزيادة فيها.

الوجه الثاني: الإلحاد فيها بالنقص منها.

ومثل للأول بما يفعله الجهال من اختراع أدعية يسمون الله فيها بغير اسمائه وينسبون إليه مالم يذكره من أفعاله.

ويوضح ذلك القرطبي فيقول: (والإلحاد يكون بثلاثة أوجه:

أحدها: بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه فسموا بها أوثانهم، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان قاله ابن عباس وقتادة.

الثاني: بالزيادة فيها.

(١) أحكام القرآن (٢/٣٥١).

الثالث: بالنقصان منها، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرون بغير ما يذكر من أفعاله، إلى غير ذلك مما لا يليق به) [١].

وممن سبق ابن القيم في تقسيم الإلحاد وبيان أنواعه: شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فقد قسم الإلحاد من حيث الأصل إلى قسمين: إلحاد في أسماء الله وإلحاد في آياته فقال – رحمه الله –: (وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل.

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد: لا في أسمائه ولا في آياته فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا

---

(١) تفسير القرطبي (٣٢٨/٧).

(٢) سورة الأعراف: ١٨٠.

يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنٗا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ . . . ﴾(١) الآية)(٢).

وقال – رحمه الله – أيضاً: (وإنما ينكر أن تكون هذه الأسماء حقيقة النفاة من القرامطة(٣) الإسماعيلية(٤) الباطنية(٥) ونحوهم من المتفلسفة الذين ينفون

---

(١) سورة فصلت: ٤٠.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/٣-٤.

(٣) هم أتباع حمدان بن قرمط، وكان رجلاً متوارياً صار إليه أحد دعاة الباطنية، ودعوه إلى معتقدهم، فقبل الدعوة ثم صار يدعو إليها، وضل بسببه ناس كثير، وكان ظهورهم في عام ٢١٨هـ في خلافة المعتضد، ودخلوا مكة سنة ٣١٧هـ، واقتلعوا الحجر الأسود، وقتلوا المسلمين في الحرم، وقد أعيد الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩هـ على يد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي النيسابوري رحمه الله. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص١٢٢).

(٤) سموا بذلك نسبة إلى محمد بن إسماعيل عليه رحمة الله، وليسوا على دينه، وقالوا: إنه الذي كتم السر الباطن عندهم الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر بكتمه عن الناس، إلا عن وصيه علي بن أبي طالب، واستكتمه ألا يخرج منه ذلك، إلا إلى من يخلفه من الأئمة المعصومين من ذريته حتى انتهى ذلك إلى محمد بن إسماعيل، وأنكروا حقائق اليوم الآخر والجنة والنار، وحملوا ذلك على تأويلات اصطلحوا عليها، فقالوا: القيامة حدوث الشر، والميزان ميزان الحكمة، إلى غير ذلك. انظر: البرهان في عقائد أهل الأديان (ص٤٧، ٤٨، ٥٠)، الملل والنحل (٢/٢٧، ٢٨).

(٥) الباطنية: سموا بذلك لأنهم يقولون: إن للنصوص ظاهرا وباطنا، ولكل تنزيل تأويلا، ولهم ألقاب كثيرة منها: القرامطة، والخرمية، والإسماعلية. . . ، وهم يعتقدون أن الإله لا يوصف بوجود ولا عدم، ولا هو معلوم ولا مجهول، ويقولون: أنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق يرجع إليه في تأويل الظواهر. انظر: الملل والنحل (٢/٢٩).

عن الله الأسماء الحسنى ويقولون: ليس بحي ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ولا موجود ولا معدوم؛ فهؤلاء ومن ضاهاهم ينفون أن تكون له حقيقة ثم يقول بعضهم: إن هذه الأسماء لبعض المخلوقات وأنها ليست له حقيقة ولا مجازا. وهؤلاء الذين يسميهم المسلمون الملاحدة؛ لأنهم ألحدوا في أسماء الله وآياته وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[2] وهؤلاء شر من المشركين الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[3] وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[4] فإن أولئك المشركين إنما أنكروا اسم الرحمن فقط وهم لا ينكرون أسماء الله وصفاته؛ ولهذا كانوا عند المسلمين أكفر من اليهود والنصارى)[5].

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٢) سورة فصلت: ٤٠.

(٣) سورة الفرقان: ٦٠.

(٤) سورة الرعد: ٣٠.

(٥) مجموع الفتاوى (١٩٧/٥).

فتضمن كلام شيخ الإسلام - رحمه الله - بيان نوعين من الإلحاد:

١- إلحاد الفلاسفة: الذين نفوا عن الله الأسماء الحسنى وزعموا أنها أسماء للمخلوقات.

٢- إلحاد المشركين: الذين نفوا اسم الرحمن وأنكروه. وبين أن الفلاسفة بذلك أكفر من المشركين ومن اليهود والنصارى.

واختتم هذا المبحث بذكر من سبق ابن القيم إلى ذكر الإلحاد العام، أو الإلحاد في الدين من خلال ردهم على الدهرية أو الفلاسفة، وهذا يتضح من تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[1]:

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره مخبرا عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا: وما يهلكنا فيفنينا إلا مر الليالي والأيام وطول العمر، إنكارا منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم)[2].

---

(١) سورة الجاثية: ٢٤.

(٢) تفسير ابن جرير (١٧/٤٥٨).

وقال ابن تيمية – رحمه الله –: (والقائلون بوحدة الوجود حقيقة قولهم هو قول ملاحدة الدهرية الطبيعية[١] الذين يقولون: ما ثم موجود إلا هذا العالم المشهود وهو واجب بنفسه وهو القول الذي أظهره فرعون)[٢].

---

(١) الطبيعية: هم الذين يقولون بالمحسوس، ويرجعون الخلق إلى الطبيعة، ينكرون الغيبيات، ويطلق عليهم الطبائعيون أيضاً، وهم الذين قالوا بقدم الأرض والماء والنار والهواء، وسيأتي الكلام عنهم في الفصل الثالث، من الباب الثاني من الرسالة إن شاء الله. انظر: الملل والنحل (٣/٢)، أصول الدين للبغدادي ص (٥٩)، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية د.آمال العمرو (ص: ٣٩٤).

(٢) درء التعارض (١٦٣/٣).

الفصل الثالث:

بيان ابن القيم لأسباب الإلحاد،

وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول: فساد التصور.

المبحث الثاني: فساد الإرادة والقصد.

المبحث الثالث: الجهل.

المبحث الرابع: كثرة الأهواء وخفاء التوحيد والسنة.

المبحث الخامس: كيد الكفار من اليهود والنصارى.

المبحث السادس: كيد الشيطان الرجيم.

المبحث السابع: ضعف ردود المتكلمين على الكفار من أسباب استطالة الملاحدة.

المبحث الثامن: ترجمة كتب الملاحدة ونشرها.

سبق في المبحثين السابقين من الفصل الثاني ذكر أنواع الإلحاد التي ذكرها ابن القيم، والتي ذكرها من سبقه من أهل العلم، وفي هذا الفصل سأذكر أسباب الإلحاد عند ابن القيم – رحمه الله –، وهو ثمانية مباحث:

المبحث الأول:

فساد التصور

أعظم أسباب ورود الباطل عند أهله هو فساد تصورهم وفهمهم المغلوط للحق وللنصوص فيظنون بالله ظن السوء وإنما أُتُوا من قبل أنفسهم.

قال ابن القيم:

(وأكثر آفات الناس من الألفاظ، ولا سيما في هذه المواضع التي يعز فيها تصور الحق على ما هو عليه، والتعبير المطابق، فيتولد من ضعف التصور، وقصور التعبير: نوع تخبيط، ويتزايد على ألسنة السامعين له وقلوبهم، بحسب قصورهم، وبعدهم من العلم، فتفاقم الخطب، وعظم الأمر. والتبس طريق أولياء الله الصادقين بطرائق الزنادقة الملحدين. وعز المفرق بينهما. فدخل على الدين من الفساد من ذلك ما لا يعلمه إلا الله. وأشير إلى أعظم الخلق كفرا بالله عز وجل وإلحادا في دينه: بأنه من شيوخ التحقيق والمعرفة والسلوك) (١).

وهذا الذي قاله الإمام ابن القيم – رحمه الله – حق واضح، وسبب رئيس في خروج كثير من أهل البدع عن السنة، بل والخروج من الإسلام بالكلية. ثم إنَّ القرآن الكريم قد ذكر فساد التصور الذي وقع من المنافقين والمشركين وهو ظن السوء بالله تعالى وبرسوله – صلى الله عليه وسلم –،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/٧٨).

وبأصحابه رضي الله عنهم حيث ظن المنافقون والمشركون أن الله لا ينصر رسوله ولا المؤمنين وأنه لن يرجع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضي الله عنهم - بعد المعركة، وزُين ذلك في قلوبهم، وقد ذمهم الله تعالى وشنع عليهم أيما تشنيع، وسأسوق الآيات الدالة على ظنهم السيء بالله سبحانه وتعالى، وبرسوله - صلى الله عليه وسلم - وبالمؤمنين، وهو فساد تصورهم الذي عبر عنه ابن القيم - رحمه الله -، وهاهنا آية في سورة آل عمران، وآيتان في سورة الفتح تكلمت عن هذا الموضوع، وسأسوق هنا بعض أقوال المفسرين، بما يوضحه:

الآية الأولى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ (١).

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره: (﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ (٢). يعني: أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله سينصر رسوله وينجز له مأموله، ولهذا قال:

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٤.

﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ (١). يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ (٢). كما قال في الآية الأخرى: ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾(٣) وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد وأهله، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة)(٤).

وقال ابن سعدي – رحمه الله –: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ ﴾(٥) الذي أصابكم ﴿ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ ﴾(٦).

ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٣) سورة الفتح: ١٢.

(٤) تفسير ابن كثير (١٤٥/٢).

(٥) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٦) سورة آل عمران: ١٥٤.

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين.

وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[١] فليس لهم همّ في غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم، ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾[٢] وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر -أي: النصر والظهور- شيء، فأساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله، قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾[٣] الأمر يشمل الأمر القدري، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى)[٤].

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٤) تفسير السعدي (ص١٥٣).

الآية الثانية: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[1].

قال الطبري في تفسيره: (القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾[2].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم –: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله، وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، وليعذب المنافقين والمنافقات، بفتح الله لك يا محمد، ما فتح لك من نصرك على مشركي قريش، فيكبتوا لذلك ويحزنوا، ويخيب رجاؤهم الذي كانوا يرجون من رؤيتهم في أهل الإيمان بك من الضعف والوهن والتولي عنك في عاجل الدنيا، وصلي النار والخلود فيها في آجل الآخرة ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾[3] يقول: وليعذب كذلك أيضا المشركين والمشركات ﴿ٱلظَّآنِّينَ

(١) سورة الفتح: ٦.
(٢) سورة الفتح: ٦–٧.
(٣) سورة الفتح: ٦.

بِٱللَّهِ ﴾[(١)] أنه لن ينصرك، وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع، يقول تعالى ذكره: على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء، يعني دائرة العذاب تدور عليهم به)[(٢)].

وقال القرطبي في تفسيره: (قوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾[(٣)]أي بإيصال الهموم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين، وبأن يسلط النبي عليه السلام قتلا وأسرا واسترقاقا. ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾[(٤)] يعني ظنهم أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يرجع إلى المدينة، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم. كما قال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾[(٥)]. وقال الخليل[(٦)]

(١) سورة الفتح: ٦.
(٢) تفسير الطبري (٢٢/٢٠٥).
(٣) سورة الفتح: ٦.
(٤) سورة الفتح: ٦.
(٥) سورة الفتح: ١٢.
(٦) هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، أبو عبد الرحمن، صاحب العربية والعروض، أول من استخرج العروض، وحصر أشعار العرب بها، وهو أستاذ سيبويه، وكان يحج سنة، ويغزو سنة، توفي سنة ١٧٠هـ انظر: بغية الوعاة للسيوطي (١/٥٥٧).

وسيبويه[1]: ﴿ ٱلسَّوْءِ ﴾ هنا الفساد. ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ في الدنيا بالقتل والسبي والأسر، وفي الآخرة جهنم. وقرأ ابن كثير[2] وأبو عمرو[3]" دائرة السُّوء" بالضم. وفتح الباقون. قال الجوهري[4]: ساءه يسوءه سوءا بالفتح ومساءة ومساية،... والاسم السُّوء بالضم. وقرى ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السُّوء ﴾ يعني الهزيمة والشر. ومن فتح فهو من المساءة)[5].

(١) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر إمام البصريين سيبويه أبو بشر، ولقب سيبويه، و "سيبويه" بالفارسية رائحة التفاح، أصله من فارس ونشأ بالبصرة، وكان شابا نظيفا جميلا، وكان في لسانه حبسة وقلمه أبلغ من لسانه، من مؤلفاته: "الكتاب" توفي شابّاً سنة ١٨٠. انظر: بغية الوعاة للسيوطي (٢/٢٢٩).

(٢) هو: عبد الله بن كثير بن المطلب أبو معبد المكي الداري إمام أهل مكة في القراءة، ولد بمكة سنة خمس وأربعين، وأدرك غير واحد من الصحابة وروى عنهم، مات سنة عشرين ومائة. انظر: النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١/٤٤٣).

(٣) هو: عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر أبو عمرو الداني، الأموي مولاهم، القرطبي، المعروف في زمانه بابن الصيرفي، الإمام العلامة، الحافظ أستاذ الأستاذين، وشيخ مشايخ المقرئين، ولد سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، وتوفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة. انظر: النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١/٥٠٥)

(٤) هو: إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر، إمام اللغة، أول من حاول الطيران ومات بسببه. لغويّ، من الأئمة. وخطه يذكر مع خط ابن مقلة. أشهر كتبه "الصحاح" توفي سنة ٣٩٣هـ انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/٨٠)، الإعلام للزركلي (١/٣١٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٦٥).

وقال ابن كثير في تفسيره: (قوله: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾[١] أي: يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾[٢] أي: أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[٣])[٤].

وقال الشوكاني في تفسيره: (ثم لما فرغ مما وعد به صالحي عباده ذكر ما يستحقه غيرهم، فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾[٥] وهو معطوف على «يُدخل»، أي: يعذبهم في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام وقهر المخالفين له، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب جهنم، وفي تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشد منهم عذابا، وأحق منهم بما وعدهم الله به. ثم وصف الفريقين، فقال: ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ

(١) سورة الفتح: ٦.
(٢) سورة الفتح: ٦.
(٣) سورة الفتح: ٦.
(٤) تفسير ابن كثير (٧/٣٢٩).
(٥) سورة الفتح: ٦.

ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾[١] وهو ظنهم أن النبي – صلى الله عليه وسلم – يغلب وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام.

ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾[٢]عليهم دائرة السوء أي: ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم، حائق بهم، والمعنى: أن العذاب والهلاك الذي يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم)[٣].

وقال السعدي: (وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريهم ما يسوءهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[٤]بما اقترفوه من المحادة لله

(١) سورة الفتح: ٦.
(٢) سورة الفتح: ١٢.
(٣) فتح القدير (٤/٥٤).
(٤) سورة الفتح: ٦.

ولرسوله، ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾[١] أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[٢])[٣].

الآية الثالثة: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[٤]

قال القرطبي – رحمه الله –: (قوله تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾[٥] وذلك أنهم قالوا: إن محمدا وأصحابه أكلة رأس لا يرجعون. ﴿ وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ ﴾[٦]أي النفاق. ﴿ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[٧]وهذا التزيين من من الشيطان، أو يخلق الله ذلك في قلوبهم. ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾[٨] أن الله لا لا ينصر رسوله. ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[٩] أي هلكى، قاله مجاهد. وقال قتادة:

---

(١) سورة الفتح: ٦.
(٢) سورة الفتح: ٦.
(٣) تفسير السعدي (ص٧٩١).
(٤) سورة الفتح: ١٢.
(٥) سورة الفتح: ١٢.
(٦) سورة الفتح: ١٢.
(٧) سورة الفتح: ١٢.
(٨) سورة الفتح: ١٢.
(٩) سورة الفتح: ١٢.

قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير. قال الجوهري: البور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه)[١].

وقال الشوكاني – رحمه الله –: (وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يدفع عنه الضر، ويجلب لهم النفع، ثم أضرب سبحانه عن ذلك وقال: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾[٢] أي: إن تخلفكم ليس لما زعمتم، بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك، بل للشك والنفاق وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله، ولهذا قال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾[٣] وهذه الجملة مفسرة لقوله: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾[٤] لما فيها من الإبهام، أي: بل ظننتم أن العدو يستأصل المؤمنين بالمرة فلا يرجع منهم أحد إلى أهله، فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة ﴿ وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[٥] أي: وزين وزين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فقبلتموه. قرأ الجمهور وزُين مبنيا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٦٩).

(٢) سورة الفتح: ١١.

(٣) سورة الفتح: ١٢.

(٤) سورة الفتح: ١١.

(٥) سورة الفتح: ١٢.

للمفعول، وقُرئ مبنيا للفاعل. ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾(١) أن الله سبحانه لا ينصر رسوله، وهذا الظن إما هو الظن الأول، والتكرير للتأكيد والتوبيخ، والمراد به ما هو أعم من الأول، فيدخل الظن الأول تحته دخولا أوليا ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾(٢) أي: هلكى)(٣).

ولابن القيم – رحمه الله – كلام في هذا الموضوع قد أبدع فيه وأجاد وأفاد، وهو كلام غاية في الروعة، فكان من المناسب جداً أن أسوقه بطوله؛ قال – رحمه الله –: (﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾(٤). وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وقد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، ويظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في "سورة الفتح" حيث يقول: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ

(١) سورة الفتح: ١٢.
(٢) سورة الفتح: ١٢.
(٣) فتح القدير (٥/٥٧-٥٨).
(٤) سورة آل عمران: ١٥٤.

ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴾[١] وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهيه، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالا لا يقوم بعده أبدا، فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به، فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة

---

(١) سورة الفتح: ٦.

بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب، وإن كانت مكروهة له فما قدرها سدى، ولا أنشأها عبثا، ولا خلقها باطلا، {ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار} وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن جوز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أن يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملا كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصا لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنع فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها على أيديهم يضلون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في الجحيم أسفل السافلين، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل وترك الحق لم يخبر به، وإنما رمز إليه رموزا بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغزة لم يصرح به، وصرح دائما بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا

كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه، فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء، وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم.

وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المتهوكين الحيارى هو الهدى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادرا عليه بعد أن لم يكن قادرا، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السماوات والأرض ولا النجوم ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئا من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لا سمع له ولا بصر ولا علم له ولا إرادة ولا كلام يقول به، وأنه لم يكلم أحدا من الخلق ولا يتكلم أبدا، ولا قال ولا يقول، ولا له أمر ولا نهي يقوم به، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه بائنا من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلى فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يسوي بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته، ويخلده في العذاب كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه فقد ظن به ظن السوء.

وبالجملة فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رسله فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أن له ولدا أو شريكا، أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ويتوسلون بهم إليه ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه فيدعونهم ويحبونهم كحبه ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته كما يناله بطاعته والتقرب إليه، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك لأجله شيئا لم يعوضه خيرا منه أو من فعل لأجله شيئا لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأله، واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن به أنه يثيبه إذا عصاه بما يثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه، وأوضع في معاصيه ثم اتخذ من دونه وليا، ودعا من دونه ملكا أو بشرا حيا أو ميتا يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ويخلصه من عذابه فقد ظن به ظن السوء، وذلك زيادة في بعده من الله وفي عذابه.

ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - أعداءه تسليطا مستقرا دائما في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات

استبدوا بالأمر دون وصية وظلموا أهل بيته، وسلبوهم حقهم وأذلوهم، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائما من غير جرم ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق، وهو يرى قهرهم لهم وغصبهم إياهم حقهم وتبديلهم دين نبيهم وهو يقدر على نصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصرهم ولا يديلهم، بل يديل أعداءهم عليهم أبدا، أو أنه لا يقدر على ذلك بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضة، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه، سواء قالوا: إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر، أو أنه غير قادر على ذلك فهم قادحون في قدرته أو في حكمته وحمده، وذلك من ظن السوء به، ولا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك لكن رفوا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرمضاء بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يقدر على أفعال عباده، ولا هي داخلة تحت قدرته، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس[1]

---

(١) المجوس: هم عبدة النار الذين يقولون إن للعالم أصلين: النور والظلمة. انظر: الملل والنحل (٢٧٤/١).

والثنوية[١] بربهم، وكل مبطل وكافر ومبتدع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن وأنه أولى بالنصر والظفر والعلو من خصومه، فأكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها كامنا كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتبا على القدر وملامة له واقتراحا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك.

فـإن تـنج منهـا تـنج مـن ذي   وإلا فـإني لا إخالـك ناجيـا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى، وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن

(١) الثنوية: هم أصحاب الاثنين الأزليين. يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام. الملل والنحل (٢/٤٩).

السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنى التام والحمد التام والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيرا وكيف بظالم جان جهول
وقل يا نفس مأوى كل سوء أيرجى الخير من ميت بخيل
وظن بنفسك السوأى تجدها كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تقى فيها وخير فتلك مواهب الرب الجليل
وليس بها ولا منها ولكن من الرحمن فاشكر للدليل)[(١)].

(١) زاد المعاد لابن القيم (٣/٢٠٥-٢١٢).

المبحث الثاني:

فساد الإرادة والقصد

بعدما عرفنا في المبحث الأول سببا من أسباب الإلحاد، وهو فساد التصور وأنه بسبب الظن السيء بالله، وهو من أعظم أسباب ورود الباطل عند أهله، وفي هذا المبحث، سأذكر سبباً آخر للإلحاد ذكره ابن القيم، وهو فساد الإرادة والقصد:

فمما يعلم من نصوص الشرع أن «الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[١]، ومدار قبول الأعمال عند الله على الإخلاص والمتابعة فإذا فسد أحد هما فسدت أحوال العبد ومن أشد ما يصرف عن الحق ويوقع في الباطل قصد السوء ونية السوء ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[٢] ومما هلك به الملاحدة سوء قصدهم سواء كان بالكبر الذي هو التكبر في الأرض، أو الكبر الذي هو التكبر عن النصوص الشرعية ورد الحق أو غير ذلك من أنواع الكبر.

---

(١) حديث «إنما الأعمال بالنيات» أخرجه البخاري في صحيحه (١/١) رقم (١)، ومسلم في صحيحه (١٥١٥/٣) رقم (١٩٠٧).

(٢) سورة القصص: ٨٣.

قال ابن القيم – رحمه الله –: (إذا تبين هذا فالحي العالم الناصح لنفسه لا يؤثر محبة ما يضره ويشقى به ويتألم به، ولا يقع ذلك إلا من فساد تصوره ومعرفته، أو من فساد قصده وإرادته.

فالأول: جهل، والثاني ظلم: والإنسان خلق في الأصل ظلوماً جهولا، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده، فمن أراد به الخير علمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه، فخرج به عن الظلم، ومتى لم يرد به خيرا أبقاه على أصل الخلقة، كما في المسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي – صلى الله تعالى عليه وآله وسلم– قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ في ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فمَنْ أَصَابَهُ ذلِكَ النُّورُ اُهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»[١].

فالنفس تهوى ما يضرها ولا ينفعها، لجهلها بمضرته لها تارة، ولفساد قصدها تارة، ولمجموعهما تارة) [٢].

ثم إن ابن القيم – رحمه الله – أخذ يوضح هذا المعنى بضرب المثال باليهود حيث أنهم إنما أُتوا من فساد قصدهم وإرادتهم، بالحسد، وغيره لا من

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠/١١) رقم (٦٦٤٤)، والحاكم في المستدرك (٣٠/١) وصححه، وصححه أيضاً الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٧٦).
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١٣٦/٢-١٣٧).

قِبل جهلهم، قال – رحمه الله –: (والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد، وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة، فخافوا أن يذهب بالإسلام، فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق، فإنهم كانوا يعرفون أن محمدا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما يعرفون أبناءهم، ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإراداتهم الفاسدة، من الكبر، والحسد، وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء، ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق، فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل به أخرى، ويتركب منهما؛ فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به، وإيثار غير عليه بعد معرفته، فلم يكن ضلالا محضا، وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه، أشبهوا الأمة الغضبية، وبقوا مغضوبا عليهم ضالين) (١).

وقال – رحمه الله –: (فلما حدث بعد انقضاء عصرهم من ساء فهمه، وساء قصده، وقعوا في أنواع من التأويل، بحسب سوء الفهم وفساد القصد،

(١) بدائع الفوائد (٢/٣١).

وقد يجتمعان، وقد ينفردان، وإذا اجتمعا تولد من بينهما جهل بالحق، ومعاداة لأهله، واستحلال ماحرم الله منهم.

وإذا تأملت أصول المذاهب الفاسدة رأيت أربابها قد اشتقوها من بين هذين الأصلين) [١].

وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – أن الناس قسمان:

قسم يوجد عنده القوة العلمية، ولكنه ضعيف في القوة العملية.

قسم يوجد عنده القوة العملية، ولكنه ضعيف في القوة العلمية.

قال – رحمه الله –: (فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أَغلب القوتين عليه، ويكون ضعيفاً في القوة العملية، يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها، فهو فقيه ما لم يحضر العمل. . .) إلى أن قال – رحمه الله – في بيان داء هذا النوع: (. . . وداءُ الأَول من فسادِ إرادته وضعف عقله، وهذا حال أَكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذوق والوجد والعادة، يرى أحدهم أَعمى عن مطلوبه، لا يدرى من يعبد، ولا بماذا يعبده،

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/٥١٠).

فتارة يعبده بذوقه ووجده، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه، من لبس معين، أو كشف رأْس، أو حلق لحية ونحوها، وتارة يعبده بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين، وليس له أصل في الدين، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائناً ما كان.

وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد، فهؤلاء كلهم عميٌ عن ربهم، وعن شريعته ودينه، لا يعرفون شريعته ودينه الذى بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ولا يقبل من أحد ديناً سواه، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تعرف بها إلى عباده على ألسنة رسله ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له) [1].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٨٤-١٨٥) بتصرف.

المبحث الثالث:



بعدما عرفنا من المبحث السابق من فساد الإرادة والقصد وهو سبب من أسباب الإلحاد، التي ذكرها ابن القيم - رحمه الله - تعالى، فأذكر في هذا المبحث سببا آخر لأسباب الإلحاد ذكره ابن القيم، وهو الجهل:

فإن بعض الناس لجهله يتقبل شبهات الملاحدة. ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى قوم فرعون بأنهم لا يعلمون وبأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين فجهلهم أوردهم إلى الكفر والإلحاد. قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾[1] ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[2] أي غافلين عن آيات الله لا يتدبرونها.

قال ابن كثير - رحمه الله -: (وذلك يسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها)[3]

ولهذا ذكر ابن القيم - رحمه الله - أن من الناس من يكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد، والانحرافات في الأَعمال والأقوال

(١) سورة الأعراف: ١٣١.

(٢) سورة الأعراف: ١٣٦.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٤٤٦).

والمقامات، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات، فداءُ هذا من جهله وداءُ الأَول من فساد إرادته وضعف عقله[١].

ولذلك ذكر ابن القيم - رحمه الله - في "مدارج السالكين" الإخلاص والمتابعة حيث لا يتقبل العمل إلا بهما، وذكر أقسام الناس إزاء هذين الأمرين فقال - رحمه الله -: (لا يكون العبد متحققا ب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[٢] إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول

والثاني: الإخلاص للمعبود فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[٣].

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضا إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة، وهم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[٤] حقيقة فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة

---

(١) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٨٤-١٨٥).

(٢) سورة الفاتحة: ٥.

(٣) سورة الفاتحة: ٥.

(٤) سورة الفاتحة: ٥.

في قلوبهم، ولا هربا من ذمهم، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم ألبتة، بل من جاهل بشأنهم وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله، وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1] وجعل ما على الأرض زينة لها، ليختبرهم أيهم أحسن عملا، قال الفضيل بن عياض[2]: "العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه" قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال" "إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل،

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) هو: الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر، أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني، المجاور بحرم بحرم الله، الإمام القدوة الثبت، شيخ الاسلام، كان ثقة نبيلا فاضلا عابدا ورعا، كثير الحديث، توفي سنة سبع وثمانين ومئة. انظر: سير أعلام النبلاء (٨/٤٢٤).

وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة" وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[1] وفي قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[2] فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه، هباء منثوراً، وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي –صلى الله عله وسلم–: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[3] وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدا، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء.

فصلٌ الضرب الثاني: من لا إخلاص له، ولا متابعة، فليس عمله موافقا لشرع، وليس هو خالصا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله – عز و جل – ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا

(١) سورة الكهف: ١١٠.

(٢) سورة النساء: ١٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١٨٤/٣) رقم (٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه (١٣٤٣/٣) رقم (١٧١٨).

لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١) يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص.

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الإتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

فصلٌ الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العباد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله، فهذا حاله كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة وأمثال ذلك.

فصلٌ الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله، كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير

(١) سورة آل عمران: ١٨٨.

صالحة فلا تقبل، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[١]، فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[٢])[٣].

---

(١) سورة البينة: ٥.

(٢) سورة الفاتحة: ٥.

(٣) مدارج السالكين (١/٨٣-٨٥).

المبحث الرابع:

كثرة الأهواء وخفاء التوحيد والسنة

بعدما انتهينا من المبحث السابق وهو الجهل، وهو سبب من أسباب الإلحاد، التي ذكرها ابن القيم – رحمه الله – سأذكر في هذا المبحث سببا آخر لأسباب الإلحاد ذكره ابن القيم، وهو كثرة الأهواء وخفاء التوحيد والسنة، والمقصود بخفاء التوحيد والسنة: هو ندرة من يبيِّنهما من أهل العلم في بعض الأمصار والأعصار، وذلك لطغيان وغلبة دعاة الشرك والبدع في تلك الأزمنة والأمكنة، ومثاله: ما حصل من الإلحاد، والكفر والشرك والبدع، واضمحلال التوحيد والسنة في الجمهوريات الإسلامية التي ضمتها روسيا(١) ضمن الاتحاد السوفيتي، وذلك بسبب كثرة وغلبة من يدعو إلى الإلحاد والشرك والبدع، وندرة من يدعو إلى الإيمان والتوحيد والسنة، وقد قال ابن القيم – رحمه الله –: (فداء التعطيل، وداء الإشراك، وداء مخالفة الرسول وجحد ما جاء به، أو شيء منه: هو أصل بلاء العالم، ومنبع كل شر، وأساس كل باطل. فليست فرقة من فرق أهل الإلحاد والباطل والبدع إلا وقولها مشتق من هذه الأصول الثلاثة، أو من بعضها.

---

(١) روسيا دولة شيوعية تقع في أقصى شرق الأرض، وقد كان يطلق عليها الاتحاد السوفيتي، ثم انقسم الاتحاد السوفيتي في ٢٥ ديسمبر ١٩٩١م إلى ٢١ جمهورية تتمتع باستقلال ذاتي يبلغ إجمالي مساحاتها أكثر من ٧٦% من مساحة الاتحاد السوفيتي السابق، وأصبح الاسم روسيا الفيدرالية أو الاتحادية وهي أكبر دول العالم مساحة. انظر: المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة لمحمد محمدين، وطه الفراء (ص٣٣٠).

فَإِنْ تَنْجُ مَنْهَا تَنْجُ مِنْ ذي عَظِيَمَةٍ وَإِلاّ فَإِني لاَ أَظُنُّكَ نَاجِياً

فسرت هذه البلايا الثلاثة في كثير من طوائف الفلاسفة) [١].

وقال – رحمه الله –: (وكان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة وما جاء به الرسول في مسائل العلم الخبرية وأهل مسائل الأحكام العملية يسمونهم: أهل الشبهات والأهواء، لأن الرأي المخالف للسنة جهل لا علم، وهوى لا دين، فصاحبه ممن اتبع هواه بغير هدى من الله واتبع هواه بغير علم وغايته الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة، وإنما ينتفي الضلال والشقاء عمن اتبع هدى الله الذى أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [٢].

واتباع الهوى يكون في الحب والبغض، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٥٦).

(٢) سورة طه: ١٢٣-١٢٤.

غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ [١]، وقال: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [٢].

والهوى المنهي عن اتباعه كما يكون هو هوى الشخص في نفسه، فقد يكون أيضا هوى غيره، فهو منهى عن اتباع هذا وهذا، لمضادة كل منهما لهدى الله الذى أرسل به رسله، وأنزل به كتبه)[٣].

ولذلك نرى أن أهل الأهواء من المشركين والمبتدعة كانوا قليلين جداً في زمن النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، والقرون الثلاثة المفضلة، وذلك بسبب غلبة أهل الحق وانتشار العلم والتوحيد والسنة، واضمحلال الجهل والشرك والبدع، حيث توافر أهل العلم الراسخين من الصحابة والتابعين وتابعيهم في تلك الحقبة، وقد شهد لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالخيرية والاستقامة كما في الحديث: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[٤] وبعد مضي القرون الثلاثة المفضلة، حيث قل العلم، والعلماء الراسخون من الصحابة والتابعين، وكثر الجهل، برزت حينها

(١) سورة النساء: ١٣٥.

(٢) سورة المائدة: ٨.

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١٣٨/٢-١٣٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١٧١/٣) رقم (٢٦٥٢)، ومسلم في صحيحه (١٩٦٢/٤) رقم (٢٥٣٣).

رؤوس أهل الأهواء من أهل الشرك والبدع، وكثر التفرق والاختلاف، ووقع السيف في الأمة، وهذا مصداق ما قاله رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، والذي نفسي بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار » قيل يا رسول الله ومن هي؟ قال: «الجماعة»[(١)].

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥/٧) رقم (٤٥٩٦)، وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٢٢) رقم (٣٩٩٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/٧٠) رقم (١٤٨٣٨)، والحاكم في المستدرك (١/١٢٨)، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٣).

المبحث الخامس:

كيد الكفار من اليهود والنصارى

قد تعرفنا في المبحث السابق على سبب من أسباب الإلحاد، وهو: كثرة الأهواء وخفاء السنة، وكيف كان سببا لظهور الإلحاد، والشرك والبدع، حيث غلبة وسيطرة أهل الشرك والبدع، مع ندرة العلماء الربانيين، الذين يدعون إلى الإيمان والتوحيد والسنة.

وفي هذا المبحث سنتعرف على سبب آخر من أسباب الإلحاد التي ذكرها ابن القيم – رحمه الله – في بعض تأليفاته، إلا وهو كيد الكفار من اليهود والنصارى، حيث كانوا على مر القرون وإلى يومنا هذا وراء كل إلحاد وكفر وفسق وفرقة للمسلمين، وما أمر انتشار الشيوعية[١] في بعض بلاد المسلمين منا ببعيد، فقد كان وراء ذلك اليهود، بتخطيطهم، وتمويلهم، وكذلك انتشار المذاهب الإلحادية الأخرى بين المسلمين في بعض البلدان، كالبعثية[٢] والاشتراكية[٣]، والقومية العربية[٤]، فمن رموز الشيوعيين كارل

---

(١) سبق التعريف بها عند ذكر الماركسيين.

(٢) البعثية: نسبةً إلى حزب البعث العربي الإشتراكي، وهو: حزب قومي علماني، يدعو إلى الانقلاب الشامل في المفاهيم والقيم العربية لصهرها وتحويلها إلى التوجه الاشتراكي، شعاره المعلن (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) وهي رسالة الحزب، أما أهدافه فتتمثل في الوحدة، والحرية، والاشتراكية. الموسوعة الميسرة (١/٤٧٠).

(٣) الاشتراكية: تعني تربية المواطن تربية اشتراكية علمية تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة لكي يمكن خلق إنسان عربي جديد يعقل علمي متفتح، ويتمتع بأخلاق اشتراكية جديدة ويؤمن بقيم جماعية. الموسوعة الميسرة (١/٤٨١).

(٤) القومية العربية: حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم، على أساس من رابطة الدم واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين. وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا. الموسوعة الميسرة (١/٤٤٤).

ماركس(١)، وهو يهودي الأصل حيث كان أبوه أحد حاخامات اليهود، وكذلك مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي، نصراني فرنسي يقال له: ميشيل عفلق(٢).

وقد ذكر ابن القيم بعض كيد اليهود والنصارى في بعض كتبه فقال: قال ابن القيم - رحمه الله -: (فصل في سياق الآيات الدالة على غش أهل الذمة للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم. . . قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾(٤).

وقال تعالى لرسوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٥). . . وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا

---

(١) كارل ماركس يهودي ألماني ولد سنة ١٨١٨م وهو حفيد الحاخام اليهودي المعروف مردخاي ماركس، وكارل ماركس شخص قصير النظر متقلب المزاج، حاقد على المجتمع، مادي النزعة، ومن مؤلفاته: "البيان الشيوعي"، "رأس المال" توفي سنة ١٨٨٣م.

(٢) ميشيل عفلق: رجل نصراني ينتمي إلى الكنيسة الشرقية، من مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي، قام بنشر أفكاره أول الأمر بين الزملاء والطلاب والشباب عن طريق التدريس. انظر: تكملة معجم المؤلفين لمحمد خير رمضان ص (٥٩٨)، والموسوعة الميسرة (١/٤٧٠).

(٣) سورة البقرة: ١٠٥.

(٤) سورة البقرة: ١٠٩.

(٥) سورة البقرة: ١٢٠.

يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾[٤]. . . وقد أخبر سبحانه عن أهل الكتاب أنهم يعتقدون أنهم ليس عليهم إثم ولا خطيئة في خيانة المسلمين وأخذ أموالهم، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٥].

والآيات في هذا كثيرة، وفي بعض هذا كفاية)[٦].

---

(١) سورة آل عمران: ١١٨.

(٢) سورة النساء: ٤٤ – ٤٥.

(٣) سورة النساء: ٥١ – ٥٢.

(٤) سورة التوبة: ٨ – ١٠.

(٥) سورة آل عمران: ٧٥.

(٦) أحكام أهل الذمة (١/٤٩٤-٤٤٩)

يتبين لنا من خلال الآيات السابقة التي ساقها ابن القيم – رحمه الله – أن أهل الكتاب يكيدون ويمكرون بالمسلمين، وجرهم إلى ذلك حسدهم، للمسلمين، وبغضهم وحقدهم عليهم، حتى وصل بهم الحسد والبغض بهم إلى الكذب على الله باستحلال أموال المسلمين ونقض عهودهم ومواثيقهم معهم، بل تمنوا خروج المسلمين من دينهم، وفضلوا الشرك وأهله على المسلمين.

ثم قال: (ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب، ومكاتبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان – لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال.

وهذا الملك الصالح كان في دولته نصراني يسمى محاضر الدولة أبا الفضائل بن دخان، ولم يكن في المباشرين أمكن منه. وكان المذكور قذاة في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين، ومثالبه في الصحف مسطورة، ومخازيه مخلدة مذكورة، حتى بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية، وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار المسلمين وأعمالهم وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها. وكان مجلسه معمورا برسل الفرنج والنصارى، وهم مكرمون لديه وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الأدرار والضيافات، وأكابر المسلمين محجوبون على الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام. فاجتمع به بعض أكابر الكتاب فلامه على ذلك وحذره من سوء عاقبة صنعه، فلم يزده ذلك إلا تمردا، فلم يمض على ذلك إلا يسير حتى اجتمع في مجلس الصالح أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء، فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى

ذكر مخازي النصارى، فبسط لسانه في ذلك وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق، وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب ولا يدرون على الحقيقة؛ لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدا والله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[1]، وأول أمانتهم وعقد دينهم: بسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا حد رب الورى تعالى ثلاثة

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان دينارا، وأخذ لنفسه اثنين، ولاسيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟ وانصرف القوم، واتفق أن كبت بالنصراني بطنته، وظهرت خيانته فأريق دمه، وسلط على وجوده عدمه)[2].

ومن خلال هذا النقل القيم من ابن القيم يتلخص لنا ما يلي:

الحذر من تولية وتوظيف اليهود والنصاري، في شؤون المسلمين سيما الحساسة منها، وعدم الثقة بهم، وإن كانوا بارعين في مهنهم، خشية من كيدهم ومكرهم بالمسلمين، وخيانتهم لهم، ونقل أسرار المسلمين إلى الأعداء.

---

(١) سورة المائدة: ٧٣.

(٢) أحكام أهل الذمة (١/٤٩٩-٥٠١).

المبحث السادس:

كيد الشيطان الرجيم

قد مر بنا في المبحث السابق كيد الكفار من اليهود والنصارى، ودورهم في السعي إلى نشر الإلحاد والفسق والشر بين المسلمين على مر العصور عن طريق تمويل الفرق والطوائف والأحزاب الإلحادية، وفي هذا المبحث سأتناول كيد الشيطان من خلال كتابات ابن القيم – رحمه الله – في ذلك، حيث نتعرف على كيد الشيطان في تزيينه الباطل من الإلحاد والفسق وإغواء الناس على مر العصور، كما قال الله عز وجل عنه: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(١)، وقوله: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾(٢)، وقد حذرنا الله منه بقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾(٣)، وقوله ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾(٤) إلى غير ذلك من الآيات.

قال ابن القيم – رحمه الله –: (ومن كيده للإنسان: أنه يورده الموارد التى يخيل إليه أن فيها منفعته، ثم يُصْدِرهُ المصادر التى فيها عطبه، ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ

(١) سورة ص: ٨٢.
(٢) سورة الأعراف: ١٦.
(٣) سورة البقرة: ١٦٨.
(٤) سورة فاطر: ٦.

لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(١).

فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقة بن مالك، وقال: أنا جار لكم من بنى كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرَّ عنهم، وأسلمهم، كما قال حسان:

دَلاهُمُ بِغُرُورٍ، ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ إِنَّ الخَبِيثَ لِمَنْ وَالاهُ غَرَّارُ

وكذلك فعل بالراهب الذى قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دل أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فر عنه وتركه. وفيه أنزل الله سبحانه:

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢).

وهذا السياق لا يختص بالذى ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضى حاجته، فإنه يتبرأ منه

(١) سورة الأنفال: ٤٨.
(٢) سورة الحشر: ١٦.

ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[(١)])[(٢)].

وقال – رحمه الله – عن الشيطان: (وصار إمامًا لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة ولا إله إلا الله كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين وأنت إذا تأملت عامة شبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطلوها رأيتها من جنس شبهته والقائل إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل من هاهنا اشتق هذه القاعدة وجعلها أصلا لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها كما زعم إمامه أن دليل العقل يخالف نص الأمر بالسجود حين قدمه عليه وعرضت لعدو الله هذه الشبهة من ناحية كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنص الوحي)[(٣)].

يتبين لنا من كلام ابن القيم – رحمه الله – السابق، عن كيد الشيطان، أنه سعى ويسعى في إغواء بني آدم وإبعادهم عن الصراط المستقيم بل عن الإيمان بالله وطاعة رسله عليهم السلام بتزيينه الكفر، والإلحاد لهم، وإيقاعهم في الفسق والفجور من الزنا وغيره، ثم يسلمه ويفضحه، ويوم القيامة يتبرأ منه

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٢.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/١٠٨-١٠٩).

(٣) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١/٣٧٠-٣٧٢).

بدليل قول الله عز وجل عنه ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[(١)]، وقوله تعالى حكاية عن الشيطان يوم القيامة: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(٢)]، وتزيين الشيطان وإغواءه لبني آدم مستمر إلى يوم القيامة لقوله تعالى عنه: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[(٣)] والواجب على المسلمين الحذر من كيد الشيطان بعدم اتباع خطواته وغروره كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الحشر: ١٦.
(٢) سورة إبراهيم: ٢٢
(٣) سورة الإسراء: ٦٢.
(٤) سورة البقرة: ١٦٨.

المبحث السابع:

ضعف ردود المتكلمين على الكفار وفساد معتقدهم من أسباب استطالة الملاحدة

مر بنا في المبحث السابق كيد الشطان الرجيم وعرفنا سعيه لإغواء بني آدم بإيقاعهم في الكفر والإلحاد والفسق والفجور، ويدليهم بغرور حتى إذا أوقعهم في حبائله أسلمهم وتركهم، ويوم القيامة يتبرأ منهم، وفي هذا المبحث سأتناول سببا آخر وهو ضعف ردود المتكلمين على الكفار وأنه من أسباب استطالة الملاحدة بسبب ضعف ردود المتكلمين على الكفار في الأمور الاعتقادية، بنفيهم عن الله الصفات وبقولهم عن الله أنه لا موجود ولا معدوم، ولا فوق ولا تحت ولا داخل العالم ولا خارجه، مما شجع الملاحدة وجعلهم يستطيلون بسبب هذه الأوصاف الباطلة لله – سبحانه وتعالى – فاحتجوا عليهم بقولهم إن القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص الصفات، وقد قرر ابن القيم – رحمه الله – هذا الأمر في مواضع كثيرة وأوضحه أحسن توضيح.

قال ابن القيم – رحمه الله –: (الوجه الرابع عشر: وهو أن أرباب تلك الشبه إنما استطالوا على النفاة الجهمية بما ساعدوا عليه من تلك الشبه، وقالوا: كيف يكون رسولا صادقا من يخبر بما يخالف صريح العقل، ولا يتكلم ولا يرى، ولا يشار إليه ولا ينتقل من مكان إلى مكان ولا تحله الحوادث ولا له وجه ولا يد ولا أصبع ولا سمع ولا بصر ولا علم ولا حياة ولا قدرة زايدة على مجرد ذاته، ومن أصولنا وأصولكم أنه لم يقم بذاته فعل

ولا وصف ولا حركة ولا استواء ولا نزول ولا غضب ولا رضى فضلا عن الفرح والضحك، ونحن وأنتم متفقون في نفس الأمر أنه لم يتكلم بهذا القرآن ولا بالتوراة ولا الإنجيل وإنما ذلك كلام شيء عنه بإذنه عندكم وبواسطة العقل الفعال عندنا، ونحن وأنتم متفقون على أنه لم يره أحد، ولا رآه، ولا يسمع كلامه أحد، وأن هذا محال، فهو عندنا وعندكم بمنزلة كونه يأكل ويشرب وينام، فعند التحقيق نحن وأنتم متفقون على الأصول والقواعد التي نفت هذه الأمور، وهي بعينها تنفي صحة نبوة من أخبر بها، فكيف يمكن أن يصدق من جاء بها، وقد اعترفتم معنا بأن العقل يدفع خبره ويرده، فما للحرب بيننا وبينكم وجه، فكما تساعدنا نحن وإياكم على إبطال هذه الأخبار التي عارضت صريح العقل، فساعدونا على إبطال الأصل بنفس ما اتفقنا جميعا على إبطال الأدلة النقلية به.

فانظر هذا الإخاء ما ألصقه، والنسب ما أقربه، وإذا أردت أن تعرف حقيقة الحال فانظر حالهم مع هؤلاء الزنادقة في ردهم عليهم وبحوثهم معهم وخضوعهم لهم فيها) [1].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ١١٧).

وقال – رحمه الله –: (فهؤلاء الملاحدة يحتجون على نفاة الصفات بما وافقوهم عليه من الإعراض عن نصوص الوحي، ونفي الصفات كما ذكر ابن سينا في "الرسالة الأضحوية" فإنه قال فيها لما ذكر حجة من أثبت معاد البدن، وأن الداعي لهم إلى ذلك ما ورد به الشرع من بعث الأموات، فقال: وأما أمر الشرع فينبغي أن يعلم فيه قانون واحد وهو أن الشرع والملة الآتية على لسان نبي من الأنبياء يرام بها خطاب الجمهور كافة.

ثم من المعلوم الواضح أن التحقيق الذي ينبغي أن يرجع إليه في صحة التوحيد من الإقرار بالصانع موحدا مقدسا عن الكم والكيف، والأين والمتى، والوضع والتغير، حتى يصير الاعتقاد به أنه ذات واحدة لا يمكن أن يكون لها شريك في النوع، أو يكون لها جزء وجودي كمي أو معنوي، ولا يمكن أن تكون خارجة عن العالم ولا داخلة فيه، ولا حيث تصح الإشارة إليه بأنه هنا أو هناك، ممتنع إلقاؤه إلى الجمهور، ولو ألقى هذا على هذه الصورة إلى العرب العاربة، أو العبرانيين الأجلاف لسارعوا إلى العناد، واتفقوا على أن الإيمان المدعو إليه إيمان بمعدوم لا وجود له أصلا، ولهذا ورد ما في التوراة تشبيها كله، ثم أنه لم يرد في الفرقان من الإشارة إلى هذا الأمر الأهم شيء، ولا أتى بصريح ما يحتاج إليه في التوحيد بيان مفصل، بل أتى

بعضه على سبيل التشبيه في الظاهر، وبعضه جاء تنزيها مطلقا عاما جدا لا تخصيص ولا تفسير له.

وأما الأخبار التشبيهية فأكثر من أن تحصى، ولكن لقوم أن لا يقبلوه، فإذا كان الأمر في التوحيد هكذا فكيف بما هو بعده من الأمور الاعتقادية، ولبعض الناس أن يقولوا: إن للعرب توسعا في الكلام ومجازا، وإن الألفاظ التشبيهية مثل الوجه، واليد، والإتيان في ظلل من الغمام، والمجيء، والذهاب، والضحك، والحياء، والغضب، صحيحة ولكن هي مستعملة استعارة ومجازا، قال: ويدل على استعمالها غير مجازية ولا مستعارة بل محققة أن المواضع التي يوردونها حجة في أن العرب تستعمل هذه المعاني بالاستعارات والمجاز على غير معانيها الظاهرة مواضع في مثلها يصلح أن تستعمل على غير هذا الوجه ولا يقع فيها تلبيس ولا تدليس)[1].

ثم أخذ ابن القيم ينتقد ابن سينا ويصفه بالإلحاد؛ لكونه نفى أن يكون ثم معاد وقيامة، وزعمه أن ما ورد في القرآن من الآيات إنما هو خطاباً جمهورياً أو مجازاً، وقد احتج ابن سينا على الجهمية بقوله: إن القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص الصفات، وقد نقل ابن القيم – رحمه الله –

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/١٠٩٧– ١١٠٤).

كلاما كثيرا عن ابن سينا في هذا المعنى، ثم قال - رحمه الله - معلقا عليه ومفنداً لشبهه الداحضة: (فتأمل كلام هذا الملحد بل رأس ملاحدة الملة، ودخوله إلى الإلحاد من باب نفي الصفات، وتسلطه في إلحاده على المعطلة النفاة بما وافقوه عليه من النفي، وإلزامه لهم أن يكون الخطاب بالمعاد جمهوريا، أو مجازا، أو استعارة كما قالوا في نصوص الصفات التي اشترك هو وهم في تسميتها تشبيها وتجسيما، مع أنها أكثر تنوعا، وأظهر معنى، وأبين دلالة من نصوص المعاد، فإذا ساغ لكم أن تصرفوها عن ظاهرها بما لا تحتمله اللغة فصرف هذه عن ظواهرها أسهل، ثم زاد هذا الملحد عليهم باعترافه أن نصوص الصفات لا يمكن حملها كلها على المجاز والاستعارة، وأن يقال: إن المراد غير ظاهرها، وإن لذلك الاستعمال مواضع تليق به، بحيث تكون دعوى ذلك في غيرها غلطا محضا، كما في مثل قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾(١) فمع هذا التقسيم والتنويع يمتنع المجاز والاستعارة، فإنما أريد ما دل اللفظ عليه ظاهرا، ومع هذا فقد ساعدهم على امتناعه لقيام

(١) سورة الأنعام: ١٥٨.

الدليل العقلي عليه، فهكذا نفعل نحن في نصوص المعاد، سواء فهذا حاصل كلامه وإلزامه ودخوله إلى الإلحاد من باب نفي الصفات والتجهم) [(١)].

وقال – رحمه الله – في الرد على أهل التخييل؛ وهم الذين قالوا: إن الرسل لم يمكنهم مخاطبة الخلق بالحق في نفس الأمر فخاطبوهم بما يخيل إليهم، وضربوا لهم الأمثال، وعبروا عن المعاني المعقولة بالأمور القريبة من الحس، وأن طائفة منهم سلكت ذلك في الخبر عن الله وصفاته دون المعاد والجنة والنار قال – رحمه الله –: (وذلك كله إلحاد في أسماء الرب وصفاته، ودينه، واليوم الاخر. والملحد لا يتمكن من الرد على الملحد، وقد وافقه في الأصل، وإن خالفه في فروعه فلهذا استطال على هؤلاء الملاحدةُ كابن سينا وأتباعه غاية الاستطالة، وقالوا: القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص الصفات.

قالوا: بل الأمر فيها أسهل من نصوص الصفات؛ لكثرتها وتنوعها، وتعدد طرقها، وإثباتها على وجه يتعذر معه التأويل، فإذا كان الخطاب بها خطابا جمهوريا فنصوص المعاد أولى، قال: فإن قلتم نصوص الصفات قد عارضها ما يدل على انتفائها من العقل قلنا: ونصوص المعاد قد عارضها من

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/١١٠٥-١١٠٦).

العقل ما يدل على انتفائها، ثم ذكر العقليات المعارضة للمعاد بما يعلم به العاقل أن العقليات المعارضة للصفات من جنسها أو أضعف منها. . .) [١].

وقال - رحمه الله -: (إذا سلط التأويل على النصوص المشتملة عليها فتسليطه على النصوص التي ذكرت فيها الملائكة أقرب بكثير، يوضحه أن الرب تعالى لم يذكر للعباد من صفات ملائكته وشأنهم وأفعالهم وأسمائهم عشر معشار ما ذكر لهم من نعوت جلاله وصفات كماله وأسمائه وأفعاله، فإذا كانت هذه قابلة للتأويل فالآيات التي ذكرت فيها الملائكة أولى بقبوله، ولذلك تأولها الملاحدة كما تأولوا نصوص المعاد واليوم الآخر، وأبدوا له تأويلات ليست بدون تأويلات الجهمية لنصوص الصفات، وأولت هذه الطائفة عامة نصوص الأخبار الماضية والآتية وقالوا للمتأولين من الجهمية بيننا وبينكم حاكم العقل. . .) [٢].

يتبين لنا من خلال ما سبق من كلام ابن القيم – رحمه الله – أن ضعف ردود المتكلمين على الملاحدة في باب العقائد وفساد معتقدهم أدى إلى استطالة الملاحدة عليهم، وإلزامهم بأن القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص الصفات، وقد قام ابن القيم – رحمه الله – بتفنيد شبه الملاحدة، والمتكلمين على حد سواء.

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٩١٧/٣-٩١٩).

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣٦٦/١- ٣٦٧).

المبحث الثامن:

ترجمة كتب الملاحدة ونشرها

سبق الكلام على ضعف ردود المتكلمين على الكفار وكيف سبب ذلك استطالة الملاحدة عليهم، وتجرؤهم على نفي نصوص المعاد، وفي هذا المبحث سأذكر سبباً أخيراً للإلحاد مما ذكره ابن القيم – رحمه الله – في بعض كتبه، وهو ترجمة كتب الملاحدة ونشرها مما سبب إلحاداً في بعض أفراد الأمة، ولا يخفى على المؤمن أن الإيمان هو رأس الأمر وملاكه، والواجب الثبات عليه حتى الممات، وحفظه وصيانته من كل منقص أو ناقض له، ومن ذلك وجوب حماية الإيمان من الأعمال التي تضره كالكتب التي تحتوي على العلوم الضارة، حيث استعاذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – منها بقوله «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»(١).

ومن أعظم أسباب انتشار الإلحاد نشر كتب الملاحدة، ونشر شبهاتهم وضلالاتهم على عموم المسلمين، ولهذا أنكر العلماء على المأمون(٢) ما صنع من ترجمة كتب الفلاسفة و الملاحدة من اليونانين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢٠٨٨) رقم (٢٧٢٢).

(٢) هو الخليفة العباسي: أبو العباس، عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن أبي جعفر المنصور العباسي، ولد سنة سبعين ومئة، وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم، وبالغ، ودعا إلى القول بخلق القرآن، بايع الناس المأمون في أول سنة ثمان وتسعين ومئة، ومات سنة سنة ثمان عشرة ومئتين. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٢٧٢).

قال ابن القيم – رحمه الله – مستعرضاً تاريخ الجهمية: (. . . إلى أن جاء أول المائة الثالثة وولي على الناس عبد الله المأمون، وكان يحب أنواع العلوم وكان مجلسه عامرا بأنواع المتكلمين في العلوم، فغلب عليه حب المعقولات، فأمر بتعريب كتب يونان، وأقدم لها المترجمين من البلاد، فعربت له، واشتغل بها الناس والملك سوق ما سوق فيه جلب إليه فغلب على مجلسه جماعة من الجهمية ممن كان أبوه الرشيد قد أقصاهم، وتبعهم بالحبس والقتل، فحشوا بدعة التجهم في أذنه وقلبه، فقبلها واستحسنها، ودعا الناس إليها، وعاقبهم عليها، فلم تطل مدته، فصار الأمر بعده إلى المعتصم، وهو الذي ضرب الإمام أحمد بن حنبل، فقام بالدعوة بعده والجهمية تصوب فعله وتدعوه إليه، وتخبره أن ذلك هو تنزيه الرب عن التشبيه والتمثيل والتجسيم، وهم الذين قد غلبوا على قربه ومجلسه، والقضاة والولاة منهم، فإنهم تبع لملوكهم، ومع هذا فلم يكونوا يتجاسرون على إلغاء النصوص وتقديم الآراء والعقول عليها، فإن الإسلام كان في ظهور وقوة، وسوق الحديث نافقة، ورؤوس السنة على ظهر الأرض، ولكن كانوا على ذلك يحومون، وحوله يدندنون، وأخذوا الناس بالرغبة والرهبة) [١].

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/١٠٧٢– ١٠٧٣).

من خلال ما سبق من كلام ابن القيم - رحمه الله - تبين أن ترجمة كتب الملاحدة أدت إلى افتتان بعض المسلمين بها، واعتناقهم الإلحاد قديماً وحديثاً، فقديما في زمن الدولة العباسية عندما تُرجمت كتب ملاحدة اليونان، وفي الوقت الحاضر عندما تُرجمت كتب الملاحدة الشيوعيين والوجوديين والرأسماليين من اللغتين الروسية والصينية، وافتتن بها بعض أبناء المسلمين، حتى أدى بهم إلى اعتناق الفكر الإلحادي.

الفصل الرابع:

بيان ابن القيم لآثار الإلحاد.

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول: آثار الإلحاد في فساد العقيدة.

المبحث الثاني: آثار الإلحاد في فساد البلاد والعباد

المبحث الثالث: آثار الإلحاد في ضعف الأمة وتفرق كلمتها وتسلط الأعداء عليها

المبحث الرابع: أثر الإلحاد سقوط الدول.

المبحث الخامس: أثر الإلحاد في تقوية شأن المذاهب الباطلة.

بعد أن انتهينا من مباحث أسباب الإلحاد، سأتناول في المباحث الخمسة القادمة آثار الإلحاد في فساد العقيدة، وأثره في فساد البلاد والعباد، وأثره في ضعف الأمة وتفرق كلمتها، وأثره في سقوط الدول، وأخيراً أثره في تقوية المذاهب الباطلة، وأبدأ بالأثر الأول:

المبحث الأول:

آثار الإلحاد في فساد العقيدة

في هذا المبحث سنتعرف على تسبب الإلحاد في فساد عقيدة المسلمين سواء ما يتعلق بربوبية الله تعالى على خلقه، وما يتعلق بأسمائه وصفاته، وما يتعلق بألوهيته، وكذلك ما يتعلق بالغيبيات وأمور الآخرة.

فإن للإلحاد أثراً سيئاً في إفساد عقائد المسلمين ونقلهم من الهدى إلى الضلال ومن النور إلى الظلمة ومن الإيمان إلى الكفر، فأي بلاء أشد من هذا البلاء؟! انظر ما في العالم العلوي والسفلي من الحوادث والتدبيرات المتنوعة، والأفعال العظيمة، وما تدل عليه من عظمة مدبرها وجلاله وكبريائه ومجده، وأنه المتفرد بالوحدانية والكمال الذي لاغاية له، وهذه أمور معلومة بالضرورة والمشاهدة، فهل يستوي من أثبت ما دلت عليه من وحدانية الله تعالى وثبوت أوصافه وأسمائه الحسنى، ومن جحد ذلك وأنكره ورد الأدلة القواطع وكابر وعاند وجادل بالباطل؟ وهل يستوي الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، والقيام بحمده وذكره وشكره والانابة إليه التي هي أفرض الفروض التي جاءت بها الرسل وأفضل ما قام به العباد واكتسبته القلوب وأعظم سبب يوصل إلى كل خير وسعادة ومطلوب؟ أم الأمر بضد ذلك من الشرك بالله والاستكبار عن عبادته وتعلق القلب بالخلق والوقوف مع المادة وعبادتها! .

وهل يستوي ما أمرت به الرسل من الصدق في الأقوال والأفعال، والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، والأمر بالبر والصلة، والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعامَلين، ومن يتصل بهم العبد على اختلاف طبقاتهم؟ أم الأمر بضد ذلك! وهل يستوي الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهى الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، والتعاون على البر والتقوى، أم الأمر بضد ذلك؟ وهل تستقيم الأمور كلها وتصلح الأحوال إلا بالتزام ذلك والعمل به وهل يمكن القيام بأصول الإيمان وشرائع الإسلام والوفا بالحقوق والعقود والعهود والورع عن المحارم القولية والفعلية إلا مع الإيمان بالله واليوم الآخر، الذي هو أساس الخيرات والصلاح المطلق؟ وهل إذا أطلق الملحدون الماديون على هذه الأصول العظيمة والشرائع الجميلة النافعة التي لاينفع غيرها: أنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء، وأنها قديمة والقديم يجب أن يزهد فيه ويحذر عنه؟ هل هذا القول منهم والدعاية الخبيثة إلا من أكبر الأدلة على ضعف عقولهم وسفاهة آرائهم وكذبهم الصريح؟ وهل يستغني العباد عنها في حالة من أحوالهم؟ وهل هي إلا أكبر نعمة وأجل كرامة أكرم الله بها ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ

مُّبِينٍ ﴾[١] ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٣] ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٤] فمن وزن بعقله الصحيح ما جاءت به الرسل وأمرت به وأرشدت إليه، من معرفة الله وعبادته والإنابة إليه والأمر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والاحسان، وما نهت عن ضده، ثم نظر إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد، عرف أن الخير و الفلاح والصلاح الديني والدنيوي، العاجل والآجل، الظاهر والباطن، مع ما دعت إليه الرسل، وأن الملحدين ترمي دعوتهم إلى الانحلال من كل خلق جميل، والحث على كل خلق رذيل ومآ لها الفوضوية التامة، والانطلاق مع شهوات النفوس حتى تكون البهائم أشرف منهم وأنفع، وهذا هو الواقع بلا ريب، ولسان حالهم ومقالهم يصرح بذلك، فنسأل الله أن يتم علينا و على المسلمين نعمه، وأن يثبتنا على دينه ويزيدنا من فضله وكرمه.

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٣) سورة المائدة: ٣.

(٤) سورة المائدة: ٥٠.

قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾(١) وهذا أمر مشاهد محسوس، أكثر أهل الأرض ضلال منحرفون دعاة إلى الضلال بأنواع الدعايات التي نهايتها أن تصل إلى هذا الذي ذكره الله: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾(٢). فجميع ما يحتجون به على باطلهم ظنون خاطئة، وتخرصات ونظريات فاسدة. واعتبر ذلك بنظريات علل الوجود التي لايزالون يحدثون عنها بأحاديث متناقضة، ولا يزالون يحدثون نظريات وتجارب في العلل، فيبطلونها لأنه محال أن يستقر لهم قول صحيح في ذلك، حتى يؤمنوا بخالق الوجود وموجد العلل والمعلومات، القادر على كل شيء، الذي جميع الذوات والعناصر والأسباب والمسببات كلها منقادة لمشيئته وحكمته، ليس لها من الأمر شيء، وإنما هو حكيم في وضعها مواضعها، وتنزيلها منازلها، وكذلك اعتبر هذا بخرصهم الباطل، وقولهم بشمول الترقى لكل موجود عموما، وللإنسان خصوصاً في أخلاقه ودينه وآدابه وأعماله وصناعته، حتى أخذ المغترون عنهم قضية مسلمة، وهي لا تحتاج إلى نظر كثير، بل يعلم بالبداهة والضرورة أن الترقي

---

(١) سورة الأنعام: ١١٦.

(٢) سورة الأنعام: ١١٦.

إنما هو في الأوقات القريبة في علوم الصناعات والمخترعات، وبهذا اغتروا وغروا غيرهم.

أما الترقى في الأفكار الصحيحة، والعلوم الصادقة النافعة، والأخلاق الفاضلة، فإنها هبطت هبوطاً لا يمكن التعبير عنه، وإذا أرادت أن تعرف ذلك يقيناً فخذ نموذجاً من الأمثلة وقس أفكارهم وعلومهم وأخلاقهم بالأفكار الراقية، والعلوم الصادقة، والأخلاق الفاضلة، مثال ذلك: أن الأفكار الماديين حصروها في المادة، ولم يلتفتوا بالكلية إلى غيرها، فأدركوا منها ما وصلت إليه أفكارهم، فهذه أفكارهم في أمور ضيقة أوجبت لهم جحد ما سواها، وضيقت علومهم، وأكسبتهم الشقاء العاجل والآجل. وأما الأفكار الدينية فإن أهل الدين الصحيح استعملوا أفكارهم فيما هيئت له وخلقت له، علموا أن الله خلقهم لمعرفته وعبادته وحده لا شريك له، وأنهم إذا قاموا بذلك أتم الله عليهم نعمته، وأسعدهم سعادة أبدية وفلاحاً دائماً. ومع ذلك فقد سخر لهم ما في السموات والأرض، وأدرَّ عليهم الأرزاق ليتوصلوا بها إلى المقصود مما خلقوا له، فيصلح دينهم ودنياهم وليحيوا في هذه الدار حياةً طيبةً، فبالله عليك هل تنسب تلك الأفكار الدينية إلى هذه الأفكار الجليلة العلية وقد ترتبت علوم الفريقين على هذه الأفكار المتباينة! فالماديون قصروها على علوم المادة فتم لهم منها ماتم، والمؤمنون عرفوا الله

بأسمائه وصفاته وأحكامه ودينه ظاهره وباطنه، فعلومهم الجليلة لا يمكن أن يقاس بها أو يقاربها شيء من العلوم الآخر، ومع ذلك فقد شاركوا علماء المادة في علمهم الذي يحتاجون إليه في إصلاح دينهم ودنياهم، فإنَّ دينهم قد جاء بالإصلاحات المتنوعة كما تقدم.

وأما الأخلاق فأهل الإلحاد والمادة انحلت منهم الأخلاق انحلالاً ذائباً، حتى صاروا كالبهائم، بل أضل منها وأخسّ، مرجت أخلاقهم، وذهبت عهودهم، واستباحت كل محرم، وانطلقوا في شهوات الغي، لا يثنيهم عنها دين، ولا خلق، ولا حياء من الله ولا من خلقه، كما هو معروف من أحوالهم، فذهب دينهم ولم تستقم دنياهم، فيعيشوا فيها عيشة طيبة هادئة، خسروا الدنيا والآخرة، وأما المؤمنون فإنَّ أخلاقهم كل خلق مستحسن عقلاً وشرعاً وعرفاً، وهي الأخلاق التي تجعل صاحبها في المراتب العالية والأوصاف الجميلة الحميدة كما هو معروف منهم مشاهد[١].

وقد بين ابن القيم – رحمه الله – في كتابه "الصواعق المرسلة" أثر الإلحاد في فساد العقيدة فيما يتعلق بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، إلى غير ذلك من شرائع الدين القويم فقال – رحمه الله –: (إلى أن جاء

---

(١) القواطع لابن سعدي (ص٦٠).

أول المائة الثالثة، وولي على الناس عبد الله المأمون، وكان يحب أنواع العلوم وكان مجلسه عامرا بأنواع المتكلمين في العلوم، فغلب عليه حب المعقولات، فأمر بتعريب كتب يونان، وأقدم لها المترجمين من البلاد، فعربت له، واشتغل بها الناس والملك سوق ما سوق فيه جلب إليه فغلب على مجلسه جماعة من الجهمية ممن كان أبوه الرشيد قد أقصاهم، وتبعهم بالحبس والقتل، فحشوا بدعة التجهم في أذنه وقلبه، فقبلها واستحسنها، ودعا الناس إليها، وعاقبهم عليها، فلم تطل مدته، فصار الأمر بعده إلى المعتصم، وهو الذي ضرب الإمام أحمد بن حنبل، فقام بالدعوة بعده والجهمية تصوب فعله وتدعوه إليه، وتخبره أن ذلك هو تنزيه الرب عن التشبيه والتمثيل والتجسيم، وهم الذين قد غلبوا على قربه ومجلسه، والقضاة والولاة منهم، فإنهم تبع لملوكهم، ومع هذا فلم يكونوا يتجاسرون على إلغاء النصوص وتقديم الآراء والعقول عليها، فإن الإسلام كان في ظهور وقوة، وسوق الحديث نافقة، ورؤوس السنة على ظهر الأرض، ولكن كانوا على ذلك يحومون، وحوله يدندنون، وأخذوا الناس بالرغبة والرهبة)[1].

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١٠٧٢/٣– ١٠٧٣).

وقد خاطب ابن القيم - رحمه الله - الجهمية فيما يتعلق بالله عز وجل مخاطبة الملاحدة، فقال: (وقد قلتم إنه غير مفارق العالم ولا العالم مفارق له، ولا هو داخل في العالم ولا العالم داخل فيه، ولا مماس للعالم ولا العالم مماس له، ولم رجعتم على من خالفكم بالتكفير، وزعمتم أنهم كفروا؛ لأنهم قالوا واحد منفرد بأين، فلم لا كنتم أولى بالكفر والتشبيه منهم إذا زعمتم مثل زعم الملحدين، وقلتم مثل مقالة الضالين، وخرجتم من توحيد رب العالمين)[1].

وخلاصة كلام ابن القيم - رحمه الله - السابق يتبين لنا مدى أثر الإلحاد في إفساد عقائد المسلمين، وخصوصاً ما يتعلق بذات الله عز وجل وأسمائه وصفاته، وأن ملاحدة الجهمية كان لهم دور كبير في التأثير على بعض حكام

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١٢٤٠/٤).

المسلمين في السابق وبالتالي تبني بعض عقائدهم الكفرية وإجبار الناس على اعتقادها مما أدى إلى فساد كبير في فِطَر المسلمين وعقائدهم[١].

وفي العصور المتأخرة تسلط الملاحدة الشيوعيون على مجموعات من الجمهوريات الإسلامية، وحكموهم بالحديد والنار، ومنعوهم من إقامة شعائرهم الدينية، وأفسدوا عقائد المسلمين، وأبعدوها عن التدريس في مدارسهم، وأحلوا محلها تدريس الإلحاد، والكفر برب العباد.

---

(١) مثال ذلك ما حصل في أيام المأمون. انظر: الحيدة والاعتذار للكناني ص (٨١)، إيضاح الدليل للكناني الحموي ص (٢٢).

المبحث الثاني:

آثار الإلحاد في فساد البلاد والعباد

عرفنا في المبحث السابق أثر الإلحاد في إفساد عقائد المسلمين فيما يتعلق بالله، وملائكته وكتبه، ورسله والإيمان بالقدر خيره وشره وسلخهم من دينهم ثم تربيتهم على الإلحاد، والكفر بالله، وفي هذا المبحث سأتناول أثر الإلحاد في فساد العباد والبلاد.

قال ابن القيم – رحمه الله – تعالى في كتابه "إغاثة اللهفان": (ودخل الداخل على بنى إسرائيل، ورفع التعطيل رأسه بينهم، وأقبلوا على عموم المعطلة، أعداء موسى عليه السلام، وقدموها على نصوص التوراة، فسلط الله تعالى عليهم من أزال ملكهم وشردهم من أوطانهم، وسبى ذراريهم، كما هى عادته سبحانه وسنته في عباده إذا أعرضوا عن الوحي، وتعوضوا عنه بكلام الملاحدة والمعطلة من الفلاسفة وغيرهم، كما سلط النصارى على بلاد العرب لما ظهرت فيها الفلسفة والمنطق، واشتغلوا بها، فاستولت النصارى على أكثر بلادهم، وأصاروهم رعية لهم، وكذلك لما ظهر ذلك ببلاد المشرق، سلط عليهم عساكر التتار، فأبادوا أكثر البلاد الشرقية، واستولوا عليها. وكذلك في أواخر المائة الثالثة، وأول الرابعة، لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد، سلط عليهم القرامطة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عده مرات واستولوا على الحاج، واستعرضوهم قتلا وأسرا، واشتدت شوكتهم، واتهم بموافقتهم في الباطن كثير من الأعيان، من الوزراء والكتاب، والأدباء

وغيرهم، واستولى أهل دعوتهم على بلاد المغرب[١]، واستقرت دار مملكتهم بمصر[٢]، وبنيت في أيامهم القاهرة[٣]، واستولوا على الشام[٤] والحجاز[٥]،

---

(١) المغرب: يقصد بها البلدان العربية التي تقع شمال غرب أفريقيا، وأما بلاد المغرب حالياً فهي: دولة عربية تقع في الركن الشمالي الغربي من قارة إفريقيا، وكان يطلق عليها أيضًا اسم مراكش. ويحيط بها البحر الأبيض المتوسط من الشمال، والمحيط الأطلسي من الغرب، كما يفصلها مضيق جبل طارق . الذي يلتقي فيه البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي . عن أسبانيا بنحو ١٣كم فقط. الموسوعة العربية العالمية (٥٠١/٢٣).

(٢) مصر: دولة عربية تقع في الركن الشمالي الشرقي من إفريقيا، ويحدها البحر الأحمر من الشرق، والبحر الأبيض المتوسط من الشمال، والصحراء الليبية من الغرب، والسودان من الجنوب. الموسوعة العربية العالمية (٣٣٧/٢٣).

(٣)القاهرة: عاصمة مصر وكبرى مدنها، وهي أيضاً كبرى مدن القارة الإفريقية. الموسوعة العربية العالمية (٥٢/١٨).

(٤) الشام: يتردد الشام كثيرا في كتب السير والمغازي، وله ثلاثة اصطلاحات: الشام في عرف العرب كل ما هو في جهة الشمال، والشام في عرف بعض العامة هو دمشق فحسب، أما الشام تاريخيا فيشمل: سورية والأردن ولبنان وفلسطين، وهذه الأقطار تسمى أيضا – سورية الكبرى، وهي تسمية متأخرة. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية لعاتق البلادي (ص١٦٧).

(٥) الحجاز: سمي بذلك لأنه حاجز بين تهامة ونجد، والحجاز جبل ممتد حال بين الغور غور تهامة ونجد، فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر، وإقليم الحجاز معروف، ومنه: مكة والمدينة وجدة والطائف وتبوك وبلاد عسير وتهامة وبلاد بيشة. انظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (٩٧).

واليمن[(١)] والمغرب، وخطب لهم على منبر بغداد[(٢)].

والمقصود أن هذا الداء لما دخل في بنى إسرائيل كان سبب دمارهم وزوال مملكتهم)[(٣)].

وفي عصرنا هذا تسلطت الشيوعية الملحدة على بعض بلدان المسلمين وسامتهم سوء العذاب والنكال، بالقتل، والتشريد، والتعذيب، والسجن، والاستيلاء على أملاكهم من أموال وعقار وغير ذلك، بصورة لا رحمة فيها ولا إنسانية وهذا ما فعلته في الدول التي تمكنت منها مثل طاشقند[(٤)]، وبخارى[(٥)] والقرم[(٦)]

---

(١) اليمن: دولة عربية تقع في جنوب شبه الجزيرة العربية بين خطي عرض ١٢°-١٩° شمالا، وبين خطي طول ٤٢- ٥٣° شرقًا. وتبلغ مساحتها ٤٥٣. ٠٠٠كم^2 تقريباً. يحدها من الشمال المملكة العربية السعودية ومن الجنوب بحر العرب وخليج عدن ومن الشرق سلطنة عُمان ومن الغرب البحر الأحمر. انظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص٣٠١).

(٢) بغداد: عاصمة العراق، وأكبر مدنه، وواحدة من أكبر المدن. الموسوعة العربية العالمية (١١/٥).

(٣) إغاثة اللهفان: (٢٦٥/١).

(٤) طاشقند: عاصمة جمهورية أوزبكستان حاليا. انظر: أطلس دول العالم الإسلامي (ص٢١)

(٥) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها يعبر إليها من آمل الشط وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه وكانت قاعدة ملك السامانية. معجم البلدان (٣٥٣/١).

(٦)القرم اسم لشبه جزيرة في شكل نتوء من الجزء الجنوبي لأوكرانيا في البحر الأسود وبحر أزوف. الموسوعة العربية العالمية (١٦٧/١٨).

والقوقاز[١] وسمرقند[٢]، إلى غيرها من الجمهوريات الإسلامية، ومثل ذلك ما فعلته من أفاعيل قبيحة في أهالي عدن[٣] وحضرموت[٤] في الأزمنة القريبة بعد استيلائها عليها، فالشيوعية وباء عظيم، وشر مستطير، وبالأخص تجاه المسلمين، حيث صار المسلمون بين شرين؛ بين الرأسمالية المستبدة بالثروات والأموال من أي طريق كان، وبين الشيوعية الملحدة التي تحارب الدين وتقتل أهله، وتستحوذ على أموالهم، وتلغي ملكية أفراد المجتمع لها.

---

(١)القوقاز، جبال. جبال القوقاز تمتد في روسيا وجورجيا وأذربيجان، وترتفع بين بحر قزوين والبحر الأسود، وتمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حوالي ١، ٢١٠كم، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة فيها (جبل إلبروس) حوالي ٥، ٦٤٢م فوق مستوى سطح البحر، وهي تُعدّ أعلى قمة في أوروبا. يعتبر العديد من الجغرافيين القوقاز خط الحدود الفاصل بين أوروبا وآسيا. الموسوعة العربية العالمية (٤٢٤/١٨).

(٢)سمرقند بفتح أوله وثانيه ويقال لها بالعربية سمران بلد معروف مشهور قيل إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر وهو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه. معجم البلدان (٢٤٦/٣-١٤٧).

(٣) هي إحدى المدن اليمنية الهامة، تقع على خليج عدن، على الساحل الجنوبي للجمهورية اليمنية. الموسوعة اليمنية (٢٠٤٢/٣).

(٤) حضرموت: كبرى المدن اليمنية وتقع في الجنوب الشرقي للجمهورية اليمنية. الموسوعة اليمنية (١١١٦/٢).

المبحث الثالث:

آثار الإلحاد في ضعف الأمة وتفرق كلمتها وتسلط الأعداء عليها

سبق أن مرّ بنا أثر الإلحاد في فساد البلاد والعباد وعرفنا من خلاله أثره السيء في قتل المسلمين وتشريدهم والتنكيل بهم.

وفي هذا المبحث سأتناول آثار الإلحاد في ضعف الأمة وتفرق كلمتها وتسلط الأعداء عليها حيث كان الإلحاد من أسباب تمزيق الأمة الإسلامية وإضعافها وتفريق كلمتها لما عجزوا عن مواجهتها وجهاً لوجه، وبسبب تفرق كلمة الأمة حصل الضعف فيها وبالتالي تسلط الأعداء عليها.

قال ابن القيم - رحمه الله -: (إلى أن جاء ما لا قبل لأحد به، وهم جنود إبليس حقا، المعارضون لما جاءت به الرسل بعقولهم وآرائهم، من القرامطة والباطنية، والملاحدة، ودعوتهم إلى العقل المجرد، وأن أمور الرسل تعارض المعقول فهم القائمون بهذه الطريقة حق القيام، بالقول والفعل، فجرى على الإسلام وأهله منهم ما جرى، وكسروا عسكر الخليفة مرارا عديدة، وقتلوا الحاج قتلا ذريعا، وانتهوا إلى مكة فقتلوا بها من وصل من الحاج إليها، وقلعوا الحجر الأسود من مكانه، وقويت شوكتهم واستفحل أمرهم وعظمت بهم الرزية، واشتدت بهم البلية، وأصل طريقهم أن الذي أخبرت به الرسل قد عارضه العقل، وإذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، قالوا فنحن أنصار العقل، الداعون إليه، المخاصمون به المحاكمون إليه وفي زمانهم استولى الكفار على كثير من بلاد الإسلام في الشرق والغرب، وكاد الإسلام

أن ينهد ركنه لولا دفاع الذي ضمن حفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها)[١].

وفي العصور الأخيرة، وبعد سيطرة الملحدين الشيوعيين على روسيا، وتحكمهم فيها سعوا إلى الاستيلاء والسيطرة على الجمهوريات الإسلامية المحيطة بها، والقريبة منها حتى حصلوا على بغيتهم بالحديد والنار، وترتب على ذلك أن فرقوا بين المسلمين بتمزيق وحدتهم، وتفريق كلمتهم مما أدى إلى ضعفهم وتمكن الأعداء من السيطرة والتسلط عليهم.

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١٠٧٤/٣).

المبحث الرابع:

ذكر ابن القيم أن الإلحاد من أسباب سقوط الدول.

بعدما عرفنا أثر الإلحاد في ضعف الأمة وتفرق كلمتها مما سهل تسلط الأعداء عليها والتمكن منها ونشر الإلحاد بين أبنائها سأكتب في هذا المبحث أثر الإلحاد في سقوط الدول فقد كان للإلحاد أثر كبير في سقوط بعض الدول والبلدان الإسلامية قديما وحديثا، فقديما سبب إلحاد الجهمية في آخر عصر التابعين إلى سقوط ملك ودولة بني أمية؛ وقد قال ابن القيم – رحمه الله – في هذا الشأن: (ولما كثرت الجهمية في آخر عصر التابعين كانوا هم أول من عارض الوحي بالرأي، ومع هذا فكانوا قليلين أذلاء مذمومين، وأولهم شيخهم الجعد بن درهم(١)، وإنما نفق عند الناس لأنه كان معلم مروان بن محمد(٢) وشيخه ولهذا يسمى مروان الجعد، وعلى رأسه سلب الله بني أمية الملك والخلافة، وشتتهم في البلاد، ومزقهم كل ممزق ببركة شيخ المعطلة النفاة) (٣).

---

(١) الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار، هو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلا، ولا كلم موسى، وأن ذلك لا يجوز على الله، قال المدائني: كان زنديقا، وقد قال له وهب: إني لاظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله أن له يدا، وأن له عينا ما قلنا ذلك، ثم لم يلبث الجعد أن صلب. سير أعلام النبلاء (٥/٤٣٣).

(٢) مروان بن محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص، بن أمية، أبو عبد الملك، الخليفة الأموي، يعرف بمروان الحمار، وبمروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه جعد بن درهم، قتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة سير أعلام النبلاء (٦/٧٤).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ١٧٥).

وقد تكلم ابن القيم - رحمه الله - عن سقوط عدة دول على أيدي الملاحدة الباطنيين، وساموا أهلها سوء العذاب من قتل وحبس وتشريد، وإجبار من بقي منهم على اعتناق الإلحاد، قال - رحمه الله -: (لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد سلط عليهم القرامطة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عده مرات واستولوا على الحاج، واستعرضوهم قتلا وأسرا، واشتدت شوكتهم، واتهم بموافقتهم في الباطن كثير من الأعيان، من الوزراء والكتاب، والأدباء وغيرهم، واستولى أهل دعوتهم على بلاد المعرب، واستقرت دار مملكتهم بمصر، وبنيت في أيامهم القاهرة، واستولوا على الشام والحجاز واليمن والمغرب، وخطب لهم على منبر بغداد)[١].

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - أن سقوط الدولة العباسية، كان بتواطأ من الملاحدة الباطنية مع التتار حيث قال - رحمه الله -: (ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك، والكفر الملحد، وزير الملاحدة، النصير الطوسي[٢] وزير

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/٢٦٥).

(٢) هو: محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر الخواجا، الملقب ظلماً وبهتانا بنصير الدين الطوسي: فيلسوف، رافضي، إسماعيلي، متكلم. كان رأسا في العلوم العقلية، علامة بالأرصاد والمجسطي والرياضيات. علت منزلته عند (هولاكو) فكان يطيعه فيما يشير به عليه، توفي سنة ٦٧٢هـ. انظر: فوات الوفيات لمحمد شاكر (٣/٢٤٦)، الأعلام للزركلي (٧/٣٠).

هولاكو[١]، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفا إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة، والمنجمين[٢]، والطبائعيين، والسحرة[٣]) [٤].

وفي العصور الأخيرة أدَّى الإلحاد إلى سقوط دول إسلامية وضمها إلى ما يسمى بالاتحاد السوفييتي قديماً مثل طاشقند، وبخارى والقرم والقوقاز وسمرقند، إلى غيرها من الجمهوريات الإسلامية.

ولا يفوتنا كذلك ما سببه الإلحاد الشيوعي في الاستيلاء على مقاليد الحكم في اليمن الجنوبي[٥] سابقاً.

وبهذا عرفنا ما سببه الإلحاد البغيض في سقوط دول إسلامية عديدة على يد الملحدين وتحكمهم بهم.

---

(١) هولاكو بن تولى قان بن الملك جنكرخان، ملك التتار ومقدمهم، طوى البلاد واستولى على الممالك في أيسر مدة، وهزم الجيوش وأباد الملوك، وقتل الخليفة، و سفك دم ألف ألف أو يزيدون، مات سنة ٦٦٤هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٤٩/١٨٠).

(٢) المنجمون: طائفة ضالة تعتقد أن للنجوم تأثيراً في الحوادث وما يجرى في هذا الكون. انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان (٢/١٦).

(٣) السحرة هم من طائفة ضالة تستعين بالشياطين بعمل عزائم ورُقى وعُقد يؤثر في بدن المسحور بالقتل أو بالمرض، أو بالإخلال بعقله، أو يفرِّق بين الزوجين، أو يأخذ الزوج عن زوجته فلا يستطيع الوصول إليها. انظر: إعانة المستفيد للشيخ صالح الفوزان (١/٣٤٣).

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/٢٦٦-٢٦٧.

(٥) اليمن الجنوبي سابقاً: يقع في أقصى جنوب الجزيرة العربية يحده شمالا كل من اليمن الشمالي والسعودية، وجنوبا بحر العرب، وشرقا عُمان، وغربا البحر الأحمر، ثم تمت الوحدة بين اليمن الشمالي والجنوبي في ٢٢/٥/١٩٩٠م تحت اسم الجمهورية اليمنية. انظر: الموسوعة العربية العالمية (٢٧/٣٢٧).

المبحث الخامس:

أثر الإلحاد في تقوية شأن المذاهب الباطلة

سبق بيان كلام ابن القيم في المبحث السابق عن أثر الإلحاد في سقوط الدول، وفي هذا المبحث الأخير ستتعرف على أثر الإلحاد في تقوية شأن المذاهب الباطلة، فقد أثبت التاريخ مساهمة الملاحدة في نشر المذاهب الباطلة والآراء الهدامة قديما وحديثاً، لتشويه الشرع الحنيف، وصدّ الناس عن الدخول فيه.

قال ابن القيم – رحمه الله –: (فداء التعطيل، وداء الإشراك، وداء مخالفة الرسول وجحد ما جاء به، أو شيء منه: هو أصل بلاء العالم، ومنبع كل شر، وأساس كل باطل، فليست فرقة من فرق أهل الإلحاد والباطل والبدع إلا وقولها مشتق من هذه الأصول الثلاثة، أو من بعضها)[1].

ثم شرع ابن القيم – رحمه الله – بذكر الجهمية الملاحدة وأنهم لا يختلفون عن الدهرية في النتيجة وهي عدم إثبات ذات الخالق رب العالمين سبحانه، حيث سعوا إلى نشر هذا التعطيل بين أبناء المسلمين فقال – رحمه الله –: (ثم ألزمهم ابن كلاب[2] بمذهب الدهرية الملاحدة، وأن يكونوا وهم

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٥٦).

(٢) أبو محمد، عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم، وكان يلقب كلابا لانه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته. ، ولابن كلاب كتاب "الصفات"، وكتاب "خلق الأفعال"، و "كتاب الرد على المعتزلة" توفي سنة ٢٤٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١١/١٧٤).

بمنزلة واحدة، فقال في هذا الكتاب يقال للجهمية أليست الدهرية كفارا ملحدين في قولهم إن الدهر هو واحد إلا أنه لا ينفك عن العالم ولا ينفك العالم عنه، ولا يباين العالم ولا يباينه ولا يماس العالم ولا يماسه، ولا يداخل شيئا من العالم ولا يداخله؛ لأنه واحد والعالم غير مفارق له فإذا قالوا: نعم، قيل لهم: صدقتم، فلم أثبتم المعبود بمعنى الدهر، وأكفرتم من قال بمثل مقالتكم؟! هل تجدون بينكم وبينه فرقا أكثر من أن سميتموه بغير ما سموه به؟! وقد قلتم إنه غير مفارق العالم ولا العالم مفارق له، ولا هو داخل في العالم ولا العالم داخل فيه ولا مماس للعالم ولا العالم مماس له، ولم رجعتم على من خالفكم بالتكفير، وزعمتم أنهم كفروا؛ لأنهم قالوا واحد منفرد بأين، فلم لا كنتم أولى بالكفر والتشبيهة منهم؟ إذا زعمتم مثل زعم الملحدين؟ وقلتم مثل مقالة الضالين؟ وخرجتم من توحيد رب العالمين)[(١)].

وكذلك تحدث – رحمه الله – عن الفرق بين متقدمي الرافضة ومتأخريهم حيث دخل فيهم الإلحاد فقال – رحمه الله –: (والرافضة المتقدمون لم يكونوا جهمية معطلة، وأما المتأخرون منهم من حدود أواخر المائة الثالثة فضموا إلى بدعة الرفض التجهم والقدر، فتغلظ أمرهم وظهر

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١٢٤٠/٤).

منهم حينئذ القرامطة، والباطنية، واشتهرت الزندقة الغليظة، والنفاق الأعظم في أمرائهم وعلمائهم وعامتهم، وأخذوا من دين المجوس والصابئة[١] والمشركين ما خلطوه في الإسلام) [٢].

ولا يفوتنا في هذا المقام بيان أن الكفار على اختلاف مشاربهم، وخصوصا أهل الإلحاد منهم على مرّ التاريخ، وعلى وجه الخصوص في العصور المتأخرة وضعوا ثقلهم على إحياء وتقوية ومناصرة المذاهب والفرق الباطلة، من حيث تمويلهم، ومدّهم بالسلاح والعتاد، وحمايتهم بكل ما أوتوا من قوة، وعلى رأس هذه المذاهب الباطلة الرافضة، والخوارج[٣]، والصوفية.

---

(١) الصابئة: سموا بذلك لكونهم فارقوا الحنيفية والتوحيد، وعبدوا النجوم وعظموها، وكانوا يقولون: إن مدبر هذا العالم وخالقه هذه الكواكب السبعة والنجوم. انظر: اعتقادات المسلمين والمشركين (ص١٤٣)

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/١٤٠٥- ١٤٠٦).

(٣) الخوارج: كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين لهم بإحسان والأئمة في كل زمان. الملل والنحل: (١/ ١١٤).

الباب الثاني: موقف الإمام ابن القيم من فرق الملاحدة وأصنافهم:

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: موقف الإمام ابن القيم - رحمه الله - من ملاحدة الفلاسفة الإلهيين.

الفصل الثاني: موقفه من ملاحدة الدهرية.

الفصل الثالث: موقفه من ملاحدة الطبائعيين.

الفصل الرابع: موقفه من الطوائف الباطنية الملحدة.

الفصل الأول:

موقف الإمام ابن القيم - رحمه الله - من ملاحدة الفلاسفة.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالفلاسفة وأبرز مقالاتهم.

المبحث الثاني: بيان موقف ابن القيم من الفلاسفة.

المبحث الثالث: ذكر مواقف أبرز أهل العلم من الفلاسفة.

بعدما عرفنا في الفصل السابق بمباحثه الخمسة وهي آثار الإلحاد في فساد العقيدة وفساد العباد والبلاد، وفي ضعف ردود المتكلمين على الملاحدة، وأثره في ضعف الأمة وتفرق كلمتها وتسلط الأعداء عليها، وأخيراً أثر الإلحاد في سقوط الدول.

وفي هذا الفصل سنتعرف على مباحث جديدة وهي التعريف بالفلاسفة، وأبرز مقالاتهم، وتعريف ابن القيم للفلسفة، وموقفه من الفلاسفة، وذكر موقف أبرز أهل العلم من الفلاسفة.

المبحث الأول:

التعريف بالفلاسفة وأبرز مقالاتهم

في هذا المبحث سأذكر التعريف بكلمة فيلسوف عند اليونانيين، لأنها كلمة يونانية، وكذا تعريفها عند ابن القيم – رحمه الله –، وبيانه للفلاسفة على حقيقتهم، مع ذكر أبرز مقالاتهم واعتقاداتهم فيما يتعلق بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره وبالغيبيات عموما.

فأقول وبالله التوفيق:

الفلسفة اسم يوناني معرب من كلمة "فيلاسوفيا"، ومعناه: إيثار الحكمة، وهو في لسانهم مركب من: "فيلا" و "سوفيا" و "فيلا": الإيثار، "وسوفيا": الحكمة، والفيلسوف معناه: المؤثر للحكمة، وذكر الشهرستاني في الملل والنحل قريباً من ذلك فقال: "الفلسفة باليونانية": محبة الحكمة والفيلسوف هو "فيلا" و"سوفا"، و"فيلا": هو المحب، و"سوفا": الحكمة، أي هو: محب الحكمة، والتعبير عن الفلسفة بمعنى إيثار الحكمة يستلزم أن تكون الحكمة التي يسعى إليها المسلم موافقة للشرع القويم، فإن الحكمة الحقيقية إنما تؤخذ من مشكاة النبوة، قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: ١٢٩.

وجاء في الموسوعة العربية العالمية: (الفلسفة هي دراسة تسعى إلى فهم غوامض الوجود والواقع، كما تحاول أن تكتشف ماهية الحقيقة والمعرفة، وأن تدرك ماله أهمية أساسية وقيمة عظمى في الحياة، كذلك تنظر في العلاقات القائمة بين الإنسان والطبيعة، وبين الفرد والمجتمع)[١]، وهذا هو المعنى الواسع للفلسفة[٢].

وقد بين ابن القيم - رحمه الله - معنى الفلسفة والفلاسفة فقال - رحمه الله - في بيان معنى الفلسفة: (معناها محبة الحكمة، والفيلسوف أصله "فِيْلاسوفا" أى محب الحكمة "ففيلا" هى المحب "وسُوفا" هى الحكمة)[٣].

ثم إن ابن القيم - رحمه الله - عرف الفلاسفة اصطلاحاً وبين معنى ذلك فقال - رحمه الله -: (والمقصود: أن الفلاسفة اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها، وقد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصا بمن خرج عن ديانات الأنبياء، ولم يذهب إلا إلى ما يقتضيه العقل في زعمه.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية (١٧/٤٥٦).

(٢) ينظر: مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث وأثرها على المسلمين، إعداد: أشرف بن عبد الحميد بن محمد بارقعان، ص٨٤. بتصرف

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٥٦).

وأخص من ذلك: أنه في عرف المتأخرين اسم لأتباع إرسْطو، وهم المشاؤون[١] خاصة)[٢].

ثم أخذ ابن القيم يوضح هذه الفلسفة ويبين أن أرسطو[٣] وشيعته هو أول القائلين بقدم هذا العالم، وأنه خالف من قبله. فقال - رحمه الله -: (وهم الذين هذب ابن سيْنا طريقتهم وبسطها، وقررها، وهي التى يعرفها، بل لا يعرف سواها، المتأخرون من المتكلمين، وهؤلاء فرقة شاذة من فرق الفلاسفة، ومقالتهم واحدة من مقالات القوم، حتى قيل: إنه ليس فيهم من يقول بقدم الأفلاك غير إرَسْطو وشيعته، فهو أول من عرف أنه قال بقدم هذا العالم. والأساطين قبله كانوا يقولون بحدوثه، وإثبات الصانع، ومباينته للعالم، وأنه فوق العالم وفوق السماوات بذاته كما حكاه عنهم أعلم الناس في زمانه بمقالاتهم: أبو الوليد بن رشد[٤] في كتابه "مناهج الأدلة")[١].

---

(١) المشاؤون: هم تلاميذ أرسطو، وكان يحاضر ماشياً فسمي هو وأتباعه بالمشائين. انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية (ص١١٣).

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٥٧)، وانظر للاستزادة في معنى الفلسفة كتاب: الكمال الإلهي د. عبد الله الأحمدي ص (٣٩٤-٣٩٥).

(٣) وانظر لبيان عقائده: المنقذ من الضلال للغزالي ص (١٣٥) وما بعدها، الفلسفة اليونانية أصولها وتطوراتها، ألبير ريفو ص ١٤٨، بواسطة كتاب الكمال الإلهي د. عبد الله الأحمدي.

(٤) هو: محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي، أبو الوليد: الفيلسوف. من أهل قرطبة، عني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية، وزاد عليه زيادات كثيرة، وبرع في الفقه، والطب، من =

وقال – رحمه الله – مستعرضاً تاريخ الفلاسفة ومبيناً باختصار أشهر أعلامهم ومقالاتهم على مر العصور، وأن الفلاسفة موجودون في سائر الأمم ولا تختص بأمة معينة فقال – رحمه الله –: (والفلاسفة لا تختص بأمة من الأمم، بل هم موجودون في سائر الأمم، وإن كان المعروف عند الناس الذين اعتنوا بحكاية مقالاتهم: هم فلاسفة اليونان. فهم طائفة من طوائف الفلاسفة، وهؤلاء أمة من الأمم، لهم مملكة وملوك، وعلماؤهم فلاسفتهم، ومن ملوكهم الإسكندر المقدوني[٢]. . . فكان مشركا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته. وكان بينه وبين المسيح نحو ألف سنة وستمائة سنة. والنصارى تؤرخ له. وكان إرسطاليس وزيره، وكان مشركا يعبد الأصنام. وهو الذى غزا

مؤلفاته: "بداية المجتهد" في الفقه، و"الكليات" في الطب، و"مختصر المستصفى" توفي سنة ٥٩٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٠٧/٢١)، الأعلام للزركلي (٣١٨/٥).

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢٥٧/٢-٢٥٨.

(٢) ملك مقدونيا، وهو أحد كبار القادة العسكريين في التاريخ وكان قد فتح كثيرًا من بلاد العالم المتمدن المعروفة في ذلك الوقت، ونقل إليها الأفكار الإغريقية، والطرق التي كان الإغريق يتخذونها لصنع الأشياء، واستطاع أن ينشر الثقافة الإغريقية التي عرفت في ذلك الوقت بشكل واسع في البلاد التي فتحها. الموسوعة العربية العالمية (٢١/٢).

دارا بن دارا[١] ملك الفرس في عقر داره فثل عرشه، ومزق ملكه، وفرق جمعه، ثم دخل إلى الصين[٢]، والهند[٣]، وبلاد الترك[٤]، فقتل وسبى)[٥].

ثم شرع ابن القيم يذكر أبرز أعلام فلاسفة اليونان الموحدين المثبتين لوجود الله وصفاته.

فذكر منهم سقراط[١]، وأفلاطون[٢]، قال – رحمه الله –: (فنشأ فيهم سقراط أحد تلامذة فيثاغورس[٣]، وكان من عبادهم، ومتألهيهم، وجاهرهم

---

(١) دارا بن دارا بن بهمن، أحد ملوك فارس، وهو الذى يعرف بداريوش، لما افضى الملك الى دارا بن دارا تجبر، واستكبر، وطغى، فخرج الإسكندر الرومي عليه، وغصبه ملكه وقتله. انظر: تاريخ الرسل والملوك للطبري (٥٧٢/١)، الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ص٢٩)

(٢) الصين: أكبر دول العالم في عدد السكان، وثالث دولة في المساحة. تقع الصين في شرقي آسيا، ويعيش فيها حوالي ٢٠% من سكان العالم. تزيد مساحتها على ٢٠% من مساحة آسيا، ولا يفوقها مساحة إلا روسيا وكندا. وتضم الأراضي الصينية بعضًا من أكثر الصحاري جفافًا وأعلى القمم ارتفاعًا، وأكثر الأراضي خصوبة في العالم. الموسوعة العربية العالمية (٢٦٥/١٥).

(٣) الهند: الهند دولة تقع جنوبي آسيا وهي ثانية أكبر دولة سكانًا في العالم بعد الصين. تتباين الهند من حيث الأرض والسكان، وينتمي السكان إلى عدة مجموعات عِرقية ودينية، ويتحدثون لغات ولهجات مختلفة. ويتفاوت السكان تفاوتا كبيرًا من حيث مستوى المعيشة والثراء والفقر والتعليم. الموسوعة العربية العالمية (١٢٧/٢٦).

(٤) بلاد الترك: الاسم الجامع لجميع بلاد الترك هو: تركستان، و أوسع بلاد الترك: بلاد التغزغز وحدهم الصين والتبت والخرلخ والكيماك والغز والجفر والبجناك والبذكش وأذكس وخفشاق وخرخيز وأول حدهم من جهة المسلمين فاراب. انظر: معجم البلدان (٢٣/٢).

(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢٦٣/٢– ٢٦٤.

بمخالفتهم في عبادة الأصنام، وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها، فثار عليه العامة، واضطروا الملك إلى قتله، فأودعه السجن ليكفهم عنه، ثم لم يرض المشركون إلا بقتله، فسقاه السم خوفا من شرهم، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم. ومذهبه في الصفات قريبا من مذهب أهل الإثبات، فقال: إنه إله كل شيء وخالقه، ومقدره. وهو عزيز، أى منيع، ممتنع أن يضام وحكيم، أى محكم أفعاله على النظام(٤).

وقال: إن علمه، وقدرته، ووجوده، وحكمته، بلا نهاية، لا يبلغ العقل أن يصفها.

---

(١) سقراط: أحد الفلاسفة، الحكيم المشهور، كَانَ من تلاميذ فيثاغورس واقتصر من الفلسفة عَلَى العلوم الإلهية وأعرض عن ملاذ الدينا ورفضها وأعلن بمخالفة اليونانيين فِي عبادتهم الأصنام وقابل رؤسائهم بالحجج والأدلة فثوروا عَلَيْهِ العامة واضطروا ملكهم إِلَى قتله، وهو أستاذ أفلاطون الفيلسوف المشهور. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء للخزرجي (ص: ٧١)، أخبار العلماء بأخيار الحكماء للقفطي (ص: ١٥٣).

(٢) أفلاطون: فيلسوف يوناني تتلمذ على "سقراط" رسم في الجمهورية صورة للمدينة الفاضلة كما تخيلها وتمناها، وقد اشتهر أفلاطون في محاوراته، من مؤلفاته "بولينا" في الدستور، توفي سنة ٣٤٧ ق. م. انظر: تاريخ الفلسفة الغربية (ص١٧٦)

(٣) فيثاغورس: هو فيثاغورس بن منسارخس، من أهل ساميا، ولد في ساموس سنة ٥٧٢ق. م، فيلسوف، ورياضي شهير. انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية (ص٢٠).

(٤) انظر: المنقذ من الضلال للغزالي ص (١٣٥-١٣٦)، الكمال الإلهي د. عبد الله الأحمدي ص (٣٩٩-٤٠٠).

وقال: إن تناهي المخلوقات بحسب احتمال القوابل، لا بحسب الحكمة والقدرة، فلما كانت المادة لا تحتمل صورا بلا نهاية تناهت الصور، لا من جهة بخل في الواهب، بل لقصور في المادة.

قال: وعن هذا اقتضت الحكمة الإلهية أنها وإن تناهت ذاتا وصورة وحيزا ومكانا إلا أنها لا تتناهى زمانا في آخرها، لا من نحو أولها، فاقتضت الحكمة استبقاء الأشخاص باستبقاء الأنواع، وذلك بتجدد أمثالها، ليحفظ الأشخاص ببقاء الأنواع، ويستبقى الأنواع بتجدد الأشخاص. فلا تبلغ القدرة إلى حد النهاية، ولا الحكمة تقف على غاية.

ومن مذهبه: أن أخص ما يوصف به الرب سبحانه، هو كونه حيا قيوما، لأن العلم، والقدرة، والجود، والحكمة، تندرج تحت كونه حيا قيوما، فهما صفتان جامعتان للكل.

وكان يقول: هو حى ناطق من جوهره، أى من ذاته وحياته، ونطقنا وحياتنا لا من جوهرنا، ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدثور والفساد، ولا يتطرق ذلك إلى حياته ونطقه.

وكلامه في المعاد والصفات والمبدأ أقرب إلى كلام الأنبياء من كلام غيره.

وبالجملة، فهو أقرب القوم إلى تصديق الرسل، ولهذا قتله قومه.

وكان يقول: إذا أقبلت الحكمة خدمت الشهوات العقول، وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات.

وقال: لا تكرهوا أولادكم على آثاركم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم. وقال: ينبغى أن يُغْتَم بالحياة ويفرح بالموت، لأن الإنسان يحيا ليموت، ثم يموت ليحيا.

وقال: قلوب المغرمين بالمعرفة بالحقائق منابر الملائكة. وقلوب المؤثرين للشهوات مقاعد للشياطين. وقال: للحياة حدان: أحدهما: الأمل، والآخر: الأجل. فبالأول بقاؤها، وبالآخر فناؤها.

وكذلك أفلاطون، كان معروفا بإثبات الإله، وإنكار عبادة الأصنام، وإثبات حدوث العالم وكان تلميذ سقراط، ولما هلك سقراط قام مقامه، وجلس على كرسيه(١).

وكان يقول إن للعالم صانعا محدثا، مبدعا أزليا، واجبا بذاته عالما بجميع المعلومات(٢).

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال للغزالي ص (١٣٥-١٣٦)، الكمال الإلهي د. عبد الله الأحمدي ص (٣٩٩-٤٠٠).

(٢) وليس المراد بوصف أفلاطون ومن على طريقته من الفلاسفة بالموحدين أنهم يفردون الله تعالى =

قال: وليس في الوجود رسم ولا طلل إلا ومثاله عند البارى تعالى.

يشير إلى وجود صور المعلومات في علمه.

فهو مثبت للصفات، وحدوث العالم. ومنكر لعبادة الأصنام، ولكن لم يواجه قومه بالرد عليهم، وعيب آلهتهم فسكتوا عنه. وكانوا يعرفون له فضله وعمله.

وصرح أفلاطون بحدوث العالم، كما كان عليه الأساطين، وحكى ذلك عنه تلميذه إرسطو، وخالفه فيه، فزعم أنه قديم، وتبعه على ذلك ملاحدة الفلاسفة، من المنتسبين إلى الملل وغيرهم، حتى انتهت النوبة إلى أبى على بن سينا، فرام بجهده تقريب هذا الرأى من قول أهل الملل، وهيهات اتفاق النقيضين، واجتماع الضدين[1].

فرسل الله تعالى وكتبه وأتباع الرسل في طرف. وهؤلاء القوم في طرف.

بالعبادة، ولكن المراد إنهم لا يقولون بقدم العالم ويثبتون وجود إله، وهم مع ذلك مشركون يؤمنون بتعدد الآلهة وأن الله يخلق آلهة أخرى، يتحكم فيها، لذا ورد في بعض كلام سقراط في محاكمته قوله: أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر، فعلى ذلك هم مشركون لاعتقادهم بتعدد الآلهة. ينظر: قصة الحضارة لول ديورانت (٣٦٧/٧)، الكمال الإلهي بين أهل السنة ومخالفيهم د. عبد الله عيسى الأحمدي ص (٤٤٦-٤٤٨)، أفلاطون تصوره لإله واحد، ر فالترز، ص (٥٥).

(١) انظر: المنقذ من الضلال للغزالي ص (١٣٧)، وجمهورية أفلاطون، أحمد المنياوي، ص ١٦٩.

وكان ابن سينا، كما أخبر عن نفسه قال: أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم، فكان من القرامطة الباطنية، الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، ولا رب خالق، ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى) [١].

ثم بيَّن ابن القيم – رحمه الله – شرك الفلاسفة وعلى رأسهم أرسطو وحقيقة كلامهم هو الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر: (وقد حكى أرباب المقالات أن أول من عرف عنه القول بقدم هذا العالم أرسطو. وكان مشركا يعبد الأصنام. وله في الإلهيات كلام كله خطأ من أوله إلى آخره، فقد تعقبه بالرد عليه طوائف المسلمين، حتى الجهمية والمعتزلة، والقدرية[٢]، والرافضة، وفلاسفة الإسلام أنكروه عليه، وجاء فيه بما يسخر منه العقلاء.

وأنكر أن يكون الله سبحانه يعلم شيئا من الموجوادت، وقرر ذلك بأنه لو علم شيئا لكمل بمعلوماته، ولم يكن كاملا في نفسه، وبأنه كان يلحقه التعب والكلال من تصور المعلومات.

فهذا غاية عقل هذا المعلم والأستاذ.

وقد حكى ذلك أبو البركات، وبالغ في إبطال هذه الحجج وردها.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/٢٦٣- ٢٦٦.

(٢) القدرية: سموا بذلك لقولهم في القدر، وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعله استقلالا، فأثبتوا مع الله خالقاً. انظر: الملل والنحل (٥٤/١).

فحقيقة ما كان عليه هذا المعلم لأتباعه: الكفر بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، ودرج على أثره أتباعه من الملاحدة، ممن يتستر باتباع الرسل، وهو منحل من كل ما جاءوا به.

وأتباعه يعظمونه فوق ما يعظم به الأنبياء، ويرون عرض ما جاءت به الأنبياء على كلامه فما وافقه منها قلبوه، وما خالفه لم يعبأوا به شيئا.

ويسمونه المعلم الأول، لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية، كما أن الخليل بن أحمد أول من وضع عروض الشعر، وزعم أرسطو وأتباعه أن المنطق ميزان المعاني، كما أن العروض ميزان الشعر.

وقد بين نظار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه، وتعويجه للعقول، وتخبيطه للأذهان، وصنفوا في رده وتهافته كثيرا.

وآخر من صنف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، ألف في رده وإبطاله كتابين، كبيرا، وصغيرا، بين فيه تناقضه وتهافته وفساد كثير من أوضاعه.

ورأيت فيه تصنيفا لأبى سعيد السيرافي(١).

---

(١) هو: أبو سعيد، الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، صاحب التصانيف، ونحوي بغداد، من مؤلفاته: "الإقناع" في النحو، "البلاغة"، "شرح كتاب سيبويه" مات في رجب سنة ثمان وستين وثلاث مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٤٧/١٦).

والمقصود: أن الملاحدة درجت على أثر هذا المعلم الأول، حتى انتهت نوبتهم إلى معلمهم الثاني: أبى نصر الفارابي[١]. فوضع لهم التعاليم الصوتية، كما أن المعلم الأول وضع لهم التعاليم الحرفية، ثم وسع الفارابي الكلام في صناعة المنطق، وبسطها وشرح فلسفة أرسطو وهذبها، وبالغ في ذلك. وكان على طريقة سلفه: من الكفر بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر[٢].

فكل فيلسوف لا يكون عند هؤلاء كذلك فليس بفيلسوف في الحقيقة. وإذا رأوه مؤمنا بالله وملائكته، وكتبه ورسله، ولقائه، متقيدا بشريعة الإسلام، نسبوه إلى الجهل والغباوة، فإن كان ممن لا يشكون في فضيلته ومعرفته، نسبوه إلى التلبيس والتنميس بناموس الدين استمالة لقلوب العوام.

فالزندقة والإلحاد عند هؤلاء جزء من مسمى الفضيلة، أو شرط.

---

(١) هو: محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابيّ، ويعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول)، قال ابن كثير: (وله مذاهب في ذلك يخالف المسلمين والفلاسفة من سلفه الأقدمين، فعليه إن كان مات على ذلك لعنة رب العالمين. . . ولم أر الحافظ ابن عساكر ذكره في تاريخه ؛ لنتنه وقباحته). من مؤلفاته: المدخل إلى صناعة الموسيقى آراء أهل المدينة الفاضلة المدخل إلى صناعة الموسيقى مات سنة ٣٣٩هـ. انظر: البداية والنهاية (٢٠٧/١٥)، والأعلام للزركلي (٢٠/٧).

(٢) انظر: المنقذ من الضلال للغزالي ص (١٣٧) و (١٨٩)، تهافت الفلاسفة للغزالي ص (٢٨٢).

ولعل الجاهل يقول: إنا تحاملنا عليهم في نسبة الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله إليهم، وليس هذا من جهله بمقالات القوم، وجهله بحقائق الإسلام بعيد.

فاعلم أن الله – سبحانه وتعالى عما يقولون عندهم كما قرره أفضل متأخريهم، ولسانهم، وقدوتهم الذى يقدمونه على الرسل: أبو على بن سينا: هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق. وليس له عندهم صفة ثبوتية تقوم به، ولا يفعل شيئا باختياره ألبتة ولا يعلم شيئا من الموجوادت أصلا، لا يعلم عدد الأفلاك، ولا شيئا من المغيبات. ولا له كلام يقوم به، ولا صفة.

ومعلوم أن هذا إنما هو خيال مقدر في الذهن، لا حقيقة له، وإنما غايته أن يفرضه الذهن ويقدره، كما يفرض الأشياء المقدرة، وليس هذا هو الرب الذى دعت إليه الرسل وعرفته الأمم، بل بين هذا الرب الذى دعت إليه الملاحدة وجردته عن الماهية، وعن كل صفة ثبوتية، وكل فعل اختياري، وأنه لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل به، ولا مباين له ولا فوقه ولا تحته، ولا أمامه ولا خلفه، ولا عن يمينه ولا عن شماله – وبين رب العالمين، وإله المرسلين، ومن الفرق ما بين الوجود والعدم، والنفي والإثبات.

فأي موجود فرض كان أكمل من هذا الإله، الذى دعت إليه الملاحدة، ونحتته أفكارهم، بل منحوت الأيدي من الأصنام له وجود، وهذا الرب ليس له وجود، ويستحيل وجوده إلا في الذهن.

هذا، وقول هؤلاء الملاحدة أصلح من قول معلمهم الأول أرسطو، فإن هؤلاء أثبتوا وجودا واجباً ممكنا، هو معلول له وصادر عنه صدور المعلول عن العلة، وأما أرسطو فلم يثبته إلا من جهة كونه مبدأ عقليا للكثرة، وعلة غائية لحركة الفلك فقط، وصرح بأنه لا يعقل شيئا، ولا يفعل باختياره.

وأما هذا الذى يوجد في كتب المتأخرين من حكاية مذهبه، فإنما هو من وضع ابن سينا، فإنه قرب مذهب سلفه الملاحدة من دين الإسلام بجهده، وغاية ما أمكنه أن قربه من أقوال الجهمية الغالين في التجهم، فهم في غلوهم في تعطيلهم ونفيهم أشد مذهبا وأصح قولا من هؤلاء.

فهذا ما عند هؤلاء من خبر الإيمان بالله عز وجل...

وأما الرسل والأنبياء، فللنبوة عندهم ثلاث خصائص، من استكملها فهو نبي:

أحدها: قوة الحدس، بحيث يدرك الحد الأوسط بسرعة.

الثانية: قوة التخيل والتخييل، بحيث يتخيل في نفسه أشكالا نورانية تخاطبه، ويسمع الخطاب منها، ويخيلها إلى غيره.

الثالثة: قوة التأثير بالتصرف في هيولي العالم. وهذا يكون عندهم بتجرد النفس عن العلائق، واتصالها بالمفارقات، من العقول والنفوس المجردة(١).

وهذه الخصائص تحصل بالاكتساب. ولهذا طلب النبوة من تصوف على مذهب هؤلاء كابن سبعين، وابن هود، وأضرابهما. والنبوة عند هؤلاء صنعة من الصنائع، بل من أشرف الصنائع، كالسياسة، بل هي سياسة العامة، وكثير منهم لا يرضى بها، ويقول: الفلسفة: نبوة الخاصة. والنبوة: فلسفة العامة.

وأما الإيمان باليوم الآخر، فهم لا يقرون بانفطار السماوات، وانتثار الكواكب، وقيامة الأبدان، ولا يقرون بأن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأوجد هذا العالم بعد عدمه.

فلا مبدأ عندهم، ولا معاد، ولا صانع، ولا نبوة، ولا كتب نزلت من السماء، تكلم الله بها، ولا ملائكة تنزلت بالوحى من الله تعالى.

فدين اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خير وأهون من دين هؤلاء.

---

(١) انظر: تهافت الفلاسفة للغزالي ص ٢٣٣-٢٣٤.

وحسبك جهلا بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، من يقول: إنه سبحانه لو علم الموجودات لحقه الكلال والتعب، واستكمل بغيره، وحسبك خذلانا وضلالا وعمى: السير خلف هؤلاء، وإحسان الظن بهم، وأنهم أولو العقول.

وحسبك عجبا من جهلهم، وضلالهم: ما قالوه في سلسلة الموجودات، وصدور العالم عن العقول والنفوس، إلى أن أنهوا صدور ذلك إلى واحد من كل جهة، لا علم له بما صدر عنه ولا قدرة له عليه، ولا إرادة، وأنه لم يصدر عنه إلا واحد، فذلك الصادر إن كان فيه كثرة بوجه ما فقد بطل ما أَصَّلوه، وإن لم يكن فيه كثرة ألبتة لزم أن لا يصدر عنه إلا واحد مثله، وتكثر الموجودات وتعددها يكذب هذا الرأي الذى هو ضحكة للعقلاء وسخرية لأولى الألباب، مع أن هذا كله من تخليط ابن سينا، وإرادته تقريب هذا المذهب من الشرائع، وهيهات، وإلا فالمعلم الأول لم يثبت صانعا للعالم البتة.

والرجل معطل مشرك، جاحد للنبوات والمعاد، لا مبدأ عنده ولا معاد، ولا رسول ولا كتاب والرازي وفروخه لا يعرفون مذهب الفلاسفة غير طريقه.

ومذاهبهم وآراؤهم كثيرة جدا، قد حكاها أصحاب المقالات، كالأشعري في مقالاته الكبيرة، وأبى عيسى الوراق، والحسن بن موسى النوبختي.

وأبو الوليد بن رشد يحكى مذهب أرسطو غير ما حكاه ابن سينا، ويغلطه في كثير من المواضع، وكذلك أبو البركات البغدادي يحكى نفس كلامه على غير ما يحكيه ابن سينا) [(١)].

ثم أخذ ابن القيم – رحمه الله – يذكر اختلاف الفلاسفة فيما بينهم في الآراء بدءا بملاحدتهم، وسماهم بأهل التعطيل المحض حيث عطلوا المصنوع عن الصانع وعطلوا الصانع عن صفة كماله.

(ولا تكاد تجد منهم اثنين متفقين على رأي واحد بل قد تلاعب بهم الشيطان كتلاعب الصبيان بالكرة ومقالاتهم أكثر من أن نذكرها على التفصيل

وبالجملة: فملاحدتهم هم أهل التعطيل المحض فإنهم عطلوا الشرائع وعطلوا المصنوع عن الصانع وعطلوا الصانع عن صفات كماله وعطلوا العالم عن الحق الذي خلق له وبه فعطلوه عن مبدئه ومعاده وعن فاعله وغايته ثم

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٥٩-٢٦٣).

سرى هذا الداء منهم في الأمم وفي فرق المعطلة فكان منهم إمام المعطلين فرعون فإنه أخرج التعطيل إلى العمل وصرح به وأذن به بين قومه ودعا إليه وأنكر أن يكون لقومه إله غيره وأنكر أن يكون الله تعالى فوق سمواته على عرشه وأن يكون كلم عبده موسى تكليما وكذب موسى في ذلك وطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحا ليطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام وكذبه في ذلك فاقتدى به كل جهمي فكذب أن يكون الله مكلما مكلما أو أن يكون فوق سمواته على عرشه بائنا من خلقه على العرش استوى ودرج قومه وأصحابه على ذلك حتى أهلكهم الله تعالى بالغرق وجعلهم عبرة لعباده المؤمنين ونكالا لأعدائه المعطلين ثم استمر الأمر على عهد نبوة موسى كليم الرحمن على التوحيد وإثبات الصفات وتكليم الله لعبده موسى تكليما إلى أن توفى موسى عليه السلام) [١].

من خلال كلام ابن القيم السابق عن الفلسفة والفلاسفة عرفنا معنى الفلسفة لغة واصطلاحاً عند ابن القيم وغيره، وكذلك عرفنا تفاوت الفلاسفة فيما بينهم تجاه العقائد، ثم عرفنا كذلك أبرز مقالاتهم واعتقاداتهم، وأنهم مختلفون فيما بينهم، فأرسطوا أول من قال بقدم العالم خلافاً لمن سبقه

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٦٨-٢٧٠).

حيث قالوا بحدوث العالم، وتبين لنا كذلك أن الفلاسفة ليسوا مختصين باليونانيين ولا بغيرهم وإنما لكل أمة فلاسفتها وعلماؤها.

وأخيراً عرفنا أن فرعون هو إمام المعطلين الملاحدة.

المبحث الثاني:

بيان موقف ابن القيم من الفلاسفة

بعد أن انتهينا من المبحث الأول والذي فيه تعريف الفلسفة في اللغة والاصطلاح عند ابن القيم وغيره، وتعرفنا على أبرز مقالاتهم في الاعتقاد، واختلافاتهم فيما بينهم فيما يتعلق بالله وبوجوده، سأذكر في هذا المبحث موقف ابن القيم - رحمه الله - من هؤلاء الفلاسفة:

فأقول وبالله التوفيق: إن الناظر في كلام ابن القيم - رحمه الله - يجد له موقفاً شديداً من الفلاسفة فقد فضحهم وكشف أستارهم وبين عوارهم، قام بنقض منهجهم في الاستدلال. ووصفهم بأنهم زنادقة وضلال فقال رحمه الله: (أما الزنادقة الفلاسفة فإنهم أثبتوا للعالم صانعا لفظا لا معنى، ثم لبسوا على الناس، وقالوا: إن العالم صنعه وفعله وخلقه، ثم هو في الحقيقة عندهم غير مصنوع ولا مخلوق ولا مفعول، ولا يمكن على أصلهم أن يكون العالم مخلوقا ولا مفعولا)[1].

ثم بدأ ابن القيم في الرد على مذهب الفلاسفة الملحدين المعطلين للنصوص الشرعية وبالأدلة العقلية فقال - رحمه الله -: (وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين فقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ١٤٨).

وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[١] يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم، وأنه لم يزل وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازما لذاته أولا وأبدا، غير مخلوق كما هو قول ابن سينا، والنصير الطوسي، وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل - عليهم الصلاة والسلام- والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٢] يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون ليس على العرش شيء سوى العدم وأن الله ليس مستويا على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح عليه الصلاة والسلام إليه، ولا عرج برسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - إليه، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل - عليه الصلاة والسلام - ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عيانا بأبصارهم من فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق، كما أشار إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - في أعظم مجامعه في حجة الوداع،

---

(١) سورة الفرقان: ٥٩.

(٢) سورة الفرقان: ٥٩.

وجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إلى الناس ويقول: «اللهم اشهد»[(١)])[(٢)].

وقال – رحمه الله –: (فأما توحيد الفلاسفة فهو إنكار ماهية الرب الزائدة على وجوده، وإنكار صفات كماله، وأنه لا سمع له، ولا بصر، ولا قدرة، ولا حياة، ولا إرادة، ولا كلام، ولا وجه، ولا يدين، وليس فيه معنيان متميز أحدهما عن الآخر البتة، قالوا: لأنه لو كان كذلك لكان مركبا، وكان جسما مؤلفا، ولم يكن واحدا من كل وجه، فجعلوه من جنس الجوهر الفرد الذي لا يحس ولا يرى ولا يتميز منه جانب عن جانب، بل الجوهر الفرد يمكن وجوده.

وهذا الواحد الذي جعلوه حقيقة رب العالمين يستحيل وجوده، فلما اصطلحوا على هذا المعنى في التوحيد وسمعوا قوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[(٣)] وقوله: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[(٤)]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٨٦) رقم (١٢١٨).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/٩٥-٩٦).

(٣) سورة البقرة: ١٦٣.

(٤) سورة المائدة: ٧٣.

نزلوا لفظ القرآن على هذا المعنى الاصطلاحي، وقالوا: لو كان له صفة أو كلام أو مشيئة أو علم أو حياة أو قدرة أو سمع أو بصر لم يكن واحدا وكان مركبا مؤلفا، فسموا أعظم التعطيل بأحسن الأسماء، وهو التوحيد، وكسوه ثوبه، وسموا أصح الأشياء وأحقها بالثبوت وهو صفات الرب ونعوت كماله بأقبح الأسماء، وهو التركيب[١] والتأليف، فتولد من بين هذه التسمية المنكرة للمعنى الصحيح وتلك التسمية الصحيحة للمعنى الباطل جحد حقائق أسماء الرب وصفاته، بل وجحد ماهيته وذاته، وتكذيب رسله، ونشأ من نشأ على اصطلاحهم من إعراضه عن استفادة الهدى والحق من الوحي، فلم يعرف سوى الباطل الذي اصطلحوا عليه، فجعله أصلا لدينه، فلما رأى ما جاءت به الرسل يعارضه قال: إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل)[٢].

واستمر ابن القيم - رحمه الله - في الرد على الفلاسفة مسفهاً آرائهم ومبطلا حججهم بالأدلة النقلية والعقلية، والذي يبرز فيه موقفه - رحمه الله - منهم:

---

(١) معنى التركيب عند الفلاسفة: «أنه لو كان له صفة لكان مركباً، والمركب يفتقر إلى جزئيه، وجزءاه غيره، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجباً بنفسه». العرش للذهبي (٦١/١).

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ٩٢٩/٣- ٩٣١.

قال – رحمه الله –: (فيا للعقول التي لم يخسف بها! أين الدين من الفلسفة؟! وأين كلام رب العالمين إلى آراء اليونان والمجوس وعباد الأصنام والصابئين؟! وأين المعقولات المؤيدة بنور النبوة إلى المعقولات المتلقاة عن أرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا وأتباع هؤلاء؟! ممن لا يؤمن بالله، ولا صفاته، ولا أفعاله، ولا ملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر! وأين العلم المأخوذ عن الوحي النازل من عند رب العالمين من الشبه المأخوذة عن آراء المتهوكين والمتحيرين؟ فإن أدلوا بالعقل فلا عقل أكمل من عقول ورثة الأنبياء، وإن أدلوا برؤسائهم وأئمتهم، كفرعون، ونمرود(١)، وبطليموس(٢)، وأرسطاليس، ومقلدتهم، وأتباعهم، فلم يزل أعداء الرسل يعارضونهم، فهؤلاء وأمثالهم يقدمون عقولهم على ما جاءوا به. ويالله العجب كيف يعرض قول الرسول بقول الفيلسوف، وعلى الفيلسوف أن يتبع الرسل،

---

(١) هو: ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وكان أحد ملوك الدنيا، استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان قد طغا وبغا وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا، ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الإمهال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية. انظر: البداية والنهاية (١/٣٤٢-٣٤٣).

(٢) هو: بطليموس كلوديوس بطليموس، يوناني مصري، نشأ في الأسكندرية في الربع الثاني من القرن الثاني الميلادي عالم من علماء الفلك والجغرافيا والرياضة، من كتبه: "المجسطي" في علم الفلك والرياضة. انظر: أخبار الحكماء (٦٧-٦٨).

وليس على الرسل أن تتبع الفيلسوف، فالرسول مبعوث، والفيلسوف مبعوث إليه، والوحي حاكم، والعقل محكوم عليه، ولو كان العقل يكتفي به لم يكن للوحي فائدة ولا غنى) (١).

ثم استمر ابن القيم - رحمه الله - تعالى في الرد على الفلاسفة في فلسفتهم، تجاه مقصود الشرائع الربانية، حيث خبّطوا في هذه المقاصد، فقسموها أقساماً من عند أنفسهم تقوّلا على الله وكذباً عليه فقال - رحمه الله -: (فصل وأما ما ذكره الفلاسفة من مقصود الشرائع، وان ذلك لاستكمال النفس قوى العلم والعمل، والشرائع تُردُّ بتمهيد ما تقرر في العقل بتعبيره إلي آخره، فهذا مقام يجب الاعتناء بشأنه، وأن لا نضرب عنه صفحا فنقول: للناس في المقصود بالشرائع والأوامر والنواهي أربعة طرق:

أحدها: طريق من يقول من الفلاسفة وأتباعهم من المنتسبين إلى الملل: إن المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس وتعديلها؛ لتستعد بذلك لقبول الحكمة العلمية والعملية، ومنهم من يقول: لتستعد بذلك، لأن تكون محلا لانتقاش صور المعقولات فيها ففائدة ذلك عندهم كالفائدة الحاصلة من صقل المرآة لتستعد لظهور الصور فيها، وهؤلاء يجعلون الشرائع من جنس

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/٨١٦-٨١٧).

الأخلاق الفاضلة، والسياسات العادلة، ولهذا رام فلاسفة الإسلام الجمع بين الشريعة والفلسفة، كما فعل ابن سينا، والفارابي، واضرابهما، وآل بهم أن تكلموا في خوارق العادات، والمعجزات، على طريق الفلاسفة المشائين، وجعلوا لها أسبابا ثلاثة:

أحدها: القوى الفلكية، والثاني: القوى النفسية، والثالث: القوى الطبيعية، وجعلوا جنس الخوارق جنسا واحدا، وأدخلوا ما للسحرة وأرباب الرياضة والكهنة وغيرهم مع ما للأنبياء والرسل في ذلك، وجعلوا سبب ذلك كله واحدا، وان اختلفت بالغايات، والنبي قصده الخير، والساحر قصده الشر، وهذا المذهب من أفسد مذاهب العالم وأخبثها، وهو مبني على إنكار الفاعل المختار، وأنه تعالى لا يعلم الجزئيات، ولا يقدر على تغيير العالم، ولا يخلق شيئا بمشيئته وقدرته، وعلى إنكار الجن، والملائكة، ومعاد الأجسام، وبالجملة فهو مبني على الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وليس هذا موضوع الرد هنا على هؤلاء، وكشف باطلهم وفضائحهم، إذ المقصود ذكر طرق الناس في المقصود بالشرائع والعبادات، وهذه الفرقة غاية ما عندها في العبادات والأخلاق والحكمة العلمية أنهم رأوا النفس لها شهوة وغضب بقوتها العملية، ولها تصور وعلم بقوتها العلمية، فقالوا كمال الشهوة في العفة، وكمال الغضب في الحكم والشجاعة،

وكمال القوة النظرية بالعلم، والتوسط في جميع ذلك بين طرفي الإفراط والتفريط هو العدل.

هذا غاية ما عند القوم من المقصود بالعبادات والشرائع، وهو عندهم غاية كمال النفس، وهو استكمال قوتها العلمية والعملية، فاستكمال قوتها العلمية عندهم بانطباع صور المعلومات في النفس، واستكمال قوتها العملية بالعدل، وهذا مع أنه غاية ما عندهم من العلم والعمل، وليس فيه بيان خاصية النفس التي لا كمال لها بدونه البتة، وهو الذي خلقت له، وأريد منها، بل ما عرفه القوم؛ لأنه لم يكن عندهم من معرفة متعلقة إلا نزر يسير غير مجد ولا محصل للمقصود، وذلك معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة ما ينبغي لجلاله وما يتعالى ويتقدس عنه، ومعرفة أمره ودينه، والتمييز بين مواقع رضاه وسخطه، واستفراغ الوسع في التقريب إليه، وامتلاء القلب بمحبته، بحيث يكون سلطان حبه قاهرا لكل محبة، ولا سعادة للعبد في دنياه ولا أخراه إلا بذلك، ولا كمال للروح بدون ذلك ألبتة وهذا هو الذي خلق له، بل وأريد منه، بل ولأجله خلقت السماوات والأرض، واتخذت الجنة والنار، كما سيأتي تقريره من أكثر من مائة وجه إن شاء الله. . .)[1].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/١١٨-١١٩).

المبحث الثالث:

ذكر مواقف أبرز أهل العلم من الفلاسفة

بعدما انتهينا من المبحث الثاني وهو موقف ابن القيم من الفلاسفة، ننتقل في هذا المبحث إلى موقف أبرز أهل العلم الربانيين من الفلاسفة، فقد أطبق أهل العلم على التحذير من العلوم الضارة ومنها الفلسفة، وحذروا من أربابها ومحدثيها، فقد سئل الإمام أبو حنيفة – رحمه الله –: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: (مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة) [(١)].

ونقل الشاطبي[(٢)] – رحمه الله –: قول أبي حامد الغزالي فقال: (قال أبو حامد الغزالي: ينبغي أن يعرف الإنسان أن رتبة هذه الفرقة هي أخس من رتبة كل فرقة من فرق الضلال، إذ لا تجد فرقة تنقض مذهبها بنفس المذهب سوى هذه التي هي الباطنية، إذ مذهبها إبطال النظر، وتغيير الألفاظ عن موضوعاتها، بدعوى الرمز، وكل ما يتصور أن تنطق به ألسنتهم، فإما نظر أو نقل، أما النظر؛ فقد أبطلوه، وأما النقل؛ فقد جوزوا أن يراد باللفظ غير موضوعه، فلا يبقى لهم معتصم، والتوفيق بيد الله) [(٣)].

---

(١) ذم الكلام وأهله للهروي٥/٢٠٦- ٢٠٦.

(٢) هو: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي: أصولي حافظ. من أهل غرناطة. كان من أئمة المالكية. من كتبه (الموافقات في أصول الفقه"، "الاعتصام"، توفي سنة ٧٩٠هـ. انظر: معجم المؤلفين (١/١١٨)، الأعلام للزركلي (١/٧٥).

(٣) الاعتصام (١/٣٢٤ – ٣٢٥).

وقال ابن الجوزي – رحمه الله –: (ذكر تلبيسه على الفلاسفة وتابعيهم:

إنما تمكن إبليس من التلبيس على الفلاسفة من جهة أنهم انفردوا بآرائهم وعقولهم، وتكلموا بمقتضى ظنونهم، من غير التفات إلى الأنبياء، فمنهم من قال بقول الدهرية: أن لا صانع للعالم. . . وأنكروا الصانع، وأكثرهم أثبت علة قديمة للعالم، ثم قال بقدم العالم، وأنه لم يزل موجودا مع الله تعالى ومعلولا له، ومساويا غير متأخر عنه بالزمان، مساواة المعلول للعلة، والنور للشمس، بالذات والرتبة، لا بالزمان فيقال لهم: لم أنكرتم أن يكون العالم حادثا بإرادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه فإن قالوا: فهذا يوجب أن يكون بين وجود الباري وبين المخلوقات زمان. قلنا: الزمان مخلوق، وليس قبل الزمان زمان، ثم يقال لهم: كان الحق سبحانه قادرا على أن يجعل سمك الفلك الأعلى أكثر مما هو بذراع أو أقل مما هو بذراع؟ فإن قالوا: لا يمكن فهو تعجيز، ولأن ما لا يمكن أن يكون أكبر منه ولا أصغر فوجوده على ما هو عليه واجب لا ممكن، والواجب يستغني عن علة، وقد ستروا مذهبهم بأن قالوا الله عز وجل صانع العالم، وهذا تجوز عندهم لا حقيقة، لأن الفاعل مريد لما يفعله، وعندهم أن العالم ظهر ضروريا، لا أن الله فعله، ومن مذاهبهم أن العالم باق أبدا، كما لا بداية لوجوده فلا نهاية، قالوا: لأنه معلول علة قديمة، وكان المعلول مع العلة، ومتى كان العالم ممكن

الوجود لم يكن قديما ولا معلولا، وقد قال جالينوس[١] لو كانت الشمس مثلا تقبل الانعدام لظهر فيها ذبول في هذه المدة الطويلة، فيقال له: قد يفسد الشيء بنفسه بغتة لا بالذبول، ثم من أين له أنها لا تذبل؟ فإنها عندهم بمقدار الأرض مائة وسبعين مرة أو نحو ذلك، فلو نقص منها مقدار جبل لم يبن ذلك للحس، ثم نحن نعلم أن الذهب والياقوت يقبلان الفساد، وقد يبقيان سنين ولا يحس نقصانهما، وإنما الإيجاد والإعدام بإرادة القادر، والقادر لا يتغير في نفسه، ولا تحدث له صفة وإنما يتغير الفعل بإرادة قديمة. . . وقد ذهب أكثر الفلاسفة إلى أن الله تعالى لا يعلم شيئا، وإنما يعلم نفسه، وقد ثبت أن المخلوق يعلم نفسه، ويعلم خالقه، فقد زادت مرتبة المخلوق على رتبة الخالق!

قال المصنف: وهذا أظهر فضيحة من أن يتكلم عليه، فانظر إلى ما زينه إبليس لهؤلاء الحمقى، مع ادعائهم كمال العقل، وقد خالفهم أبو علي بن سيناء في هذا، فقال: بل يعلم نفسه ويعلم الأشياء الكلية، ولا يعلم

(١) جالينوس: طبيب من أشهر الأطباء المؤثرين في تاريخ الطب. اكتشف أن الشرايين الأورطية تحتوي على الدم، لا على مادة تشبه الهواء تدعى الهواء المضغوط كما كان يُظن. وقد قام بتشريح القردة، والخنازير وبعض الحيوانات الأخرى، وأسس علم التشريح المقارن كحقل من حقول التشريح. انظر: تاريخ مختصر الدول لغريغوريوس ص (٧٢)، الموسوعة العربية العالمية (١٣٧/٨).

الجزئيات، وتلقف هذا المذهب منهم المعتزلة، وكأنهم استكثروا المعلومات، فالحمد لله الذي جعلنا ممن ينفي عن الله الجهل والنقص، ونؤمن بقوله: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾(١) وقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾(٢) وذهبوا إلى أن علم الله وقدرته، هو ذاته فرارا من أن يثبتوا قديمين، وجوابهم أن يقال: إنما هو قديم موجود واحد، موصوف بصفات الكمال) (٣).

ثم قال – رحمه الله – راداً على الفلاسفة في إنكارهم للبعث، وزعمهم أن النفس تبقى بعد الموت بقاء سرمديا: (يقال لهم: نحن لا ننكر وجود النفس بعد الموت، ولذلك سمي عودها إعادة، ولا أن لها نعيما وشقاء، ولكن ما المانع من حشر الأجسام ولم ننكر اللذات والآلام الجسمانية في الجنة والنار؟ وقد جاء الشرع بذلك، فنحن نؤمن بالجمع بين السعادتين، وبين الشقاوتين الروحانية والجسمانية، وأما الحقائق في مقام الأمثال فتحكم بلا دليل، فإن قالوا: الأبدان تنحل وتؤكل وتستحيل، قلنا: القدرة لا يقف بين يديها شيء، على أن الإنسان إنسان بنفسه، فلو صنع له البدن من تراب غير

---

(١) سورة الملك: ١٤.

(٢)سورة الأنعام: ٥٩

(٣)تلبيس إبليس (ص٤٣، ٤٧).

التراب الذي خلق منه لم يخرج عن كونه هو هو، كما أنه تتبدل أجزاؤه من الصغر إلى الكبر، وبالهزال والسمن، فإن قالوا: لم يكن البدن بدنا حتى يرقى من حالة إلى حالة، إلى أن صار لحما وعروقا، قلنا: قدرة الله - سبحانه وتعالى - لا تقف على المفهوم المشاهد، ثم قد أخبرنا نبينا - صلى الله عليه وسلم - أن الأجسام تنبت في القبور قبل البعث، . . . عن أبي هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوما قال: أبيت قالوا: أربعون شهرا؟ قال أبيت قالوا أربعون سنة؟ قال: أبيت قال «ثم ينزل الله ماء من السماء فينبتون كما ينبت البقل قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب، منه خلق، ومنه يركب الخلق يوم القيامة» أخرجاه في الصحيحين[(1)])[(2)].

ثم قال - رحمه الله - في سبب ضلال الفلاسفة في الإلهيات، وأمور الغيب: (وهؤلاء كانت لهم علوم هندسية، ومنطقية، وطبيعية، واستخرجوا بفطنهم أمور خفية إلا أنهم لما تكلموا في الالهيات خلطوا، ولذلك اختلفوا فيها ولم يختلفوا في الحسيات، والهندسيات، وقد ذكرنا جنس تخليطهم في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٥/٦) رقم (٤٩٣٥)، ومسلم في صحيحه (٢٢٧٠/٤) رقم (٢٩٥٥).

(٢)تلبيس إبليس (ص٤٣، ٤٧).

معتقداتهم، وسبب تخليطهم أن قوى البشر لا تدرك العلوم إلا جملة، والرجوع فيها إلى الشرائع)[١].

ونقل ابن القيم – رحمه الله – عن شيخ الإسلام ابن تيمية قول أبي حامد الغزالي عن الفلسفة والفلاسفة، وما قام عليه مذهبهم من الظنون الكاذبة، والترهات الباطلة وبين كفرهم بسبب مسألة قدم العالم، وإنكار العلم بالجزئيات وإنكار المعاد: (قال أبو حامد الغزالي عن الفلسفة: هي بين علوم صادقة لا منفعة فيها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع، وبين ظنون كاذبة لا ثقة بها، وإن بعض الظن إثم؛ فإن ما يقوم عليه الدليل، من الرياضي ونحوه، كثير التعب قليل الفائدة، لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى، وما لم يقم عليه الدليل فظنون وأباطيل)[٢].

وقال شيخ الإسلام عن أبي حامد الغزالي: (وصنف كتابا سماه "القسطاس المستقيم"، ذكر فيه خمس موازين: الثلاث الحمليات؛ والشرطي المتصل، والشرطي المنفصل. وغير عباراتها إلى أمثلة أخذها من كلام المسلمين وذكر أنه خاطب بذلك بعض أهل التعليم، وصنف كتابا في

---

(١) تلبيس إبليس (ص٤٣، ٤٧)، وانظر: محك النظر في علم المنطق للغزالي ص (٢٣٥)، ومعيار العلم في فن المنطق ص (١٢١).

(٢) درء التعارض (٧١/٥).

تهافتهم، وبين كفرهم بسبب مسألة قدم العالم وإنكار العلم بالجزئيات وإنكار المعاد؛ وبين في آخر كتبه؛ أن طريقهم فاسدة، لا توصل إلى يقين، وذمها أكثر مما ذم طريقة المتكلمين. وكان أولا يذكر في كتبه كثيرا من كلامهم: إما بعبارتهم، وإما بعبارة أخرى. ثم في آخر أمره بالغ في ذمهم، وبين أن طريقهم متضمنة من الجهل والكفر ما يوجب ذمها وفسادها أعظم من طريق المتكلمين) [(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (ولهذا قالوا: الفلسفة هي التشبه بالإله على قدر الطاقة، ولهذا كان مطلوب هؤلاء إنما هو نوع من العلم والقدرة الذي يحصل لهم به شرف، فمطلوبهم من جنس مطلوب فرعون، بخلاف الحنفاء الذين يعبدون الله محبة له وذلا له،

وهم أيضا لا يثبتون معرفة تحصل بها النجاة والسعادة بعد الموت، بل المعروف عندهم وجود مطلق، أو مقيد بالسلوب، ولا يثبتون بعد الموت تجدد نظر إليه، إذ المفارقات عندهم ليس فيها حركة أصلا لا من الناظر ولا من المنظور إليه، وهو خلاف ما دلت عليه الدلالة الشرعية والعقلية) [(٢)].

---

(١) الفتاوى (١٨٤/٩ - ١٨٥)، وانظر: معيار العلم في فن المنطق للغزالي ص (١١١).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (١٣٢/٣).

ونقل ابن القيم – رحمه الله – عن شيخ الإسلام عن هؤلاء المتفلسفة أن مذهبهم راج على ضعيفي العقل والدين كالقرامطة والباطنية، وجهال المتصوفة وأهل الكلام فقال: (ولهذا كان هؤلاء المفلسفة إنما راجوا على أبعد الناس عن العقل والدين: كالقرامطة، والباطنية، الذين ركبوا مذهبهم من فلسفة اليونان، ودين المجوس، وأظهروا الرفض، وكجهال المتصوفة وأهل الكلام، وإنما ينفقون في دولة جاهلية بعيدة عن العلم والايمان، إما كفارا وإما منافقين كما نفق منهم من نفق على المنافقين الملاحدة، ثم نفق على المشركين الترك وكذلك إنما ينفقون دائما على أعداء الله ورسوله من الكفار والمنافقين)(١).

وأجاب ابن الصلاح(٢) – رحمه الله – عن مسألة حكم تعلم المنطق والفلسفة وتعليمهما والانشغال بهما عما ينفع في الدين والدنيا فقال: (الفلسفة رأس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن

---

(١) الرد على المنطقيين (ص١٨٧).

(٢) هو: تقي الدين أبو عمرو عثمان بن صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الموصلي الشافعي، الامام الحافظ العلامة شيخ الاسلام، مولده في سنة سبع وسبعين وخمس مئة، وكان تقي الدين أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه، وله مشاركة في عدة فنون، وكانت فتاويه مسددة، توفي سنة ثلاث وأربعين وست مئه. سير أعلام النبلاء (١٤٠/٢٣).

تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج الظاهرة، والبراهين الباهرة، ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأي فن أخزى من فن يعمي صاحبه، أظلم قلبه عن نبوة نبينا – صلى الله عليه و سلم كلما ذكره ذاكر وكلما غفل عن ذكره غافل – مع انتشار آياته المستبينة، ومعجزاته المستنيرة، حتى لقد انتدب بعض العلماء لاستقصائها، فجمع منها ألف معجزة، وعددناه مقصرا، إذ هي فوق ذلك بأضعاف لا تحصى فإنها ليست محصورة على ما وجد منها في عصره – صلى الله عليه و سلم – بل لم تزل تتجدد بعده – صلى الله عليه و سلم – على تعاقب العصور...

وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين، والسلف الصالحين، وسائر من يقتدي به من أعلام الأئمة وسادتها، وأركان الأمة وقادتها، قد برأ الله الجميع من معرة ذلك وأدناسه، وطهرهم من أوضاره،

وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة، والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية، والحمد لله، فالافتقار إلى المنطق أصلا وما يزعمه المنطقي للمنطق من أمر

الحد والبرهان فقد أغنى الله عنها بالطريق الأقوم، والسبيل الأسلم الأطهر كل صحيح الذهن، لا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية، ولقد تمت الشريعة وعلومها، وخاض في بحار الحقائق والدقائق علماؤها، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة، ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها، فقد خدعه الشيطان، ومكر به، فالواجب على السلطان -أعزه الله وأعز به الإسلام وأهله - أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم، ويخرجهم من المدارس، ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الاسلام، لتخمد نارهم، وتنمحي آثارها وآثارهم، يسر الله ذلك وعجله، ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها، ثم سجنه وألزامه منزله، ومن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم فإن حاله يكذبه، والطريق في قلع الشر قلع أصوله وانتصاب مثله مدرسا من العظائم جملة، والله تبارك وتعالى ولي التوفيق والعصمة وهو أعلم)[١].

وخلاصة هذا المبحث: أننا عرفنا موقف أبرز العلماء الذين ردوا على الفلاسفة وأبطلوا شبههم كأبي حنيفة، وابن الجوزي، وأبي حامد الغزالي،

---

(١) أدب المفتي والمستفتي، (١/٢٠٩).

والشاطبي، وابن الصلاح وشيخ الإسلام ابن تيمية، واتفقوا على إنكار مقالاتهم، وتسفيهها وكشف عوارها بالرد عليها من النصوص الشرعية والأدلة العقلية، وحكموا عليهم أنهم كفار ملحدون حيث كانوا يعتقدون بقدم العالم، وإنكار المعاد، والتكذيب بكتب الله ورسله.

الفصل الثاني:

موقف ابن القيم - رحمه الله - من ملاحدة الدهرية.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالدهرية وأبرز مقالاتهم.

المبحث الثاني: بيان موقف ابن القيم من الدهرية.

المبحث الثالث: ذكر مواقف أبرز أهل العلم من الدهرية.

المبحث الأول:

التعريف بالدهرية وأبرز مقالاتهم

قد مر بنا في الفصل السابق بمباحثه الثلاثة التعريف بالفلاسفة ومقالاتهم، وموقف ابن القيم من الفلاسفة، وموقف أبرز العلماء من الفلاسفة، وفي هذا الفصل سأذكر التعريف بالدهرية، وأبرز مقالاتهم، ثم موقف ابن القيم من الدهرية، ثم موقف أبرز العلماء من الدهرية.

ودراسة الدهرية من الأهمية بمكان؛ حيث أن ملاحدة العصر الحاضر ماهم إلا امتداد لهم، وسأبدأ بتعريف الدهرية لغة واصطلاحاً، من واقع كلام أهل اللغة، ثم أعرج إلى ذكر أبرز مقالات الدهرية، وعقائدهم الإلحادية، فأقول وبالله التوفيق:

تعريف الدهرية في اللغة:

الدهرية نسبة إلى الدهر، وهو في اللغة: الزمان أو مدة منه، واختلف أهل اللغة في ذلك.

فقيل: (الدهر: الزمان قل أو كثر، وهما واحد) [(١)].

وقيل: ليسا واحداً؛ بل (يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر، والدهر لا ينقطع، فهما يفترقان)[(٢)].

---

(١) تاج العروس (١١/٣٤٦).

(٢) تاج العروس (١١/٣٤٧).

(وقيل: الدهر هو الزمان الطويل، . . . وقيل: الدهر: ألف سنة. وقال الأزهري: الدهر عند العرب يقع على بعض الدهر الأطول، ويقع على مدة الدنيا كلها.

وفي المفردات للراغب[١]: الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من ابتداء وجوده إلى إنقضائه، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾[٢] يعبر به عن كل مدة كبيرة، بخلاف الزمان، فإنه يقع على المدة القليلة والكثيرة)[٣]. هذا مجمل ما ذكره أهل اللغة في معنى الدهر، وأن المقصود به الزمان، أو مدة منه، وبعد هذا العرض للتعريف اللغوي سأتكلم عن تعريفات العلماء للدهرية في الاصطلاح:

---

(١) هو: أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني، الملقب بالراغب، صاحب التصانيف، كان من أذكياء المتكلمين، من مؤلفاته: "المفردات في غريب القرآن"، "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، توفي سنة ٤٢٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٢٠/١٨)، ومقدمة تحقيق المفردات في غريب القرآن (ص٢٥).

(٢) سورة الإنسان: ١.

(٣) تاج العروس (٣٤٧/١١) بتصرف.

تعريف الدهرية اصطلاحاً:

قال البلخي الخوارزمي[١]: (الدهرية: الذين يقولون بقدم الدهر) [٢].

قال الخطابي: (يقال: رجل دَهري إذا نسب إلى رأي الدهرية، وشيخ دُهري إذا كان معمرا) [٣].

وقال الزبيدي[٤]: (والدهري بالفتح ويضم: الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة، القائل ببقاء الدهر)[٥].

قال الغزالي: (الدهريون: هم طائفة من الأقدمين، جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك، ولم يزل الحيوان

(١) هو: محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الكاتب البلخي الخوارزمي، باحث. من أهل خراسان. له كتاب "مفاتيح العلوم" مات سنة ٣٨٧ هـ. انظر: معجم المؤلفين (٩/٢٩)، الأعلام للزركلي (٥/٣١٢).

(٢) مفاتيح العلوم للبلخي (ص: ٥٥).

(٣) غريب الحديث للخطابي (١/٤٩١).

(٤) هو: محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض، الملقب بمرتضى: علّامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من مؤلفاته: "تاج العروس في شرح القاموس"، "إتحاف السادة المتقين"، " أسانيد الكتب الستة" توفي سنة ١٢٠٥ هـ. انظر: حلية البشر للبيطار ص (١٤٩٢)، الإعلام للزركلي (٧/٧٠).

(٥) تاج العروس (١١/٣٤٩).

من نطفة، والنطفة من حيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبدا، وهؤلاء الزنادقة)[1].

وبهذا يتبين أن العلاقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي للدهرية، علاقة توافقية، إذ كلاهما يراد به الزمان، إلا أنه زِيد في التعريف الاصطلاحي: الذين يقولون بقدم الدهر وهو الزمان.

(١) المنقذ من الضلال للغزالي ص (١٢٨-١٢٩)، وانظر: شرح العقيدة الأصبهانية لشيخ الإسلام (ص٥٨٦).

أبرز مقالات الدهرية:

بعدما عرفنا التعريفين اللغوي والاصطلاحي للدهرية، سنتعرف على أبرز مقالاتهم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وكذلك الدهرية دهرية الفلاسفة وغيرهم، منهم من ينكر الصانع للعالم، كالقول الذي أظهره فرعون لعنه الله، ومنهم من يقر بعلة يتحرك الفلك للتشبه بها، كأرسطو وأتباعه ومنهم من يقول بالموجب بالذات المستلزم للفلك، كابن سينا، والسهروردي[١] المقتول بحلب وأمثالهما من متفلسفة الملل.

وأما مشركو العرب وأمثالهم فكانوا مقرين بالصانع، وبأنه خلق السموات والأرض، فكانت عقيدة مشركي العرب خيرا من عقيدة هؤلاء، الفلاسفة الدهرية، إذ كانوا مقرين بأن هذه السموات مخلوقة لله حادثة بعد أن لم تكن وهذا مذهب جماهير أهل الأرض، ومن أهل الملل الثلاثة المسلمون واليهود والنصارى، ومن المجوس والمشركين، وهؤلاء الدهرية من الفلاسفة وغيرهم يزعمون، أن السموات أزلية قديمة، لم تزل وكان مشركو العرب

(١) هو: يحيى بن حَبَش بن أميرك، أبو الفتوح، شهاب الدين، السهروردي: فيلسوف، كان يتوقد ذكاء، إلا أنه قليل الدين، بارعا في أصول الفقه، مفرط الذكاء، فصيحا، لم يناظر أحدا إلا أربى عليه، كان وفاته أواخر سنة ٥٨٦ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/٢٠٧).

يقرون بأن الله قادر يفعل بمشيئته ويجيب دعاء الداعي إذا دعاه، وهؤلاء المتفلسفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شيئا بمشيئته، ولا يجيب دعاء الداعي بل ولا يعلم الجزئيات، ولا يعرف هذا الداعي من هذا الداعي، ولا يعرف إبراهيم من موسى من محمد، وغيرهم بأعيانهم من رسله، بل منهم من ينكر علمه مطلقا، كأرسطو وأتباعه ومنهم من يقول: إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله)(١).

وخلاصة القول أن الدهرية: هم الذين ينكرون الربوبية، ويعدون الأمر والنهي والرسالة من الله تعالى مستحيلاً في العقول، ويقولون بقدم العالم، وينكرون الثواب والعقاب، وينسبون النفع والضرر إلى الدهر(٢).

---

(١) انظر: مقدمة الإشارات والتنبيهات لابن سينا (١٢٧/٢)، أرسطو عند العرب عبد الرحمن بدوي ص (٩-١٠)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، (٣٥٣/١)، والمنقذ من الضلال للغزالي ص (١٤٧).

(٢) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٢٤٤/٢ - ٢٤٥)، البرهان للسكسكي (ص٨٨)، والمقالات والفرق للأشعري القمي (ص١٩٤ – ١٩٥).

المبحث الثاني:

بيان موقف ابن القيم من الدهرية

سبق أن ذكرت في المبحث السابق التعريف بالدهرية، لغة واصطلاحاً، مع ذكر أبرز مقالاتهم الإلحادية الكفرية، سأذكر في هذا المبحث موقف ابن القيم – رحمه الله – من الدهرية، حيث وصفهم بالمعطلة، لأنهم عطلوا المصنوعات عن صانعها[١]؛ ولذا استحقوا قول ابن القيم – رحمه الله – عنهم: (هم أصل بلاء العالم، ومنبع كل شر) [٢].

قال ابن القيم – رحمه الله –: (فصل في ذكر تلاعبه بالدهرية، وهؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[٣]، وهؤلاء فرقتان: فرقة قالت: إن الخالق سبحانه لما خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة، دارت عليه فأحرقته ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركاتها، وفرقة قالت: إن الأشياء ليس لها أول ألبتة، وإنها تخرج من القوة إلى الفعل، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر.

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال للغزالي ص (١٣٤).

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٥٥-٢٦٦).

(٣) سورة الجاثية: ٢٤.

وقالوا: إن العالم دائم لم يزل ولا يزال لا يتغير ولا يضمحل، ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلا يبطل ويضمحل، إلا وهو يبطل ويضمحل مع فعله، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي هي فيه.

وهؤلاء هم المعطلة حقا، وهم فحول المعطلة، وقد سرى هذا التعطيل إلى سائر فرق المعطلة، على اختلاف آرائهم وتباينهم في التعطيل، كما سرى داء الشرك تأصيلا وتفصيلا في سائر فرق المشركين، على اختلاف مذاهبهم فيه، وكما سرى جحد النبوات تأصيلا وتفصيلا في سائر من جحد النبوة، أو صفة من صفاتها، أو أقر بها جملة وجحد مقصودها وزبدتها، أو بعضه.

فهذه الفرق الثلاثة سرى داؤها وبلاؤها في الناس، ولم ينج منه إلا أتباع الرسل العارفون بحقيقة ما جاء به المتمسكون به، دون ما سواه ظاهرا وباطنا.

فداء التعطيل، وداء الإشراك، وداء مخالفة الرسول، وجحد ما جاء به أو شيء منه، هو أصل بلاء العالم، ومنبع كل شر، وأساس كل باطل، فليست فرقة من فرق أهل الإلحاد والباطل والبدع إلا وقولها مشتق من هذه الأصول الثلاثة أو من بعضها.

فإن تنج منها تنج من ذي   وإلا فإني لا إخالك ناجيا)[1].

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٥٥-٢٦٦).

ثم عرج ابن القيم - رحمه الله - في بيان إلحاد الدهرية وأنهم كفار، حيث قالوا: إن الدهر واحد إلا أنه لاينفك عن العالم، ولا ينفك العالم عنه. . . الخ مقولتهم الباطلة، قال - رحمه الله - في سياق رده على الجهمية المعطلة: (ثم ألزمهم ابن كلاب بمذهب الدهرية الملاحدة، وأن يكونوا وهم بمنزلة واحدة، فقال في هذا الكتاب يقال للجهمية أليست الدهرية كفارا ملحدين في قولهم إن الدهر هو واحد إلا أنه لا ينفك عن العالم ولا ينفك العالم عنه، ولا يباين العالم ولا يباينه، ولا يماس العالم ولا يماسه، ولا يداخل شيئا من العالم ولا يداخله؛ لأنه واحد والعالم غير مفارق له فإذا قالوا: نعم، قيل لهم: صدقتم، فلم أثبتم المعبود بمعنى الدهر، وأكفرتم من قال بمثل مقالتكم؟! هل تجدون بينكم وبينه فرقا أكثر من أن سميتموه بغير ما سموه به؟! وقد قلتم إنه غير مفارق العالم ولا العالم مفارق له، ولا هو داخل في العالم ولا العالم داخل فيه ولا مماس للعالم، ولا العالم مماس له، ولم رجعتم على من خالفكم بالتكفير، وزعمتم أنهم كفروا؛ لأنهم قالوا واحد منفرد بأين، فلم لا كنتم أولى بالكفر والتشبيهة منهم؟ إذا زعمتم مثل زعم الملحدين؟ وقلتم مثل مقالة الضالين؟ وخرجتم من توحيد رب العالمين)[1]

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١٢٤٠/٤).

المبحث الثالث:

ذكر مواقف أبرز أهل العلم من الدهرية

مرّ بنا في المبحث السابق موقف ابن القيم - رحمه الله - من الدهرية حيث حكم عليهم بالكفر والإلحاد، وسأسوق في هذا المبحث مواقف أبرز العلماء من الدهرية؛ حيث يتبين لنا من خلاله توافق ابن القيم مع العلماء في الحكم على الدهرية، بالكفر والإلحاد، فأقول فيه:

عقد أبو محمد ابن حزم(١) - رحمه الله - فصولا للرد على هؤلاء الدهرية أذكرها بطولها، لأهميتها.

قال - رحمه الله -: (باب الكلام على من قال بأن العالم لم يزل، وأنه لا مدبر له: لا يخلو العالم من أحد وجهين أما أن يكون لم يزل أو أن يكون محدثا لم يكن ثم كان فذهبت طائفة إلى أنه لم يزل، وهم الدهرية وذهب سائر الناس إلى أنه محدث، فنبتدئ بحول الله تعالى وقوته بإيراد كل حجة شغب بها القائلون بأن العالم لم يزل، وتوفية اعتراضهم بها، ثم نبين بحوله تعالى نقضها وفسادها، فإذا بطل القول بأن العالم لم يزل، وجب القول بالحدوث، وصح، إذ لا سبيل إلى وجه ثالث، لكنا لا نقنع بذلك حتى نأتي بالبراهين الظاهرة،

---

(١) هو: أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف، الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب، الوزير الظاهري، صاحب التصانيف، ولد أبو محمد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلاث مئة، من مؤلفاته: "الفصل في الملل والأهواء والنحل" "، "المحلى"، "جمهرة الأنساب"، توفي سنة ٤٥٦ هـ. سير أعلام النبلاء (١٨/١٨٤).

والنتائج الموجبة والقضايا الضرورية على إثبات حدوث العالم، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...) [1]. انتهى المراد نقله عن ابن حزم.

فذكر - رحمه الله - عن الدهرية بأنهم يعتقدون بأن العالم لم يزل، وأنه ليس محدثا، وبعد أن أورد مقالتهم هذه أخذ بالرد عليها بإثبات أن العالم إنما هو حادث، وأخذ بنقض وإفساد مقالتهم وإبطالها بالبراهين الظاهرة، حتى نتج عن ذلك إثبات حدوث العالم، وقد فند مقالتهم هذه بخمسة براهين، كما مر بنا.

وممن له موقف من الدهرية، ابن الجوزي - رحمه الله - حيث ذكر مقالتهم، وشنع عليها، وهي أنه لا إله ولا صانع، وأن هذه الأشياء كانت بلا مكون، ثم شرع في الرد عليهم، ودحض حججهم فقال - رحمه الله -: (ذكر تلبيسه على الدهرية: قد أوهم إبليس خلقا كثيرا أنه لا إله ولا صانع، وأن هذه الأشياء كانت بلا مكون، وهؤلاء لما لم يدركوا الصانع بالحس، ولم يستعملوا في معرفته العقل جحدوه، وهل يشك ذو عقل في وجود صانع، فإن الإنسان لو مر بقاع ليس فيه بنيان ثم عاد فرأى حائطا مبنيا علم أنه لا بد له من بان بناه، فهذا المهاد الموضوع، وهذا السقف المرفوع، وهذه الأبنية

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، (١/١٥-٣٥).

العجيبة، والقوانين الجارية على وجه الحكمة، أما تدل على صانع، وما أحسن ما قال بعض العرب: إن البعرة تدل على البعير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، أما يدلان على اللطيف الخبير، ثم لو تأمل الإنسان نفسه، لكفت دليلا، ولشفت غليلا، فإن في هذا الجسد من الحكم ما لا يسع ذكره في كتاب ومن تأمل تحديد الأسنان لتقطع، وتقريض الأضراس لتطحن، واللسان يقلب الممضوغ، وتسليط الكبد على الطعام ينضجه، ثم ينفذ إلى كل جارحة، قدر ما تحتاج إليه من الغذاء، وهذه الأصابع التي هيئت فيها العقد لتطوي وتنفتح فيمكن العمل بها، ولم تجوف لكثرة عملها، إذ لو جوفت لصدمها الشيء القوي فكسرها، وجعل بعضها أطول من بعض لتستوي، إذا ضمت وأخفي في البدن ما فيه قوامه وهي النفس التي إذا ذهبت فسد العقل الذي يرشد إلى المصالح، وكل شيء من هذه الأشياء ينادي أفي الله شك؟! وإنما يخبط الجاحد؛ لأنه طلبه من حيث الحس ومن الناس من جحده لأنه لما أثبت وجوده من حيث الجملة لم يدركه من حيث التفصيل، فجحد أصل الوجود، ولو أعمل هذا فكره لعلم أن لنا أشياء لا تدرك إلا جملة، كالنفس والعقل، ولم يمتنع أحد من إثبات وجودهما، وهل الغاية إلا إثبات

الخلق جملة، وكيف يقال كيف هو؟ أو ما هو؟ ولا كيفية له ولا ماهية[(١)]، ومن الأدلة القطعية على وجوده أن العالم حادث بدليل أنه لا يخلو من الحوادث، وكل ما لا ينفك عن الحوادث حادث، ولا بد لحدوث هذا الحادث من مسبب وهو الخالق سبحانه، وللملحدين اعتراض يتطاولون به على قولنا: لا بد للصنعة من صانع، فيقولون: إنما تعلقتم في هذا بالشاهد، وإليه نقاضيكم، فنقول: كما أنه لا بد للصنعة من صانع، فلا بد للصورة الواقعة من الصانع من مادة تقع الصورة فيها، كالخشب لصورة الباب، والحديد لصورة الفأس، قالوا: فدليلكم الذي تثبتون به الصانع يوجب قدم العالم، فالجواب: أنه لا حاجة بنا إلى مادة، بل نقول إن الصانع اخترع الأشياء اختراعا، فإنا نعلم أن الصور والأشكال المتجددة في الجسم كصورة الدولاب ليس لها مادة، وقد اخترعها ولا بد لها من مصور، فقد أريناكم صورة وهي شيء جاءت لا من شيء ولا يمكنكم أن ترونا صنعة جاءت لا من صانع) [(٢)].

وكذلك لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – موقف من الدهرية، حيث رد عليهم بعدة ردود بصيغة الأسئلة مثل: كيف يحدث الحادث بلا

(١) ماهية الشيء: ما به الشيء هو هو، وهي من حيث هي هي؛ لا موجودة ولا معدومة، ولا كلي ولا جزئي، ولا خاص ولا عام. التعريفات للجرجاني (ص: ١٩٥).
(٢) تلبيس إبليس (ص٤٠، ٤١).

سبب حادث؟ إلى غير ذلك من الأسئلة، فدحض بذلك مقالتهم وأخرس ألسنتهم، فقال – رحمه الله –: (أما الفلاسفة الدهرية فإن هذه الطريقة زادتهم إغراء وأوجبت لهم حجة عجز هؤلاء عن دفعها إلا بالمكابرة التي لا تزيد الخصم إلا قوة وإغراء فقالو لهم: كيف يحدث الحادث بلا سبب حادث؟ وكيف تكون الذات حالها وفعلها وجميع ماينسب إليها واحدا من الأزل إلى الأبد؟ والعالم يصدر عنها في وقت دون وقت من غير فعل يقوم به ولا سبب حدث؟

فكان ما جعلوه أصلاً للدين وشرطا في معرفة الله تعالى منافيا للدين، ومانعا من كمال معرفة الله، وكان ما أحتجوا به من الحجج العقلية هي في الحقيقة على نقيض مطلوبهم أدل، فالحوادث لا تحدث إلا بشرط جعلوه مانعا من الحدوث، وأما أمور الإسلام: فإن هذا الأصل اضطرهم إلى نفي صفات الله تعالى؛ لئلا تنتقض الحجة، ومن لم ينف الصفات نفى الأفعال القائمة به، وغيرها مما يتعلق بمشيئته وقدرته، فلزمهم من عدم الإيمان ببعض ما جاء به الرسول، ومن جحد بعض ما يستحقه الله تعالى من أسمائه وصفاته ما أوجب له من من التناقض والإرتياب ما تبين لأولى الألباب، فلم يعطوا الإيمان بالله

ورسوله حقه، ولا الجهاد لعدو الله ورسوله حقه، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ . . . ﴾(١) الآية.

هذا مع دعواهم أنهم أعظم علما وإيمانا وتحقيقا لأصول الدين، وجهادا لأعدائه بالحجج من الصحابة، وإن هم في ذلك إلا كبعض الملوك الذين لم يجاهدوا العدو، بل أخذوا منهم بعض البلاد، ولا عدلوا في المسلمين العدل الذي شرعه الله للعباد، إذا ادعى أنه أمكن وأعدل من عمر ابن الخطاب وأصحابه رضوان الله عليهم) (٢).

خلاصة المبحث: قد تلخص لنا من هذ المبحث أن للعلماء موقف حازم وشديد مع الدهرية، حيث وسموهم بالكفر والإلحاد، وقد أوردوا مقالتهم بأن العالم لم يزل، وأنه حدث بلا سبب حادث، ثم قاموا بالرد عليها ودحضها بالحجج والبراهين الساطعة.

---

(١) سورة الحجرات: ١٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣٧٧/١).

الفصل الثالث:

موقفه من ملاحدة الطبائعيين.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالطبائعيين وأبرز مقالاتهم.

المبحث الثاني: بيان موقف ابن القيم من ملاحدة الطبائعيين.

المبحث الثالث: ذكر مواقف أبرز أهل العلم من ملاحدة الطبائعيين.

سبق القول في الفصل الثاني بمباحثه الثلاثة بما يتعلق بالدهرية، بالتعريف بهم، وبأبرز مقالاتهم، وموقف ابن القيم – رحمه الله – منهم، وأخيراً موقف أبرز العلماء من الدهرية.

وفي هذا الفصل سأتكلم عن التعريف بالطبائعيين، وأبرز مقالاتهم وموقف ابن القيم – رحمه الله – منهم، وموقف أبرز العلماء منهم.

المبحث الأول:

التعريف بالطبائعيين وأبرز مقالاتهم

سأبدأ في هذا المبحث بالتعريف بالطبائعيين لغة واصطلاحاً مع ذكر أبرز مقالاتهم الإلحادية:

أولاً التعريف اللغوي للطبائعيين:

قال ابن سيدة[(١)]: (الطَّبِيعَةُ: الخليقة، والطِّباع: كالطَّبيعة، مؤنث، وَقَالَ أَبُو الْقَاسِم الزجاجي: الطِّباع: وَاحِد مُذَكّر كالنحاس والنجار)[(٢)].

وقال الرازي[(٣)]: (ط ب ع: (الطَّبْعُ)السَّجِيَّةُ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ. وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ وَ (الطَّبِيعَةُ) مِثْلُهُ وَكَذَا (الطِّبَاعُ) بِالْكَسْرِ وَ (الطَّبْعُ) الْخَتْمُ وَهُوَ التَّأْثِيرُ فِي الطِّينِ وَنَحْوِهِ. وَ (الطَّابَعُ) بِالْفَتْحِ الْخَاتَمُ وَالْكَسْرُ فِيهِ لُغَةٌ.

---

(١) هو: علي بن أحمد بن سيده اللغوي النحوي الأندلسي أبو الحسن الضرير، كان حافظا لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها، صنف: "المحكم والمحيط الأعظم في اللغة"، "شرح إصلاح المنطق"، "شرح الحماسة"، مات سنة ثمان وخمسين وأربعمائة. بغية الوعاة للسيوطي (١٤٣/٢).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم (٥٦٦/١).

(٣) هو: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازيّ، زين الدين، من فقهاء الحنفية، وله علم بالتفسير والأدب، من مؤلفاته: "مختار الصحاح"، "شرح المقامات الحريرية"، "حدائق الحقائق"، توفي بعد سنة ٦٦٦هـ. انظر: معجم المؤلفين (١١٢/٩)، الأعلام للزركلي (٥٥/٦).

وَ(طَبَعَ) عَلَى الْكِتَابِ خَتَمَ. وَطَبَعَ السَّيْفَ وَالدِّرْهَمَ عَمِلَهُمَا وَطَبَعَ مِنَ الطِّينِ جَرَّةً وَبَابُ الْكُلِّ قَطَعَ)[١].

الطبائعيون اصطلاحاً:

عرفه مجموعة من العلماء بعدة تعريفات، تلتقي كلها في أن الطبائعيين نسبة إلى الطبائع الأربعة، وهي التراب والماء والنار والهواء، ويعتقدون بأنها أصول كل شيء، ويقولون: بقدم طبائع هذه العناصر، وأن مذهبهم مبني على إنكار الخالق تعالى، وأن يكون هو خالق هذا العالم ومدبره، ويستبعدون كل مؤثر يجاوز حدود الطبيعة ويفارقها، بل بعضهم يرى أنها هي الإله[٢][٣].

فمذهب الطبائعيين، مذهب فلسفي كفري، يسند المتغيرات الكونية إلى الطبيعة، فلا يليق بمؤمن حنيف أن يكون رجع الصدى لهذا الإلحاد.

---

(١) مختار الصحاح (ص١٨٨).

(٢) انظر: تلبيس إبليس (١/٣٠٧)، الملل والنحل للشهرستاني (٢/٥٥٧-٥٦١).

(٣) انظر: الثقافة والطبيعة محمد سبيلا، وعبد السلام بن عبد العالي ص (٧)، جدلية الإنسان والغيب والطبيعة، محمد أبو القاسم حاج ص (١٩٣)، في فلسفة الطبيعة عند الرواقيين، د. مصطفى لبيب ص (١٩-٢٠).

الطبائعيون: هم الذين يقولون أن العالم مستند في وجوده إلى الطبيعة[(١)].

الربط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة "الطبيعة":

بعد أن سقت التعريفين اللغوي والاصطلاحي لكلمة "الطبيعة": يتبين أن المعنى الاصطلاحي مشتق من المعنى اللغوي، وهو أن الطبيعة: الخليقة، إلا أنه زيد عليه في المعنى الاصطلاحي، أن الطبائعيين يرون أن العالم مستند في وجوده إلى الطبيعة، وهي الخليقة.

وبعد أن تعرفنا على التعريف اللغوي والاصطلاحي لكلمة الطبيعة، وأنها الخليقة، سأذكر أبرز مقالات الطبائعين من كلام ابن القيم – رحمه الله – تعالى في كتابه مفتاح دار السعادة: (على أنك لو تأملت قولك طبيعة ومعنى هذه اللفظة لدلك على الخالق البارىء لفظها، كما دل العقول عليه معناها لأن طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة، أي مطبوعة، ولا يحتمل غير هذا ألبتة؛ لأنها على بناء الغرائز التي ركبت في الجسم، ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢٦١/١-٢٦٢)، علم التوحيد للدكتور عبد العزيز الربيعة (ص٦٥).

والسليقة والطبيعة، فهي التي طبع عليها الحيوان، وطبعت فيه، ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال، فقد دل لفظ الطبيعة على البارئ تعالى، كما دل معناها عليه، والمسلمون يقولون: إن الطبيعة خلق من خلق الله، مسخر مربوب، وهي سنته في خليقته التي أجراها عليه، ثم أنه يتصرف فيها كيف شاء، وكما شاء، فيسلبها تأثيرها إذا أراد، ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء، ليرى عباده أنه وحده الخالق البارئ المصور، وأنه يخلق ما يشاء، كما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وأن الطبيعة التي انتهى نظر الخفافيش إليها إنما هي خلق من خلقه، بمنزلة سائر مخلوقاته، فكيف يحسن بمن له حظ من إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها، ويحيل الصنع والإبداع عليها ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها، ويحيلها ويقلبها الى ضد ما جعلت له، حتى يرى عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١))(٢).

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

(٢) مفتاح دار السعادة: (٢٦٢/١).

وخلاصة الكلام عن الطبائعيين أنهم سموا بهذا الاسم نسبة إلى الطبيعة، وهي الخليقة، ومذهب الطبائعيين فلسفي كفري يسند المتغيرات الكونية إلى الطبيعة.

وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – أبرز مقالاتهم، وردّ عليها مفنِّداً لها بأنها على اسمها طبيعة بمعنى مطبوعة، أي مخلوقة.

المبحث الثاني:

بيان موقف ابن القيم من ملاحدة الطبائعيين

تقدم معنا المبحث الأول، وهو في التعريف بالطبائعيين لغة، واصطلاحاً، مع أبرز مقالاتهم، وفي هذا المبحث سأذكر موقف ابن القيم من ملاحدة الطبائعيين، فأقول وبالله التوفيق:

قال ابن القيم - رحمه الله -: (والفلاسفة فيما أصلوه من أن تعطيل أسباب الخيرات والمصالح العظيمة، لما في ضمنها من الشرور والآلام الجزئية مناف للحكمة، فهذا أصل في غاية الصحة، لكن أخطئوا في ذلك أعظم خطأ، وهو جعلهم ذلك من لوازم الطبيعة المجردة، من غير أن تكون متعلقة بفاعل مختار، قدر ذلك بمشيئته وقدرته واختياره، ولو شاء لكان الأمر على خلاف ذلك، كما يكون في الجنة، فإنها مشتملة على الخيرات المحضة البريئة من هذه العوارض من كل وجه، فاقتضت حكمته أن تكون هذه الدار على ما هي عليه، ممزوجا خيرها بشرها، ولذاتها بآلامها، وأن تكون دار القرار خالصة من شوائب الآلام والشرور خلاصا تاما، وأن تكون دار الشقاء خالصة للآلام والشرور، وإذا جمعت حق هذه الطائفة

وأثبت تعالى صفات الكمال، وأنه يحب ويحب، ويفرح بتوبة عباده وطاعتهم ويرضى بها ويضحك ويثني عليهم بها، ويحب أن يثنى عليه ويحمد ويشكر، ويفعل ما له في فعله غاية وحكمة يحبها ويرضاها، فيفعل لأجلها، كنت أسعد بالحق من هؤلاء)[١].

ثم شرع ابن القيم - رحمه الله - يذكر الطبيعة ويسائل الطبائعيين أهي قائمة بنفسها لها علم وإرادة وحكمة؟ أم أنها غير قائمة بنفسها؟ ورد عليهم قولهم، فقال - رحمه الله -: (وكأني بك أيها المسكين تقول هذا كله من فعل الطبيعة، وفي الطبيعة عجائب وأسرار، فلو أراد الله أن يهديك لسالت نفسك بنفسك، وقلت: أخبريني عن هذه الطبيعة، أهي ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة، أم ليست كذلك، بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع، تابعة له، محمولة فيه، فإن قالت لك: بل هي ذات قائمة بنفسها، لها العلم التام والقدرة والإرادة، والحكمة، فقل لها هذا هو الخالق البارئ المصور، فلم

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٢٣٩).

تسمينه طبيعية؟ ويالله من ذكر الطبائع، ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله، ودخلت في جملة العقلاء والسعداء، فإن هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى، وإن قالت تلك: بل الطبيعة عرض محمول، مفتقر الى حامل، وهذا كله فعلها بغير علم منها، ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلا، وقد شوهد من آثارها ما شوهد، فقل لها: هذا مالا يصدقه ذو عقل سليم، كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة، والحكم الدقيقة، التي تعجز عقول العقلاء، عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له، ولا قدرة ولا حكمة، ولا شعور، وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين، والمبرسمين، ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما ادعيت فمعلوم أن مثل هذه الصفة ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها، فمن ربها ومبدعها وخالقها؟ ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك؟ فهي إذا من أدل الدلائل على بارئها وفاطرها، وكمال قدرته وعلمه وحكمته، فلم يجد عليك تعطيلك رب العالم، وجحدك لصفاته، وأفعاله إلا مخالفتك العقل والفطرة، ولو حاكمناك إلى

الطبيعة لرأيناك أنك خارج عن موجبها، فلا أنت مع موجب العقل ولا الفطرة، ولا الطبيعة، ولا الإنسانية أصلا، وكفى بذلك جهلا، وضلالا، فإن رجعت الى العقل وقلت: لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم، ولا تدبير متقن إلا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد، قادر عليه، لا يعجزه ولا يؤوده، قيل لك: فإذا أقررت ويحك بالخلاق العظيم، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، فدع تسميته طبيعة، أو عقلا فعالا، أو موجبا بذاته، وقل هذا هو الله الخالق البارئ المصور رب العالمين) (١).

ويقول رحمه الله أيضًا: (على أنك لو تأملت قولك طبيعة ومعنى هذه اللفظة لدلك على الخالق الباريء لفظها، كما دل العقول عليه معناها لأن طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة، أي مطبوعة، ولا يحتمل غير هذا ألبتة؛ لأنها على بناء الغرائز التي ركبت في الجسم، ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة، فهي التي طبع عليها الحيوان، وطبعت فيه، ومعلوم أن

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٢٦١-٢٦٢).

طبيعة من غير طابع لها محال، فقد دل لفظ الطبيعة على البارئ تعالى، كما دل معناها عليه، والمسلمون يقولون: إن الطبيعة خلق من خلق الله، مسخر مربوب، وهي سنته في خليقته التي أجراها عليه، ....فكيف يحسن بمن له حظ من إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها، ويحيل الصنع والإبداع عليها ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها، ويحيلها ويقلبها الى ضد ما جعلت له، حتى يرى عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(١)])[(٢)]

ويتلخص معنا في هذا المبحث أن موقف ابن القيم – رحمه الله – من ملاحدة الطبائعيين موقف الناقد لهم والحاكم عليهم بالكفر والإلحاد؛ حيث أتى باعتقادهم في الطبيعة ثم رد عليهم وفند شبههم وأباطيلهم الإلحادية.

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

(٢) مفتاح دار السعادة: (٢٦٢/١).

المبحث الثالث:

ذكر مواقف أبرز أهل العلم من ملاحدة الطبائعيين

تقدم معنا في المبحث الثاني ذكر موقف ابن القيم – رحمه الله – من الطبائعيين، حيث أتى بمقالتهم ورد عليهم فيها وفند شبهاتهم.

وفي هذا المبحث سأذكر مواقف أبرز أهل العلم من الملاحدة الطبائعيين، من حيث ذكر مقالاتهم، واعتقاداتهم، وردوا عليها وأبطلوها بالنصوص النقلية والحجج العقلية، حيث حكموا عليهم بالكفر والإلحاد، بمخالفة الفطرة والعقل السليم.

قال ابن الجوزي: (لما رأى إبليس قلة موافقته عَلَى جحد الصانع؛ لكون العقول شاهدة بأنه لا بد للمصنوع من صانع، حسّن لأقوام أن هذه المخلوقات فعل الطبيعة، وقال: مَا من شيء يخلق إلا من اجتماع الطبائع الأربع فيه، فدل عَلَى أنها الفاعلة، وجواب هَذَا نقول: اجتماع الطبائع عَلَى وجودها لا عَلَى فعلها، ثم قد ثبت أن الطبائع لا تفعل إلا باجتماعها وامتزاجها، وذلك يخالف طبيعتها، فدل عَلَى أنها مقهورة وَقَدْ سلموا أنها ليست بحية، ولا عالمة ولا قادرة، ومعلوم أن الفعل المنسق المنتظم لا يكون

إلا من عالم حكيم، فكيف يفعل من ليس عالما، وليس قادرا، فَإِن قالوا: ولو كان الفاعل حكيما لم يقع فِي بنائه خلل، ولا وجدت هذه الحيوانات المضرة، فعلم أنه بالطبع، قلنا: ينقلب هَذَا عليكم بما صدر مِنْهُ من الأمور المنتظمة المحكمة، التي لا يجوز أن يصدر مثلها عَنْ طبع، فأما الخلل المشار إليه فيمكن أن يكون للابتلاء والردع والعقوبة، أَوْ فِي طية منافع لا نعلمها، ثم أين فعل الطبيعة من شمس تطلع فِي نيسان عَلَى أنواع من الحبوب؟ فترطب الحصرم، والخلالة، وتنشف البرة وتيبسها، ولو فعلت طبعا لأيبست الكل، أَوْ رطبته، فلم يبق إلا أن الفاعل المختار استعملها بالمشيئة، فِي يبس هذه للادخار، والنضج فِي هذه للتناول، والعجب أن الذي أوصل إليها اليبس فِي أكنة لا يلقى جرمها، والذي رطبها يلقى جرمها، ثم إنها تبيض ورد الخشخاش، وتحمر الشقائق، وتحمض الرمان، وتحلي العنب، والماء واحد، وَقَدْ أشار المولى إِلَى هَذَا بقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾[1])[1].

---

(١) سورة الرعد: ٤.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مبينا موقفه من الطبائعيين حيث حكم عليهم بالكفر، وأنهم شر من المجوس: (وأما الطبائعية، فإنهم يثبتون في الأجسام الطبيعية قوة هي مبدأ الحركة، ولكن يجعلون فوقها أمرا آخر أحدثها، ويثبتون حدوث الأسباب مع حدوث المسببات، وهؤلاء يجعلون الحركة الفلكية متجددة دائما، من غير حدوث أمر يقتضي حدوثها، وقولهم شر من قول المجوس الذين قالوا بالأصلين، اللذين أحدهما يحدث الخير والآخر يحدث الشر، سواء قالوا: إن فاعل الشر قديم أو محدث، وذلك لأن المجوس جعلوا الخير الحادث من الإله القديم الفاعل للخير وهؤلاء لم يثبتوا أن الله أحدث شيئا لا خيرا ولا شرا فإنه لا موجب للحوادث عندهم إلا حركة الأفلاك والأفلاك تتحرك بما يحدثه من التصورات والإرادات من غير أن يكون الله فاعل شيء من ذلك على قولهم)[٢].

(١) تلبيس إبليس (١/٣٠٧-٣٠٩)
(٢) الصفدية (٢/٢١٤).

وأما ابن القيم – رحمه الله – فكان موقفه من الطبائعيين لا يقل عن موقف شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – حيث قال: (وَلَا تلْتَفت الى مَا يَقُوله الجهلة من الطبائعيين فِي سَبَب الإذكار والإيناث، وإحالة ذَلِك على الأمور الطبيعية، الَّتِي لا تكاد تصدق فِي هَذَا الْموضع إلا اتِّفَاقًا، وَكذبها أكثر من صدقهَا، وَلَيْسَ استناد الإذكار والإيناث إلا إلى مَحْض المرسوم الإلهي، الَّذِي يلقيه الى ملك التَّصْوِير حِين يَقُول: يَا رب ذكر أم أنثى شقي أم سعيد فَمَا الرزق فَمَا الأجل فَيُوحِي رَبك مَا يَشَاء وَيكْتب الْملك[1]، فَإِذا كَانَ للطبيعة تَأْثِيرا فِي الأذكار والإيناث، فلهَا تأثير فِي الرزق والأجل، والشقاوة والسعادة، وَإِلَّا فَلَا إذ مخرج الْجَمِيع مَا يوحيه الله الى الْملك، وَنحن لَا ننكر أن لذَلِك أسبابا أخر، وَلَكِن تِلْكَ من الأسباب الَّتِي اسْتَأْثر الله بهَا دون الْبشر، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ إِنَٰثًا

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٣٩) رقم (٢٦٤٧) عن أنس ابن مالك ورفع الحديث أنه قال: «إن الله – عز و جل – قد وكل بالرحم ملكا، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقا قال: قال الملك: أي رب ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه.

﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ الى قَوْله ﴿ قَدِيرٌ ﴾[١]فَذكر أصناف النِّسَاء الأربعة مَعَ الرِّجَال، أحدها: من تَلد الإناث فَقَط، الثَّانِيَة: من تَلد الذُّكُور فَقَط، الثَّالِثَة: من تَلد الزَّوْجَيْنِ الذّكر والأنثى، وَهُوَ معنى التَّزْوِيج هُنَا، أن يَجْعَل مَا يهب لَهُ زَوْجَيْنِ ذكرا أَوْ انثى، الرَّابِعَة: الْعَقِيم الَّتِي لَا تَلد أصلا، وَمِمَّا يدل على أن سَبَب الإذكار والإيناث لَا يُعلمهُ الْبشر، وَلَا يدْرك بِالْقِيَاسِ والفكر وَإِنَّمَا يعلم بِالْوَحْي. . . وَهَذِه أمور لَيْسَ عِنْد أهل الطبيعة مَا يدل عَلَيْهَا، وَلَا تعلم إلا بِالْوَحْي، وَلَيْسَ فِي صناعتهم أيضا مَا ينافيها. . . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث عبد الله بن أَبي بكر، عَن أنس، عَن النَّبِي قَالَ: «إن الله وكل بالرحم ملكا فَيَقُول يَا رب نُطْفَة يَا رب علقَة يَا رب مُضْغَة فَإِذا أراد ان يخلقها قَالَ يَا رب أذكر أم أنثى شقي أم سعيد فَمَا الرزق فَمَا الأجل فَيكْتب كَذَلِك فِي بطن أمه»[٢] أَفلا ترى كَيفَ أَحَال بالإذكار والإيناث على مُجَرّد الْمَشِيئَة وقرنه بِمَا لا

(١) سورة الشورى: ٤٩ – ٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧٠) رقم (٣١٩)، ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٣٨) رقم (٢٦٤٦).

تأثير للطبيعة فِيهِ من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل وَلم يتَعَرَّض الْملك لكتبه الَّذِي للطبيعة فِيهِ مدْخل، أولا ترى عبد الله بن سَلام لم يسْأَل إلا عَن الشّبَه الَّذِي يُمكن الجْواب عَنهُ، وَلم يسأل عَن الإذكار والإيناث، مَعَ أنه أبلغ من الشّبَه وَالله أعْلَم وان كَانَ رَسُول الله قد قَالَه فَهُوَ عين الْحق وعَلى كل تَقْدِير فَهُوَ يبطل مَا زَعمه بعض الطبائعيين من معرفَة أسباب الإذكار والإيناث وَالله أعْلَم)[1] [2].

وخلاصة القول في الطبائعيين: أنهم سموا بهذا الاسم نسبة إلى الطبيعة المكونة من الطبائع الأربعة، وهي التراب والماء والنار والهواء، حيث يعتقدون بأنها أصول كل شي، وأنها قديمة، ومذهبهم مبني على إنكار الخالق

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٥٨-٢٦٠).

(٢) انظر: الثقافة والطبيعة محمد سبيلا، وعبد السلام بن عبد العالي ص (٧)، جدلية الإنسان والغيب والطبيعة، محمد أبو القاسم حاج ص (١٩٣)، في فلسفة الطبيعة عند الرواقيين، د. مصطفى لبيب ص (١٩-٢٠).

تعالى، وقد ورث هذا المذهب الإلحادي، في الوقت الحاضر الشيوعيون حيث يقولون: لا إله، والحياة مادة، فلا وجود إلا للطبيعة.

الفصل الرابع:

موقفه من الطوائف الباطنية الملحدة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالباطنية وأبرز مقالاتهم.

المبحث الثاني: بيان موقف ابن القيم من الباطنية.

المبحث الثالث: ذكر مواقف أبرز أهل العلم من الباطنية.

بعد أن انتهينا من الفصل الثالث، والذي تضمن موقف ابن القيم – رحمه الله – تعالى من الطبائعيين، وذلك بعد أن ذكرت التعريف بهم، وعرفنا موقف أبرز العلماء من الطبائعيين الملاحدة.

وفي هذا الفصل سنتعرف على الباطنية، من حيث التعريف بهم، وذكر أبرز مقالاتهم، وموقف ابن القيم – رحمه الله – منهم، وكذلك موقف أبرز العلماء من مقالاتهم الضالة.

المبحث الأول:

التعريف بالباطنية وأبرز مقالاتهم

الباطنية لغة:

لفظ الباطنية مأخوذ من كلمة بطن، بمعنى خفي فهو باطن، جمعه بواطن، واستبطن أمر وقف على دخلته، والباطنة بالكسرة، السريرة، والباطن هو داخل كل شيء ومن الأرض ما غمض يسمى باطناً[(١)].

الباطنية اصطلاحاً:

هي الفرق التي تنتسب إلى التشيع، وحب آل البيت، وتتخذ من ذلك ستاراً وغطاء لخداع المسلمين مع إبطانهم للكفر المحض والباطنية اصطلاح عام يطلق على جمع من الطوائف والفرق المتعددة المتشعبة، وبينها قاسم مشترك هو الاعتقاد بالظاهر والباطن، وتأويل نصوص الشرعية تأويلات باطنا، يتوافق مع معتقدات زعموا أنهم اختصوا بها وبمعرفتها دون سواهم. وبهذا يعلم أن الباطنية ليست فرقة واحدة، وإنما فرق متعددة. وسبب تسميتهم بهذا الاسم لأنهم يزعمون أن لظواهر القرآن بواطن يعرفونها دون

(١) انظر: إصلاح المنطق ص (٤٩) جمهرة اللغة (١/٣٦٠-٣٦١)، تهذيب اللغة (١٣/٢٥٠-٢٥١)، مقاييس اللغة (١/٢٥٩).

سواهم، قال الشهرستاني في سبب تسميتهم بهذا اللقب (إنه لزمهم بهذا اللقب لحكمهم بأن لكل شيء ظاهراً وباطناً، ولكل تنزيل تأويلا)[١].

وقد عرف ابن القيم - رحمه الله - تعالى الباطنية وذكر أبرز مقالاتهم فقال - رحمه الله -: (وكان هؤلاء الزنادقة، يتسترون بالرفض، ويبطنون الإلحاد المحض، وينتسبون إلى أهل بيت الرسول - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم- وهو وأهل بيته براء منهم نسبا ودينا، وكانوا يقتلون أهل العلم والإيمان، ويدعون أهل الإلحاد والشرك والكفران، لا يحرمون حراما، ولا يحلون حلالا. وفى زمنهم ولخواصهم وضعت رسائل إخوان الصفا)[٢].

وقال - رحمه الله -: (وكان ابن سينا، كما أخبر عن نفسه قال: أنا وأبى من أهل دعوة الحاكم، فكان من القرامطة الباطنية، الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، ولا رب خالق، ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى)[٣].

وقال في معرض كلامه عن الرافضة وبيان ما آل إليه الأمر من خروج الباطنية منهم: (والرافضة المتقدمون لم يكونوا جهمية معطلة، وأما المتأخرون

---

(١) الملل والنحل (١/٢٩٢).
(٢) إغاثة اللهفان (٢/٢٦٦).
(٣) المصدر نفسه.

منهم من حدود أواخر المائة الثالثة فضموا إلى بدعة الرفض التجهم والقدر، فتغلظ أمرهم، وظهر منهم حينئذ القرامطة، والباطنية، واشتهرت الزندقة الغليظة والنفاق الأعظم في أمرائهم وعلمائهم وعامتهم، وأخذوا من دين المجوس، والصابئة، والمشركين، ما خلطوه في الإسلام) [(١)].

وقال – رحمه الله – في سياق كلامة عن التعريف بالباطنية وذكر أبرز مقالاتهم الإلحادية: (ثم خرج المهدي الملحد عبيد الله بن ميمون القداح[(٢)]، وكان جده يهوديا من بيت مجوسي، فانتسب بالكذب والزور إلى أهل البيت وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي – صلى الله عليه وسلم – وملك وتغلب، واستفحل أمره إلى أن استولت ذريته الملاحدة المنافقون، الذين كانوا أعظم الناس عداوة لله ولرسوله على بلاد المغرب ومصر والحجاز والشام، واشتدت غربة الإسلام ومحنته ومصيبته بهم، وكانوا يدعون الإلهية ويدعون أن للشريعة باطنا يخالف ظاهرها، وهم ملوك القرامطة الباطنية أعداء الدين

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ٤/١٤٠٥– ١٤٠٦.

(٢) هو: عبيد الله أبو محمد، قيل: لم يكن اسمه عبيد الله، بل إنما هو سعيد بن أحمد، وقيل: سعيد بن الحسين، أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية الذين قلبوا الاسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الاسماعيلية، وادعى، أنه فاطمي من ذرية جعفر الصادق، قيل: كان أبوه يهوديا، وقيل: من أولاد ديصان الذي ألف في الزندقة، قتل سنة سبعين ومئتين. سير أعلام النبلاء (١٤٣/١٥).

فتستروا بالرفض والانتساب كذبا إلى أهل البيت، ودانوا بدين أهل الإلحاد وروجوه، ولم يزل أمرهم ظاهرا إلى أن أنقذ الله الأمة منهم، ونصر الإسلام بصلاح الدين يوسف ابن أيوب[(١)]، فاستنقذ الملة الإسلامية منهم وأبادهم وعادت مصر دار إسلام بعد أن كانت دار نفاق وإلحاد في زمنهم)[(٢)].

وهكذا فقد عرفنا من خلال كلام ابن القيم - رحمه الله - عن الباطنية بأنهم من الطوائف الخارجة عن الإسلام، وأنهم من الكفار الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا بالقدر خيره وشره،

---

(١) هو: يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر: من أشهر ملوك الإسلام. كان أبوه وأهله من قرية دُوين (في شرقي أذربيجان) وهم بطن من الروادية، من قبيلة الهذانية، من الأكراد. نزلوا بتكريت، وولد بها صلاح الدين، وتوفي فيها جده شاذي. ثم ولي أبوه (أيوب) أعمالا في بغداد والموصل ودمشق. ونشأ هو في دمشق، وتفقه وتأدب وروى الحديث بها وبمصر والإسكندرية، وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي " يوم حطين " الّذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت، ثم افتتاح القدس سنة ٥٨٣هـ وتوفي سنة ٥٨٩ هـ. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١٣٩/٧)، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (١٤٨/١)، الأعلام للزركلي (٢٢٠/٨).

(٢) المنار المنيف (ص١٥٣-١٥٤).

وأنهم لا يعملون بشرائع الإسلام، وعلى رأسها أركان الإسلام، حيث يفسرون العبادات العملية تفسيراً باطنياً بعيدا عن المعنى المراد[1].

(١) انظر: الفرق بين الفرق (١/٢٨٠).

المبحث الثاني:

بيان موقف ابن القيم من الباطنية

بعد أن عرفنا في المبحث السابق بالباطنية، وأبرز مقالاتهم وعقائدهم الإلحادية، والتي أدت إلى خروجهم عن الإسلام بالكلية، نتعرف في هذا المبحث على بيان موقف ابن القيم – رحمه الله – من الباطنيين، حيث بدأ بسرد تاريخي موجز عن مواقفهم السيئة تجاه سلاطين الإسلام ووقوفهم مع أعداء الإسلام ضد الإسلام وأهله، ووقوفهم كذلك مع النِّحل الباطلة قلبا وقالباً فقال – رحمه الله –: (ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك، والكفر الملحد، وزير الملاحدة، النصير الطوسي وزير هولاكو، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفا إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعيين، والسحرة، ونقل أوقاف المدارس والمساجد، والربط إليهم، وجعلهم خاصته وأولياءه، ونصر في كتبه قدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جل جلاله: من علمه، وقدرته، وحياته، وسمعه، وبصره، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وليس فوق العرش إله يعبد البتة.

واتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن فلم يقدر على ذلك، فقال: هي قرآن الخواص، وذاك قرآن العوام، ورام تغيير الصلاة وجعلها صلاتين، فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر الأمر، فكان ساحرا يعبد الأصنام.

وصارع محمد الشهرستانى ابن سينا في كتاب سماه "المصارعة" أبطل فيه قوله بقدم العالم وإنكار المعاد، ونفي علم الرب تعالى وقدرته، وخلقه العالم، فقام له نصير الإلحاد وقعد، ونقضه بكتاب سماه "مصارعة المصارعة" -ووقفنا على الكتابين - نصَّ فيه أن الله تعالى لم يخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأنه لا يعلم شيئا، وأنه لا يفعل شيئا بقدرته واختياره، ولا يبعث من في القبور.

وبالجملة فكان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين الكافرين بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر)[١].

وقال – رحمه الله – مستعرضاً تاريخ الباطنية ومبيناً عظم ما حل بالإسلام من بلية بسبب أولئك الملاحدة الباطنية ذاكراً العديد من عقائدهم الإلحادية حيث حكم عليهم بسببها بالكفر والإلحاد والخروج عن الإسلام: (. . . إلى أن جاء ما لا قبل لأحد به وهم جنود إبليس حقا المعارضون لما جاءت به الرسل بعقولهم وآرائهم من القرامطة والباطنية والملاحدة ودعوتهم إلى العقل المجرد وأن أمور الرسل تعارض المعقول فهم القائمون بهذه الطريقة حق القيام، بالقول والفعل فجرى على الإسلام وأهله منهم ما جرى، وكسروا عسكر الخليفة مرارا، عديدة وقتلوا الحاج قتلا ذريعا، وانتهوا إلى مكة فقتلوا بها من وصل من الحاج إليها، وقلعوا الحجر الأسود من مكانه، وقويت شوكتهم، واستفحل أمرهم، وعظمت بهم الرزية، واشتدت

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٦٦-٢٦٧).

بهم البلية، وأصل طريقهم أن الذي أخبرت به الرسل قد عارضه العقل، وإذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، قالوا: فنحن أنصار العقل، الداعون إليه، المخاصمون به المحاكمون إليه، وفي زمانهم استولى الكفار على كثير من بلاد الإسلام في الشرق والغرب، وكاد الإسلام أن ينهد ركنه لولا دفاع الذي ضمن حفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها، ثم خمدت دعوة هؤلاء في المشرق، وظهرت من المغرب قليلا قليلا، حتى استفحلت وتمكنت واستولى أهلها على كثير من بلاد المغرب، ثم أخذوا يطوون البلاد حتى وصلوا إلى بلاد مصر، فملكوها وبنوا بها القاهرة، وأقاموا على هذه الدعوة مصرِّحين بها غير متحاشين منها، هم وولاتهم وقضاتهم وأتباعهم، وفي زمانهم صنفت رسائل إخوان الصفا، والإشارات، والشفا، وكتب ابن سينا، فإنه قال: كان أبي من أهل الدعوة الحاكمية، وعطلت في زمانهم السنة، وكتبها والآثار جملة إلا في الخفية، بحيث يكون قارؤها وذاكرها وكاتبها على أعظم خطر، وشعار هذه الدعوة تقديم العقل على الوحي، واستولوا على بلاد المغرب ومصر

والشام والحجاز، واستولوا على العراق سنة، وأهل السنة فيهم كأهل الذمة بين المسلمين، بل كان لأهل الذمة من الأمان والجاه والعز عندهم مالا يصل إليه أحد من أهل السنة، ولا يطمع فيه، فكم أغمدت سيوفهم في أعناق العلماء، وكم مات في سجونهم من ورثة الأنبياء، وكم ماتت بهم سنة وقامت بهم بدعة وضلالة، حتى استنقذ الله الأمة والملة من أيديهم في أيام نور الدين(١)، وابن أخيه صلاح الدين، فأبل الإسلام من علته بعدما وطن المسلمون أنفسهم على العراء، وانتعش بعد طول الخمول، حتى استبشر أهل الأرض والسماء، وأبدر هلاله بعد أن دخل في المحاق، وثابت إليه روحه بعدما بلغت التراقي، وقيل من راق، واستنقذ الله سبحانه بعبده وجنوده بيت المقدس من أيدي عبدة الصليب، وأخذ كل من أنصار الله ورسوله من نصرة

---

(١) نور الدين، ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم، محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد زنكي بن الأمير الكبير آقسنقر، التركي السلطاني الملكشاهي، الملك العادل، كان نور الدين حامل رايتي العدل والجهاد، قل أن ترى العيون مثله، كان بطلا شجاعا، وافر الهيبة، حسن الرمي، مليح الشكل، ذا تعبد وخوف وورع، قمع الرافضة، وكسر الفرنج والأرمن توفي سنة ٥٦٩ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/٥٣١).

دينه بنصيب، وعلت كلمة الإسلام والسنة، وأذن بها على رؤوس الأشهاد، ونادى المنادي يا أنصار الله لا تنكلوا عن الجهاد، فإنه أبلغ الزاد، ليوم المعاد فعاش الناس في ذلك النور مدة، حتى استولت الظلمة على بلاد الشرق، وطغى نور النبوة والوحي، وقدموا العقول والآراء والسياسة والأذواق والرأي على الوحي، فظهرت فيهم الفلسفة والمنطق، وتوابعها فبعث الله عليهم عبادا له أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وعاثوا في القرى والأمصار، وكاد الإسلام أن يذهب اسمه وينمحي رسمه، وكان مشار هذه الفرقة وعالمها الذي يرجعون إليه زعيمها الذي يعولون عليه شيخ شيوخ المعارضين بين الوحي والعقل وإمامهم في وقته نصير الكفر والشرك الطوسي، فلم يعلم في عصره أحد عارض بين العقل والنقل معارضته، فرام إبطال السمع بالكلية، وإقامة الدعوة الفلسفية، وجعل الإشارات بدلا عن السور والآيات، وقال هذه عقليات قطعية برهانية، قد عارضت تلك النقليات الخطابية، واستعرض علماء الإسلام وأهل القرآن والسنة على

السيف، فلم يبق منهم إلا من أعجزه، قصدا لإبطال الدعوة الإسلامية، وجعل مدارس المسلمين وأوقافهم للنجسة السحرة والمنجمين والفلاسفة والملاحدة والمنطقيين، ورام إبطال الآذان، وتحويل الصلاة إلى القطب الشمالي، فحال بينه وبين ذلك من تكفل بحفظ الإسلام ونصره، وهذا كله من ثمرة المعارضين بين الوحي والعقل، وتقديم العقل على السمع) [١].

من خلال موقف ابن القيم – رحمه الله – من الباطنية عرفنا العديد من عقائدهم الإلحادية؛ حيث انسلخوا بسببها من الإسلام بالكلية، من إنكارهم أركان الإيمان، وتمردهم على أركان الإسلام وشرائعه بتفسيراتهم الباطنية، وأنهم على مرّ القرون كانوا يقفون في صف أعداء الإسلام ضدّ الإسلام وأهله[٢].

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/١٠٧٤-١٠٧٨).

(٢) انظر لما سبق: الفرق بين الفرق (١/٢٨٠)، فضائح الباطنية، الغزالي، ص (١١-١٢) بيان مذهب الباطنية وبطلانه، الديلمي، ص (٢١) القرامطة، ابن الجوزي، ص (٣٦)، دراسات منهجية لبعض فرق الرافضة والباطنية، د. عبدالقادر عطا، ص (٥٠).

المبحث الثالث:

ذكر مواقف أبرز أهل العلم من الباطنية

بعدما انتهينا من المبحث الثاني وهو موقف ابن القيم - رحمه الله - من الباطنية حيث حكم عليهم بالكفر والإلحاد، والخروج من الإسلام بالكلية بسبب عقائدهم الكافرة.

وفي هذا المبحث سأذكر مواقف أبرز أهل العلم من الباطنية، حيث ذكروا العديد من عقائدهم ومقالاتهم التي تدل على خروجهم من الإسلام بالكلية، وإلحاقهم بالكفار.

ومن أبرز العلماء الذين لهم موقف من الباطنية: عبد القاهر البغدادي(١) في كتابه الفرق بين الفرق، حيث ذكر مقالاتهم وعقائدهم، حيث حكم عليهم بأنهم أعظم ضرراً من ضرر اليهود والنصارى، بل حكم عليهم بأنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها فقال - رحمه الله -: (إعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر في آخر الزمان لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى

---

(١) هو: عبد القاهر بن طاهر، العلامة البارع، المتفنن الاستاذ، أبو منصور البغدادي، نزيل خراسان، وصاحب التصانيف البديعة، وأحد أعلام الشافعية، توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة. سير أعلام النبلاء (٢٠٣/٣).

يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يوما، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر، وقد حكى أصحاب المقالات أن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة منهم ميمون بن ديصان المعروف بالقداح، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق[١] وكان من الأهواز، ومنهم محمد بن الحسين الملقب بذيذان وميمون بن ديصان في سجن والي العراق، أسسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن، من جهة المعروف بذيذان، وابتدأ بالدعوة من ناحية توز فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل، مع أهل الجبل المعروف بالبدين، ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب، وانتسب في تلك الناحية الى عقيل بن أبى طالب[٢]وزعم أنه من نسله، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية[٣]منهم، ادعى أنه من ولد محمد بن

(١) هو: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الإمام الصادق، شيخ بني هاشم أبو عبد الله القرشي، الهاشمي، أحد الاعلام، ولد سنة ثمانين، ورأى بعض الصحابة. ، مات سنة ثمان وأربعين ومائة. سير أعلام النبلاء (٦/٢٥٥).

(٢) هو: عقيل بن أبي طالب الهاشمي هو أكبر إخوته وآخرهم موتا، شهد بدرا مشركا، وأخرج إليها مكرها، فأسر، ولم يكن له مال، ففداه عمه العباس، خرج عقيل مهاجرا في أول سنة ثمان، وشهد مؤتة، توفي زمن معاوية. سير أعلام النبلاء (٦/٢١٨).

(٣) الحلولية: هم قوم يزعمون أنه قد حصل لهم الحلول، وهو حلول الله بذاته في الأجسام والمخلوقات. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص١١٦).

إسماعيل بن جعفر الصادق[1] فقيل الأغبياء ذلك منه على أصحاب الانتساب بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب، ثم ظهر في دعوته إلى دين الباطنية رجل يقال له حمدان قرمط[2] لقب بذلك لقرمطه في خطه، أو في خطوه وكان في ابتداء أمره أكّارا من أكرة سواد الكوفة، وإليه تنسب القرامطة، ثم ظهر بعده في الدعوة الى البدعة أبو سعيد الجنابى[3]، وكان من مستجيبة حمدان، وتغلب على ناحية البحرين، ودخل في دعوته بنو سنبر ثم لما تمادت الأيام بهم ظهر المعروف منهم بسعيد بن الحسين ابن أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان القداح، فغير اسم نفسه ونسبه، وقال لأتباعه: أنا عبيد الله بن الحسن بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، ثم ظهرت فتنته بالمغرب، وأولاده اليوم مستولون على أعمال مصر، وذكر أصحاب التواريخ

---

(١) هو: محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الحسيني الطالبي الهاشمي: إمام عند القرامطة. ترى الطائفة الإسماعيلية أنه قام بالإمامة بعد وفاة أبيه، توفي سنة ١٩٨هـ. الأعلام للزركلي (٣٤/٦).

(٢) حمدان قرمط: رأس "القرامطة" من الباطنية. وإليه نسبتهم. اختُلف في اسمه وأصله. قيل: اسمه "حمدان" أو "الفرج بن عثمان" أو "الفرج بن يحيى"و "قرمط" لقبه، مات سنة ٢٩٣ هـ. انظر: بغية الطلب للعقيلي (٩٢٩/٢)، الأعلام للزركلي (١٩٤/٥).

(٣) هو: الحسن بن بهرام أبو سعيد الجنابي بفتح الجيم وتشديد النون وبعد الألف باء موحدة كبير القرامطة ظهر سنة ست وثمانين ومائتين بالبحرين واجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة وقوي أمره فقتل من حوله من القرى، وقد قُتل سنة إحدى وثلاثمئة. انظر: الوافي بالوفيات (٣١٤/١١).

أن دعوة الباطنية ظهرت أولا في زمان المأمون، وانتشرت في زمان المعتصم(١) وذكروا أنه دخل في دعوتهم الأفشين(٢) صاحب جيش المعتصم، وكان مراهنا لبابك الخرمى(٣) وكان الخرمي مستعصيا بناحية البدين، وكان أهل جبله خرمية على طريقة المزدكية، فصارت الخرمية مع الباطنية يدا واحدة، واجتمع مع بابك من أهل البدين. . .

قال عبد القاهر: الذى يصح عندي من دين الباطنية انهم دهرية زنادقة، يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع، والدليل على أنهم كما ذكرناه: ما قرأته في كتابهم المترجم بالسياسة والبلاغ الأكيد والناموس الأعظم، وهي رسالة عبيد الله بن الحسن

---

(١) هو: محمد بن هارون الرشيد بن المهدي ابن المنصور، أبو إسحاق، المعتصم باللّه العباسي: خليفة من أعاظم خلفاء هذه الدولة. بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ يوم وفاة أخيه المأمون، وبعهد منه، توفي سنة ٢٢٧ هـ. انظر: تاريخ بغداد (١١٢/٤)، الأعلام للزركلي (١٢٧/٧).

(٢) هو: الافشين محمد بن أبي الساج توفي في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائتين، ببرذعة، وهي كرسي أعمال أذربيجان، وقيل إنها من أران. وفيات الأعيان (٢٥٠/٢).

(٣)بابك الخرّمي الفارسي الذي ظهر سنة ٢٠١ هـ ودعا الى عقيدة تناقض الاسلام، وتقول بتناسخ الارواح. ثم انتفض على الدولة فجهز المأمون سنة ٢١٢ جيشا لتأديبه، الا انه تمكن من هزيمة ذلك الجيش. ولما تولى المعتصم الخلافة جرد عام ٢٢٠ جيشا للقضاء عليه، وقد انتصر جيش الخلافة سنة ٢٢٢ ووقع بابك في الأسر وجيء به الى بغداد فقتل سنة ٢٢٣ هـ. شذرات الذهب (٢/٢).

القيرواني[١] إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي[٢] أوصاه فيها بأن قال له ادع الناس بان تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن أنست منه رشدا فاكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا، وإنا وإياهم مجمعون على أن نواميس الأنبياء، وعلى القول بقدم العالم، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبرا لا يعرفه، وذكر في هذا الكتاب إبطال القول بالمعاد والعقاب، وذكر فيها أن الجنة نعيم الدنيا وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والحج والجهاد وقال ايضا: في هذه الرسالة إن أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه، ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم، وقال فيها أيضا: أكرم الدهرية، فإنهم منا ونحن منهم، وفى هذا تحقيق نسبة الباطنية إلى الدهرية، والذى يؤكد هذا أن المجوس يدعون نبوة زرادشت[٣]، ونزول الوحي عليه من الله تعالى، والصابئين يدعون نبوة هرمس، وواليس،

(١) هو عبيد الله بن ميمون القداح تقدمت ترجمته.

(٢) هو: سليمان بن الحسن بن بهرام أبو طاهر القرمطي الجنابي رئيس القرامطة، قتل أبو طاهر في سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة. انظر: الوافي بالوفيات (١٥/٢٢٤).

(٣)زرادشت: رجل من أهل اذربيجان ظهر في أيام بشتاسف بن لهراسف وادعى النبوة فآمن به بشتاسف وأظهر اسبديار بن بشتاسف دين زرادشت في العالم. اعتقادات المسلمين والمشركين (ص٨٦).

ودوروتيوس، وأفلاطون، وجماعة من الفلاسفة، وسائر أصحاب الشرائع كل صنف منهم مقرون بنزول الوحي من السماء على الذين أقروا بنبوتهم، ويقولون: إن ذلك الوحى شامل للأمر والنهي، والخبر عن عاقبة بعد الموت، وعن ثواب وعقاب، وجنة ونار، يكون فيها الجزاء عن الأعمال السالفة، والباطنية يرفضون المعجزات، وينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحى والامر والنهى، بل ينكرون أن يكون في السماء ملك وإنما يتأولون الملائكة على دعائهم، إلى بدعتهم ويتأولون الشياطين على مخالفيهم، والأبالسة على مخالفيهم ويزعمون أنَّ الأنبياء قوم أحبوا الزعامة، فساسوا العامة بالنواميس، والحيل، طلبا للزعامة، بدعوى النبوة والإمامة، وكل واحد منهم صاحب دور مسبع، اذا انقضى دوره سبعة تبعهم في دور آخر، واذا ذكروا النبى والوحى قالوا: إن النبى هو الناطق والوحى اساسه الفاتق، وإلى الفاتق تأويل نطق الناطق، على ما تراه يميل إليه هواه، فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة البرره، ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة، ثم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا يورث تضليلا، فزعموا ان معنى الصلاة موالاة امامهم، والحج زيارته وادمان خدمته، والمراد بالصوم الإمساك عن افشاء سر الامام دون الامساك عن الطعام، والزنى عندهم افشاء سرهم بغير عهد وميثاق، وزعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها، وتأولوا

في ذلك قوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[(١)] وحملوا اليقين على معرفة التأويل)[(٢)].

قال ابن الجوزي - رحمه الله - في كتابه تلبيس أبليس: (الباطنية قوم تستروا بالإسلام ومالوا إِلَى الرفض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة، فمحصول قولهم تعطيل الصانع، وإبطال النبوة والعبادات، وإنكار البعث، ولكنهم لا يظهرون هَذَا فِي أول أمرهم، بل يزعمون أن اللهَّ حق، وأن محمدا رَسُول اللهِّ، والدين صَحِيح، لكنهم يقولون لذلك سر غير ظاهر، وَقَدْ تلاعب بهم إبليس، فبالغ وحسن لهم مذاهب مختلفة، ولهم ثمانية أسماء. الاسم الأَوَّل الباطنية: سموا بذلك لأنهم يدعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورتها توهم الجهال صورا حلية، وهي عند العقلاء رموز وإشارات إِلَى حقائق خفية، وأن من تقاعد عقله من الغوص عَلَى الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال، التي هي تكليفات الشرع ومن ارتقى إِلَى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه، قالوا: وهم

(١) سورة الحجر: ٩٩.

(٢) الفرق بين الفرق (ص٢٦٥-٢٨٠).

المرادون بقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[(١)] ومرادهم: أن ينزعوا من العقائد موجب الظواهر، ليقدروا بالتحكم بدعوى الباطل عَلَى أبطال الشرائع)[(٢)].

وكذلك قال – رحمه الله – تعالى: (قال أبو حامد الطوسي: الباطنية قوم يدعون الإسلام، ويميلون إلى الرفض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام، فمن مذهبهم القول بآلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان، إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني، قالوا: والسابق لا يوصف بوجود ولا عدم، ولا هو موجود ولا هو معدوم، ولا هو معلوم ولا هو مجهول، ولا هو موصوف ولا غير موصوف، وحدث عن السابق الثاني، وهو أول مبدع، ثم حديث النفس الكلية، وعندهم أن النبي عليه السلام عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق بواسطة الثاني قوة قدسية صافية، وزعموا أن جبريل عليه السلام عبارة عن العقل الفائض عليه، لا أنه شخص، واتفقوا على أنه لا بد لكل عصر مع إمام معصوم قائم بالحق يرجع إليه في تأويل الظواهر، مساو للنبي عليه السلام في العصمة، وأنكروا المعاد، وقالوا معنى المعاد عود الشيء إلى

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٢)تلبيس إبليس: (١٢٤/١٢٥).

أصله، وتعود النفس إلى أصلها، وأما التكليف فالمنقول عنهم الإباحة المطلقة، واستباحة المحظورات، وقد ينكرون هذا إذا حكى عنهم، وإنما يقرون بأنه لا بد للإنسان من التكليف، فإذا اطلع على بواطن الظواهر ارتفعت التكاليف، ولما عجزوا عن صرف الناس عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها، إذ لو صرحوا بالنفي المحض لقتلوا، فقالوا معنى الجنابة مبادرة المستجيب بإفشاء المستجيب بإفشاء السر، ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك، ومعنى الزنى إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس من لم يسبق معه عقد العهد، والصيام الإمساك عن كشف السر، والكعبة هي النبي، والباب علي، والطوفان طوفان العلم أغرق به المتمسكون بالشبهة. . .

وكم من زنديق في قلبه حقد على الإسلام خرج فبالغ واجتهد فزخرف دعاوي يلقي بها من يصحبه وكان غور مقصده في الاعتقاد الانسلال من ربقة الدين، وفي العمل نيل الملذات واستباحة المحظورات، فمنهم بابك الخرمي حصل له مقصوده من اللذات، ولكن بعد أن قتل الناس وبالغ في الأذى ثم القرامطة. . .)[1].

(١) تلبيس إبليس: (١٣٠-١٣٦).

ومن أبرز العلماء الذين كشفوا عوار الباطنية، وعلى رأسهم النصيرية[١]، شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -، وهو من أعرف الناس بالباطنيين؛ حيث تكلم عن عقائدهم، مثل تظاهرهم بالرفض، وإبطانهم الكفر المحض، وعدم إيمانهم بالله، ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار ولا بأحد من المرسلين قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا بملة من الملل السالفة فقال - رحمه الله -: (هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى؛ بل وأكفر من كثير من المشركين وضررهم على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم؛ فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع، وموالاة أهل

---

(١) النصيرية: فرقة باطنية ظهرت في القرن الثالث للهجرة، تنتسب إلى محمد بن نصير النميري، وتسمى النميرية، يقولون بألوهية علي بن أبي طالب ﷺ وأنه حل في الشمس والقمر، لذلك هم يعظمون الشمس والقمر، ويحلون المحرمات، ويعتقدون بتناسخ الأرواح، وكلمة السر عندهم ثلاثة أحرف: ع م س، أي: علي محمد سلمان، ولهم كتاب مقدس غير القرآن ويعتبرهم أهل السنة خارجين عن الإسلام، ولا يصح أن يعاملوا معاملة المسلمين، بسبب أفكارهم الغالية وآرائهم المتطرفة ومن ذلك آراؤهم التي تهدم أركان الإسلام فهم لا يصلون الجمعة ولا يتمسكون بالطهارة ولهم قداسات شبيهة بقداسات النصارى ولا يعترفون بالحج أو الزكاة الشرعية المعروفة في الإسلام. انظر: التبصير في الدين للإسفراييني ص (١٢٤)، الملل والنحل للشهرستاني (١/١٨٨)، فرق معاصرة د. غالب عواجي (١/١٢٤)، الموسوعة الميسرة (١/٣٩٥).

البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله، ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار ولا بأحد من المرسلين قبل محمد – صلى الله عليه وسلم – ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها؛ يدعون أنها علم الباطن، . . . وأما غير هذا الجنس، فإنه ليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته، وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه؛ إذ مقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق مع التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها من جنس ما ذكر السائل، ومن جنس قولهم: أن " الصلوات الخمس " معرفة أسرارهم، " والصيام المفروض " كتاب أسرارهم " وحج البيت العتيق " زيارة شيوخهم، وأن ﴿يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾[(١)] هما أبو بكر وعمر، وأن البناء العظيم والإمام المبين هو علي بن أبي طالب: ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين؛ كما قتلوا مرة الحجاج وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود وبقي عندهم مدة، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وصنفوا كتبا

---

(١) سورة المسد: ١.

كثيرة مما ذكره السائل وغيره، وصنف علماء المسلمين كتبا في كشف أسرارهم وهتك أستارهم؛ وبينوا فيها ما هم عليه من الكفر والزندقة والإلحاد، الذي هم به أكفر من اليهود والنصارى، ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام. وما ذكره السائل في وصفهم قليل من الكثير الذي يعرفه العلماء في وصفهم)[(١)].

ثم ذكر البلاء الذي حصل بالإسلام وأهله بسبب وقوف الباطنيين مع أعداء الإسلام من يهود ونصارى وغيرهم على مرّ الأزمان فقال رحمه الله: (ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائما مع كل عدو للمسلمين؛ فهم مع النصارى على المسلمين ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل، وانقهار النصارى؛ بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار. ومن أعظم أعيادهم إذا استولى – والعياذ بالله تعالى – النصارى على ثغور المسلمين، فإن ثغور المسلمين ما زالت بأيدي المسلمين، حتى جزيرة قبرص يسر الله فتحها عن قريب، وفتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين " عثمان بن عفان " – رضي الله عنه –، فتحها " معاوية بن أبي سفيان " إلى أثناء المائة الرابعة.

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/٥٠٦).

فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل؛ ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره؛ فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك. . . ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين لا بمعاونتهم ومؤازرتهم؛ فإن منجم هولاكو الذي كان وزيرهم وهو " النصير الطوسي " كان وزيرا لهم بالألموت، وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء)(١).

ثم ذكر شيخ الإسلام - رحمه الله - عدة ألقاب لهم، وكلها تؤدي إلى أصل واحد فقال - رحمه الله -: (ولهم " ألقاب " معروفة عند المسلمين تارة يسمون " الملاحدة " وتارة يسمون " القرامطة " وتارة يسمون " الباطنية " وتارة يسمون " الإسماعيلية " وتارة يسمون " النصيرية " وتارة يسمون " الخرمية "، وتارة يسمون " المحرمة " وهذه الأسماء منها ما يعمهم، ومنها ما يخص بعض أصنافهم، كما أن الإسلام والإيمان يعم المسلمين ولبعضهم اسم يخصه إما لنسب، وإما لمذهب، وإما لبلد، وإما لغير ذلك).

ثم بين شيخ الإسلام - رحمه الله - قول علماء الإسلام فيهم وبين أن حقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بكتب ولا برسل، وأنهم أخذوا عقائدهم

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/٥٠٦-٥٠٧).

الفاسدة من الطبائعيين الملاحدة، والمجوس، (وهم كما قال العلماء فيهم: ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض. وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين؛ لا بنوح، ولا إبراهيم، ولا موسى، ولا عيسى ولا محمد – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين –، ولا بشيء من كتب الله المنزلة، لا التوراة، ولا الإنجيل، ولا القرآن. ولا يقرون بأن للعالم خالقا خلقه ولا بأن له دينا أمر به، ولا أن له دارا يجزي الناس فيها على أعمالهم على هذه الدار.

وهم تارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطبيعيين أو الإلهيين، وتارة يبنونه على قول المجوس الذين يعبدون النور، ويضمون إلى ذلك الرفض. . . فإن هؤلاء لهم في إظهار دعوتهم الملعونة التي يسمونها " الدعوة الهادية " درجات متعددة، ويسمون النهاية " البلاغ الأكبر، والناموس الأعظم " ومضمون البلاغ الأكبر جحد الخالق تعالى؛ والاستهزاء به، وبمن يقر به، حتى قد يكتب أحدهم اسم الله في أسفل رجله، وفيه أيضا جحد شرائعه ودينه وما جاء به الأنبياء، ودعوى أنهم كانوا من جنسهم طالبين للرئاسة، فمنهم من أحسن في طلبها، ومنهم من أساء في طلبها حتى قتل، ويجعلون محمدا وموسى من القسم الأول، ويجعلون المسيح من القسم الثاني. وفيه من الاستهزاء بالصلاة، والزكاة والصوم، والحج ومن تحليل نكاح

ذوات المحارم، وسائر الفواحش: ما يطول وصفه. ولهم إشارات ومخاطبات يعرف بها بعضهم بعضا. وهم إذا كانوا في بلاد المسلمين التي يكثر فيها أهل الإيمان فقد يخفون على من لا يعرفهم)[1].

ثم بين شيخ الإسلام اتفاق علماء المسلمين على عدم جواز الزاوج منهم أو تزويجهم، وعدم حل ذبائحهم، ولا يصلى على أحد منهم ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يؤتمنون في جعلهم في ثغور المسلمين، وأن جهادهم من أوجب الواجبات، بالسنان، واللسان، والبنان فقال - رحمه الله -: (وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا تجوز مناكحتهم؛ ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم. . . ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، ولا يصلى على من مات منهم؛ فإن الله سبحانه وتعالى نهى نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن الصلاة على المنافقين: كعبد الله بن أبي، ونحوه؛ وكانوا يتظاهرون بالصلاة والزكاة والصيام والجهاد مع المسلمين؛ ولا يظهرون مقالة تخالف دين الإسلام؛ لكن يسرون ذلك، فقال الله: ﴿ وَلَا

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥٠٨/٣).

تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾(١)
فكيف بهؤلاء الذين هم مع الزندقة والنفاق يظهرون الكفر والإلحاد.

وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر. وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم: فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة وهم شر من المخامر الذي يكون في العسكر؛ فإن المخامر قد يكون له غرض: إما مع أمير العسكر، وإما مع العدو. وهؤلاء مع الملة، نبيها ودينها، وملوكها؛ وعلمائها، وعامتها، وخاصتها، وهم أحرص الناس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين، وعلى إفساد الجند على ولي الأمر، وإخراجهم عن طاعته. والواجب على ولاة الأمور قطعهم من دواوين المقاتلة فلا يتركون في ثغر، ولا في غير ثغر؛ فإن ضررهم في الثغر أشد، وأن يستخدم بدلهم من يحتاج إلى استخدامه من الرجال المأمونين على دين الإسلام، وعلى النصح لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم؛ بل إذا كان ولي الأمر لا يستخدم من يغشه وإن كان مسلما فكيف بمن يغش المسلمين

(١) سورة التوبة: ٨٤.

كلهم؟ ، ، ولا يجوز له تأخير هذا الواجب مع القدرة عليه؛ بل أي وقت قدر على الاستبدال بهم وجب عليه ذلك. . .

ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب؛ فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدءوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب؛ فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد المسلمين، وأن يدخل فيه من أراد الخروج عنه. وجهاد من لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين. وحفظ رأس المال مقدم على الربح.

وأيضا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك؛ بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم في الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب.

ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم؛ بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ولا يحل لأحد أن يعاونهم على بقائهم في الجند

والمستخدمين، ولا يحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله به ورسوله. ولا يحل لأحد أن ينهى عن القيام بما أمر الله به ورسوله؛ فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى: وقد قال الله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾[(١)] وهؤلاء لا يخرجون عن الكفار والمنافقين)[(٢)].

تبين لنا من خلال هذا المبحث مواقف أبرز علماء الإسلام من الباطنيين الملاحدة، حيث ذكر علماء الإسلام عقائدهم الباطلة، من الكفر بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعدم امتثالهم شرائع الإسلام، والقيام بتفسيرها تفسيرا باطنياً، ووصفوهم بأنهم أكفر من اليهود والنصارى، وأنهم وراء كل هزيمة للإسلام وأهله، وقد حكم علماء المسلمين بتحريم تزويجهم والزواج منهم، وعدم حل ذبائحهم، ولا يجعلون في ثغور المسلمين، ولا تزال آثار الباطنيين في الوقت الحاضر بارزة للعيان في بعض البلدان الإسلامية، حيث تسلطوا عليها بمعاونة أعداء الإسلام لهم، فساموا

---

(١) سورة التوبة: ٧٣.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/٥٠٨-٥١٢).

المسلمين سوء العذاب، بالقتل، والحبس، والتعذيب، وانتهاك الأعراض، وتخريب الديار، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الباب الثالث: منهج الإمام ابن القيم - رحمه الله - وجهوده في الرد على الملاحدة.

وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: استدلاله بالأدلة الشرعية في الرد على الملاحدة.

الفصل الثاني: استدلاله بأدلة الفطرة والعقل في رده على الملاحدة.

الفصل الثالث: استدلاله بالحس والمشاهدة في رده على الملاحدة.

الفصل الرابع: منهج ابن القيم في عرض الحكم والأسرار والغايات الحميدة في بديع خلق الله تعالى.

الفصل الخامس: جهود الإمام ابن القيم – رحمه الله – في عرض شبهات الملاحدة ونقضها.

الفصل السادس: منهجه من استدلالات أهل الكلام في الرد على الملاحدة.

الفصل السابع: مقارنة بين منهج ابن القيم – رحمه الله – ومنهج من جاء بعده في الرد على الملاحدة.

بعد أن انتهينا من الباب الثاني بفصوله الأربعة، المتعلقة بفرق الملاحدة وأصنافهم، وكان آخر مبحث منه يتعلق بملاحدة الباطنيين، وها نحن ندخل الباب الثالث، وهو يتعلق بجهود ابن القيم – رحمه الله – في الرد على الملاحدة باستدلاله بالأدلة الشرعية، و الفطرة، والعقل، والحس والمشاهدة، ثم بعد ذلك عرض الحكم في بديع خلق الله تعالى، وعرض شبهات الملاحدة ونقضها، ومنهجه من استدلالات أهل الكلام، ثم مقارنة بين منهج ابن القيم – رحمه الله – ومنهج من جاء بعده في الرد على الملاحدة.

الفصل الأول:

استدلاله بالأدلة الشرعية في الرد على الملاحدة.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: استدلاله بأدلة القرآن وبراهينه .

المبحث الثاني: استدلاله بأدلة السنة .

المبحث الثالث: استدلاله بدلائل النبوة .

المبحث الرابع: استدلاله بإجماع الأمـم .

في هذا الفصل سيدور الكلام حول استدلالات ابن القيم بالأدلة الشرعية في الرد على الملاحدة، حيث كانت استدلالاته بأدلة القرآن، والسنة، ودلائل النبوة، وإجماع الأمم.

المبحث الأول:

استدلاله بأدلة القرآن وبراهينه

سنتعرف في هذا المبحث على استدلال ابن القيم – رحمه الله – بآيات من القرآن الكريم في الرد على الملاحدة، وهذا مايسميه العلماء بالرد بالنقل؛ حيث قام ابن القيم – رحمه الله – تعالى في بالرد على الملاحدة بأدلة القرآن ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]، ثم أخذ يوضح معنى هذا الدليل بقوله: (فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا فهل خلقوا من غير خالق خلقهم فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق.

ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانيا بناها.

ثم قال: ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعا ولا ظفرا ولا شعرة كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه؟! .

---

(١) سورة الطور: ٣٥.

وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقا خلقهم، وفاطرا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلها غيره وهو وحده الخالق لهم؟! فإن قيل: فما موقع قوله: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[(١)] من هذه الحجة؟

قيل أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقا وفاطرا، وأنهم مخلوقون، وبين بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم، ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار، الذي لا إله غيره ولا رب سواه، هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن، بخلق العالم العلوي والسفلي وما فيه)[(٢)].

ومن ذلك استدلال ابن القيم - رحمه الله - تعالى في رده على الملاحدة بالآيات التي فيها الدعوة الى النظر، والتفكر في أطوار خلق الإنسان وغيره من المخلوقات؛ حيث قال - رحمه الله -: (وإذا تأملت ما دعى الله سبحانه في كتابه عباده الى الفكر فيه، اوقعك على العلم به - سبحانه وتعالى -

(١)سورة الطور: ٣٦.
(٢) الصواعق المرسلة: (٢/٤٩٣-٤٩٤).

وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته ورحمته، وإحسانه وبره، ولطفه وعدله، ورضاه وغضبه، وثوابه وعقابه، فبهذا تعرف إلى عباده، وندبهم إلى التفكر في آياته، ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه، يستدل بها على غيرها، فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه الى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾(٤) وقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ

---

(١)سورة الطارق: ٥.

(٢)سورة الذاريات: ٢١.

(٣)سورة الحج: ٥.

(٤) سورة القيامة: ٣٦ – ٤٠.

﴿٢٣﴾[1] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾[2]
وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[3] وهذا كثير في القرآن، يدعو العبد الى النظر والفكر في مبدأ خلقه، ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الانسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره، قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾[4])[5].

وكذلك استدل ابن القيم - رحمه الله - تعالى بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ

---

(١) سورة المرسلات: ٢٠ - ٢٣.
(٢) سورة يس: ٧٧.
(٣) سورة المؤمنون: ١٢ - ١٤.
(٤) سورة عبس: ١٧.
(٥)مفتاح دار السعادة: (١/١٨٧-١٨٨).

﴿٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ٤٠﴾[١] ثم قال: (فاحتج سبحانه على أنه لا يترك الإنسان مهملا معطلا عن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وإن حكمته وقدرته تأبى ذلك، فإن من نقله من نطفة مني ومن المني إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم خلقه وشق سمعه وبصره، وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع، والأعصاب والرباطات التي هي أشد، وأتقن خلقه وأحكمه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي أشم الصور وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية؟ أم كيف تقتضي حكمته وعنايته أن يتركه سدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته[٢].

ثم ذكر في موضع آخر من مختصر الصواعق استدلالاً آخر بالقرآن بقوله: (وإن القرآن وحده لمن جعل الله له نورا أعظم آية ودليل على هذه المطالب، وليس في الأدلة أقوى ولا أظهر ولا أصح دلالة منه من وجوه متعددة، فأدلته مثل ضوء الشمس للبصر، لا يلحقها إشكال، ولا يغير في وجه دلالتها إجمال، ولا يعارضها تجويز واحتمال، تلج الأسماع بلا استئذان، وتحل من المعقول محل الماء الزلال، ومن الصادي الظمآن لا يمكن أحد أن

(١) سورة القيامة: ٣٦ – ٤٠.

(٢)مختصر الصواعق: (ص٦٨).

يقدح فيها قدحا يوقع في اللبس، إلا إن أمكنه أن يقدح بالظهيرة صحوا في طلوع الشمس، ومن عجيب شأنها أنها تستلزم المدلول استلزاما بينا وتنبه على جواب المعترض تنبيها لطيفا، وهذا الأمر إنما هو لمن نور الله بصيرته وفتح على قلبه لأدلة القرآن، فلا تعجب من منكر أو معترض أو معارض.

وقل للعيون العمي للشمس أعين　　سواك تراها في مغيب ومطلع
وسامح نفوسا أطفأ الله نورها　　بأهوائها لا تستفيق ولا تعي

فأيُّ دليلٍ على الله أصح من الأدلة التي تضمنها كتابه؟ كقوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[١] وقوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[٣] وما لا يحصى من الآيات الكريمات)[٤].

---

(١) سورة إبراهيم: ١٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٨.

(٣) سورة البقرة: ١٦٤.

(٤) مختصر الصواعق: (ص١٦٩).

وأخيراً استدل ابن القيم - رحمه الله - تعالى بأدلة القرآن، فيها الرد على الملاحدة بقوله: (إن كل سورة من القرآن تتضمن إثبات هذه المسألة، وفيها أنواع من الأدلة عليها، فأدلتها تزيد على عشرة آلاف دليل، فأول سورة في القرآن تدل عليها من وجوه كثيرة، وهي سورة أم الكتاب، فإن قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[1] يدل عليها، فإنه سبحانه يحمد على أفعاله كما حمد نفسه في كتابه، وحمده عليها رسله وملائكته والمؤمنون من عباده، فمن لا فعل له ألبتة كيف يحمد على ذلك؟ فالأفعال هي المقتضية للحمد، ولهذا تجده مقرونا بها كقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[2]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾[3]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾[4] الثاني: قوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5] وربوبيته للعالم تتضمن تصرفه فيه وتدبيره له، وإنفاذ أمر كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن: يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه.

---

(١) سورة الفاتحة: ٢.

(٢) سورة الأنعام: ١.

(٣) سورة الأعراف: ٤٣.

(٤) سورة الكهف: ١.

(٥) سورة الفاتحة: ٢.

الثالث: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ ﴾[١] هو الذي يرحم بقدرته ومشيئته من لم يكن له راحما قبل ذلك.

الرابع: قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[٢] والملك هو المتصرف فيما هو ملك عليه ومالك له، ومن لا تصرف له ولا يقوم به فعل ألبتة لا يعقل له ثبوت ملك.

الخامس: قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[٣] فهذا سؤال الفعل يفعله لهم لم يكن موجودا قبل ذلك، وهي الهداية التي هي فعله.

السادس: قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾[٤] وفعله القائم به وهو الإنعام، فلو لم يقم به فعل الإنعام لم يكن للنعمة وجود البتة.

السابع: قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾[٥]وهم الذين غضب الله عليهم بعدما بعدما أوجدهم وقام بهم سبب الغضب، إذ الغضب على المعدوم محال، وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " «أن العبد إذا قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ

(١) سورة الفاتحة: ٣.

(٢) سورة الفاتحة: ٤.

(٣) سورة الفاتحة: ٦.

(٤) سورة الفاتحة: ٧.

(٥) سورة الفاتحة: ٧.

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(١)] يقول الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[(٢)] قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[(٣)] قال الله تعالى: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[(٤)] قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»[(٥)] "، فهذه أدلة من الفاتحة وحدها.

فتأمل أدلة الكتاب العزيز على هذا الأصل تجدها فوق عد العادين، حتى إنك تجد في الآية الواحدة على اختصار لفظها عدة أدلة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(٦)]، ففي هذه الآية عدة أدلة: أحدها: قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ ﴾[(٧)]وهذا أمر التكوين الذي لا يتأخر عنه أمر المكون بل يعقبه الثاني: ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا ﴾[(٨)] (وإذا) تخلص الفعل للاستقبال

(١) سورة الفاتحة: ٢.
(٢) سورة الفاتحة: ٣.
(٣) سورة الفاتحة: ٤.
(٤) سورة الفاتحة: ٥.
(٥) رواه مسلم برقم (٣٩٥) (١/٢٩٦).
(٦) سورة يس: ٨٢.
(٧) سورة يس: ٨٢.
(٨) سورة يس: ٨٢.

الثالث: ﴿ أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(١)]، (وأن) تخلص المضارع للاستقبال الرابع: ﴿أَن يَقُولَ ﴾[(٢)] فعل مضارع إما للحال عاما أو للاستقبال، الخامس: قوله: ﴿كُن ﴾[(٣)]، وهما حرفان يسبق أحدهما الآخر يعقبه الثاني، السادس: قوله: ﴿فَيَكُونُ ﴾[(٤)]، والفاء للتعقيب يدل على أنه يكون عقب قوله: ﴿كُن ﴾ سواء لا يتأخر عنه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[(٥)] فهو سبحانه إنما كلمه ذلك الوقت، وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ ﴾[(٦)]، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾[(٧)]، وقوله: وقوله: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾[(٨)] فالنداء إنما حصل ذلك الوقت، وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾[(٩)]، ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾[(١٠)]، ﴿ ثُمَّ

(١) سورة يس: ٨٢.
(٢) سورة يس: ٨٢.
(٣) سورة يس: ٨٢.
(٤) سورة يس: ٨٢.
(٥) سورة الأعراف: ١٤٣.
(٦) سورة مريم: ٥٢.
(٧) سورة القصص: ٦٢
(٨) سورة الأعراف: ٢٢.
(٩) سورة البقرة: ٢١٠.
(١٠) سورة الفجر: ٢٢.

ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾[١]، ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً ﴾[٢]، ﴿ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[٣]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[٤]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ ﴾[٥]، ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾[٦]، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾[٧]، ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾[٨]، ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ ﴾[٩]، ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾[١٠] وهذا عند النفاة لا حقيقة له، بل الشئون للمفعولات، وأما هو فله شأن واحد قديم، فهذه الأدلة السمعية وأضعاف

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

(٢) سورة الإسراء: ١٦.

(٣) سورة هود: ١٠٧.

(٤) سورة البقرة: ١٨٥.

(٥) سورة النساء: ٢٨.

(٦) سورة النساء: ٢٧.

(٧) سورة القصص: ٥ – ٦.

(٨) سورة الأحزاب: ٤.

(٩) سورة المجادلة: ١.

(١٠) سورة الرحمن: ٢٩.

أضعافها مما يشهد به صريح العقل، فإنكار ذلك وإنكار تكثر الصفات وتعدد الأسماء هو أفسد للعقل والنقل وافتح بابًا للمعارضة"[(١)].

فبهذا تمخض لنا من هذا المبحث، تنويع ابن القيم - رحمه الله - في استدلاله بآيات القرآن وبراهينة في رده على الملاحدة، حيث فيها الدعوة إلى النظر والتفكر في أول نشأة الإنسان، ووسطها وآخرها، وبمعنى آخر النظر والتفكر بما يمر به الإنسان من أطوار ثلاثة، في بطن أمه، وهذه الآيات التي استدل بها ابن القيم - رحمه الله - تعالى إضافة إلى أنها أدلة نقلية، فإنها تتضمن أدلة عقلية.

(١)مختصر الصواعق: (١٧١-١٧٢).

المبحث الثاني:

استدلاله بأدلة السنة

بعدما استدل ابن القيم – رحمه الله – بأدلة القرآن في رده على الملاحدة أخذ يستدل في هذا المبحث بأدلة السنة[١] في رده على الملاحدة الطبائعيين

---

(١) السنة هي المصدر الثاني في التشريع، وهي وحي كالقرآن، مبينة له، ومفصلة لما أجمل فيه، وهي تنقسم في عمومها إلى قسمين متواتر وآحاد فالمتواتر هو: ما أخبر بِهِ جمَاعَة بلغُوا فِي الْكَثْرَة مبلغا تحيل الْعَادة تواطؤهم على الْكَذِب فِيهِ، والآحاد هو: مَا لم يجمع شُرُوط التَّوَاتُر، وهو ثلاثة أقسام: عزيز ومشهور وغريب.

ومذهب أهل السنة والجماعة أنهم لا يفرقون في الاحتجاج بين متواتر وآحاد، والدليل الشرعي إذا صحَّ عن رسول الله ﷺ أفاد العلم وأوجب العمل، وعلى هذا إجماع السلف من الصحابة والتابعين، فإنه لا يعلم عن أحد منهم التفريق في الأخذ بالأدلة بين العقائد والأحكام، بل قد تلقت الأمة أخبار الآحاد بالقبول علماً وعملاً، والتفريق بين مسائل الاعتقاد ومسائل الأحكام وأنه لا يؤخذ بالآحاد في المسائل العقدية ويؤخذ به في المسائل العملية، إنما هو مذهب متأخري المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة، وقولهم هذا فيه صدٌ عن الشرع وإبعاد للناس عن دين الله، إذ أكثر الأحاديث آحاد، والمتواتر نادر الوجود يجعله بعض أهل العلم بعدد الأصابع، وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة، ومذهبهم في عدم الاحتجاج بخبر الواحد في العقائد مبني على أن خبر الآحاد لا يفيد العلم وإنما يفيد الظن، وقد نص جمع من العلماء سلفاً وخلفاً على أن أخبار الآحاد تفيد العلم؛ منهم: الإمام مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحاب أبي حنيفة، وداود بن علي الظاهري، وابن حزم، والحسين الكرابيسي، والحارث بن أسد المحاسبي، وابن خواز منداد، وجماعة ذكرهم ابن القيم في كتابه الصواعق المرسلة، بل قد ذكر ابن القيم –رحمه الله– أن بعض أهل العلم يرى كفر من يجحد ما ثبت بخبر الواحد العدل، وأخبار الآحاد وإن لم تفد اليقين فإن الظن الغالب حاصل منها، ولا يمتنع إثبات مسائل العقيدة بها كما لا يمتنع إثبات الأحكام العملية بها، والقول بعدم الأخذ بأخبار الآحاد في العقيدة يلزم منه لوازم باطلة، منها رد أكثر الشرع، واعتقاد نقصانه، ومنها أيضاً ما ذكره شيخ الإسلام –رحمه الله– بقوله:" وربما يرتقي هذا القول إلى أعظم من هذا، فإن النبي ﷺ أدى هذا الدين إلى الواحد فالواحد من أصحابه ليؤدوه إلى الأمة وينقلوه عنه، فإذا لم يقبل قول الراوي لأنه واحد رجع هذا العيب إلى المؤدي، نعوذ بالله من هذا القول البشع والاعتقاد القبيح.ا.هـ"، وبالجملة فإن هذه المسألة من أشنع المسائل التي وقع فيها أهل البدع، وقد ردوا بها كثيراً من الأدلة، ونفوا كثيراً من الصفات معتمدين على هذا القول الفاسد، ومن ثَمّ حكَّموا عقولهم في صفات الله تعالى بالنفي والتحريف والتأويل الفاسد، تركوا شرع الله تعالى وسنة نبيه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى. انظر: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل
=

حيث قال - رحمه الله - تعالى: (ولا تلتفت إلى ما يقوله الجهلة من الطبائعيين في سبب الإذكار والإيناث وإحالة ذلك على الأمور الطبيعية التي لا تكاد تصدق في هذا الموضع إلا اتفاقا، وكذبها أكثر من صدقها، وليس استناد الإذكار والإيناث إلا إلى محض المرسوم الإلهي الذي يلقيه إلى ملك التصوير حين يقول يا رب ذكر أم أنثى شقي أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيوحي ربك ما يشاء ويكتب الملك[1]، فإذا كان للطبيعة تأثيرا في الإذكار والإيناث فلها تأثير في الرزق والأجل والشقاوة والسعادة، وإلا فلا، إذ مخرج الجميع ما يوحيه الله إلى الملك، ونحن لا ننكر أن لذلك أسبابا أخر ولكن تلك من الأسباب التي استأثر الله بها دون البشر قال الله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ إلى قوله ﴿ قَدِيرٌ ﴾[2] فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال أحدها من تلد الإناث فقط، الثانية: من تلد الذكور فقط، الثالثة: من تلد الزوجين الذكر والأنثى، وهو معنى التزويج هنا، أن يجعل ما يهب له زوجين ذكرا أو أنثى، الرابعة: العقيم التي لا تلد أصلا، ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر، وإنما يعلم بالوحي، ما روى مسلم في

للباقلاني ص (٥١٥)، التلخيص في أصول الفقه للجويني (٢١٣/١)، لمع الأدلة للجويني ص (١٠٤)، الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (٣٧٩/١)، الانتصار للعمراني (١٩١/١-١٩٢)، أساس التقديس للرازي ص (١٢٧)، جواب الاعتراضات المصرية لشيخ الإسلام ص (٤٣) وما بعدها، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٧/٦)، المسودة لآل تيمية ص (٢٢٠)، مختصر الصواعق المرسلة لابن الموصلي (١٤٠٠/٤-١٦٤٠)، اليواقيت والدرر شرح شرح نخبة الفكر (١/ ٢٩٣)، توجيه النظر إلى أصول الأثر للسمعوني (١/ ١٠٨)، خبر الواحد وحجيته د. أحمد الشنقيطي ص (١٨٠) وما بعدها.

(١) ورد في ذلك حديث وقد تقدم تخريجه.

(٢) سورة الشورى: ٤٩ — ٥٠.

صحيحه من حديث ثوبان قال: كنت عند النبي فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي» قال اليهودي: جئت أسالك. فقال رسول الله: أينفعك شيء إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله بعود معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض والسموات؟ فقال رسول الله: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة، قال: «فقراء المهاجرين»، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: «زيادة كبد حوت ذي النون» قال: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها» قال فما شرابهم عليه قال «من عين تسمى سلسبيلا قال: صدقت. وجئت أسالك عن شيء لايعلمه إلا نبي، أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف فقال رسول الله «لقد سألني عن هذا الذي سألني عنه ومالي علم به حتى أتاني الله به»[1].

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعا، فالذكر يقذف ماءه في رحم الانثى، وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه، فيلتقى الماءان على أمر قد قدره الله وشاءه، فيخلق الولد بينهما جميعا، وأيهما غلب كان

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٢٥٢) رقم (٣١٥).

الشبه له، كما في صحيح البخاري عن حميد، عن أنس، قال بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي فاتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال: ما أول اشراط الساعة، وما أول طعام يأكله اهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله: «أخبرني بهن آنفا جبريل» فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له، وإن سبقت كان الشبه لها» فقال: أشهد انك رسول الله وذكر الحديث(١).

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ قال: «نعم إذا رأت الماء الأصفر» فضحكت أم سلمة، فقالت: أو تحتلم المرأة؟! فقال رسول الله «فيم يشبهها الولد»(٢) فهذه الأحاديث الثلاثة تدل على أنَّ الولد يخلق من الماءين، وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين، وقهره للآخروعلوه عليه، وان الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له، وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها، ولا تعلم إلَّا بالوحي، وليس في صناعتهم أيضا ما ينافيها، . . . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث عبد الله بن ابي بكر، عَن انس، عَن النَّبِي قَالَ: «إن الله وكل بالرحم ملكا، فَيَقُول يَا رب نُطْفَة، يَا رب علقَة، يَا رب مُضْغَة، فَإِذا أراد أن يخلقها، قَالَ: يَا رب أذكر أم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٣٢) رقم (٣٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٤) رقم (٦٠٩١)، ومسلم في صحيحه (١/ ٢٥١) رقم (٣١٣).

أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فَمَا الرزق فَمَا الأجل فَيكْتب كَذَلِك فِي بطن امهِ»[(١)] أَفلا ترى كَيفَ أحَال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة، وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة، والرزق والأجل، ولم يتعرض الملك لكتبه الذي للطبيعة فيه مدخل، أولا ترى عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه، ولم يسال عن الإذكار والإيناث، مع انه أبلغ من الشبه والله أعلم، وإن كان رسول الله قد قاله فهو عين الحق، وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث والله أعلم)[(٢)].

نخرج من المبحث وهو استدلال ابن القيم – رحمه الله – بأدلة السنة في رده على الملاحدة، أنه أتى بشبهتهم التي لبسها عليهم إبليس، في أن سبب الإذكار والإيناث إنما هي الطبيعة، ثم قام بتفنيد شبهتهم مخاطباً لهم بأن الإذكار والإيناث مما اختص بالله عز وجل.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/٧٠) رقم (٣١٩)، ومسلم في صحيحه (٤ ٢٠٣٨) رقم (٢٦٤٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٢٥٨-٢٦٠).

المبحث الثالث:

استدلاله بدلائل النبوة

بعد استدلال ابن القيم – رحمه الله – تعالى بأدلة السنة في رده على الملاحدة في المبحث السابق أسوق في هذا المبحث استدلال ابن القيم – رحمه الله – بدلائل النبوة في رده على الملاحدة حيث قال – رحمه الله – تعالى: (قد سلك بعض مشايخنا في هذه الطرق الاستدلال بمقدماتها النبوة ومعجزات الرسالة التي دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها، فلما ثبتت النبوة صارت أصلا في وجوب قبول ما دعا إليه الرسول – صلى الله عليه وسلم –، قال: وهذا النوع مقنع في الاستدلال لمن لم يتسع فهمه لإدراك وجوه الأدلة، ولم يتبين معاني تعلق الأدلة بمدلولاتها، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. . . وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله تعالى آيات بينات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعبانا عظيما يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أدل دليل على وجود الصانع، وحياته وقدرته ومشيئته وإرادته، وعلمه بالكليات والجزئيات ؛ وعلى رسالة الرسول، وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا وكذلك اليد ؛ وفلق البحر طرقا، والماء قائم بينهما كالحيطان،

ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رءوسهم، وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عينا تكفي أمة عظيمة)(١).

ثم شرع ابن القيم – رحمه الله – بذكر معجزات بعض الأنبياء من ذلك إحدى معجزاته – صلى الله عليه وسلم –، وهي انشقاق القمر نصفين بمرأى من الحاضر والغائب، وأمثال ذلك مما هو أعظم الأدلة على الخالق وصفاته وأفعاله وصدق رسله فقال – رحمه الله –: (وكذلك سائر آيات الأنبياء كإخراج ناقة عظيمة من صخرة تمخضت بها ثم انصدعت عنها والناس حولها ينظرون، وكذلك تصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبي، فينقلب طائرا ذا لحم ودم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس، وكذلك إيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين بحيث يراه الحاضر والغائب ويخبر به كما رآه الحاضرون، وأمثال ذلك مما هو أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله، وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد إليها عباده ودلهم بها، كما دلهم بما يشاهدونه من أحوال الحيوان والنبات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو وأحوال العلويات من السماء والشمس والقمر والنجوم، وأحوال النطفة وتقلبها طبقا بعد طبق، حتى صارت إنسانا

(١)مختصر الصواعق: (ص١٩٧).

سميعا حيا متكلما عالما قادرا يفعل الأفعال العجيبة ويعلم العلوم العظيمة، وكل طريق من هذه الطرق أصح وأقرب وأوصل من طرق المتكلمين، التي لو صحت لكان فيها من التطويل والتعقيد والتعسير ما يمنع الحكمة الإلهية والرحمة الربانية، أن يدل بها عباده عليه وعلى صدق رسله وعلى اليوم الآخر، فأين هذه الطريق العسرة الباطلة المستلزمة لتعطيل الرب عن صفاته وأفعاله وكلامه وعلوه على خلقه وسائر ما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله – صلى الله عليه وسلم – إلى طرق القرآن التي هي ضد هذه الطريق من كل وجه، وكل طريق منها كافية شافية هادية)[1].

ويتلخص لنا في هذا المبحث أن ابن القيم – رحمه الله – استدل في رده على الملاحدة بدلائل النبوة، وهي معجزات الأنبياء عليهم السلام حيث بين – رحمه الله – أن الاستدلال بدلائل النبوة جمعت بين دلالة الحس والعقل وأنها من أقوى الطرق وأعظم الأدلة على الخالق وصفاته وأفعاله وصدق رسله عليهم السلام وبيَّن – رحمه الله – أن الله سمى هذه المعجزات آيات بينات.

---

(١) المصدر نفسه.

المبحث الرابع:

استدلاله بإجماع الأمم

بعد مبحث الاستدلال بدلائل النبوة في الرد على الملاحدة أذكر في هذا المبحث استدلال ابن القيم - رحمه الله - في رده على الملاحدة بإجماع الأمم واتفاقهم، حيث قال - رحمه الله -: (إن الأصل الذي قادهم إلى التعطيل، واعتقاد المعارضة بين الوحي والعقل أصل واحد، وهو منشأ ضلال بني آدم، وهو الفرار من تعدد صفات الواحد وتكثر أسمائه الدالة على صفاته، وقيام الأمور المتجددة به، وهذا لا محذور فيه، بل هو الحق لا يثبت كونه سبحانه ربا وإلها وخالقا إلا به، ونفيه جحد للصانع بالكلية، وهذا القدر اللازم لجميع طوائف أهل الأرض على اختلاف مللهم وعلومهم، حتى لمن أنكر الصانع بالكلية وأنكره رأسا، فإنه يضطر إلى الإقرار بذلك، وإن قام عنده ألف شبهة أو أكثر على خلافه، وأما من أقر بالصانع فهو مضطر إلى أن يقر بكونه حيا عالما قادرا مريدا حكيما فعالا، ومع إقراره بذلك فقد اضطر إلى القول بتعدد صفات الواحد، وتكثر أسمائه وأفعاله، فلو تكثرت لم يلزم من تكثرها وتعددها محذور بوجه من الوجوه.

وإن قال: أنا أنفيها بالجملة ولا أثبت تعددها بوجه قيل له: فهل هو هذه الموجودات أو غيرها؟ فإن قال: غيرها قيل: هو خالقها أم لا؟ فإن قال: هو خالقها قيل له: هل هو قادر عليها عالم بها مريد لها أم لا؟ فإن قال: نعم هو كذلك، اضطر إلى تعدد صفاته وتكثرها، وإن نفى ذلك كان جاحدا للصانع

بالكلية، ويستدل عليه بما يستدل على الزنادقة الدهرية، ويقال لهم ما قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾[١] وهل يستدل عليه بدليل هو أظهر للعقول من إقرارها به وبربوبيته.

وليس يصح في الأذهان شيء　　إذا احتاج النهار إلى دليل

فإن قال: أنا أثبته موجودا واجب الوجود لا صفة له قيل له: فكل موجود على قولك أكمل منه، وضلال اليهود والنصارى وعباد الأصنام أعرف به منك، وأقرب إلى الحق والصواب منك، وأما فرارك من قيام الأمور المتجددة به ففررت من أمر لا يثبت كونه إلها وربا وخالقا إلا به، ولا يتقرر كونه صانعا لهذا العالم مع نفيه أبدا ؛ وهو لازم لجميع طوائف أهل الأرض، حتى الفلاسفة الذين هم أبعد الخلق من إثبات الصفات، ولهذا قال بعض عقلاء الفلاسفة: إنه لا يتقرر كونه رب العالمين إلا بإثبات ذلك، قال: والإجلال من هذا الإجلال واجب، والتنزيه من هذا التنزيه متعين، قال بعض العلماء: وهذه المسألة يقوم عليها قريب من ألف دليل عقلي وسمعي والكتب الإلهية والنصوص النبوية ناطقة بذلك، وإنكار لما علم بالضرورة من دين الرسل أنهم جاءوا به)[٢].

---

(١) سورة إبراهيم: ١٠

(٢) مختصر الصواعق: (ص١٧٠-١٧١).

وأخيراً استدل ابن القيم - رحمه الله - تعالى بإجماع الأمم واتفاقها بقوله: (ثبت بالعقل إمكان رؤيته تعالى، وبالشرع وقوعها في الآخرة، فاتفق الشرع والعقل على إمكان الرؤية ووقوعها، فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجودا كان أحق أن يرى، فالباري سبحانه أحق أن يرى من كل ما سواه، لأن وجوده أكمل من كل موجود سواه.

يوضحه: إن تعذر الرؤية إما لخفاء المرئي، وإما لآفة وضعف في الرائي ؛ والرب سبحانه أشهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه، فإذا كان الرائي في دار البقاء كانت قوة البصر في غاية القوة لأنها دائمة، فقويت على رؤيته تعالى، وإذا جاز أن يرى، فالرؤية المعقولة له عند جميع بني آدم، عربهم وعجمهم وتركهم وسائر طوائفهم، أن يكون المرئي مقابلا للرائي مواجها له بائنا عنه، لا تعقل الأمم رؤية غير ذلك، وإذا كانت الرؤية مستلزمة لمواجهة الرائي ومباينة المرئي، لزم ضرورة أن يكون مرئيا له، من فوقه، أو من تحته، أو عن يمينه، أو عن شماله، أو خلفه، أو أمامه، وقد دل النقل الصريح على أنهم إنما يرونه سبحانه من فوقهم، لا من تحتهم، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة. سلام عليكم، ثم قرأ: ﴿ سَلَٰمٌ

قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[1] ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»[2] فلا يجتمع الإقرار بالرؤية وإنكار الفوقية والمباينة)[3].

يتبين لنا من خلال هذا المبحث أن ابن القيم - رحمه الله - رد على الملاحدة محتجاً بإجماع الأمم واتفاقهم، وبين - رحمه الله - فيه أنهم عطلوا وضلوا بسبب اعتقادهم أنه ثم تعارض بين الوحي والعقل، ثم استدل بإجماع الأمم على رؤية الله عز وجل، حيث أن الشرع والعقل اتفقا على إمكان الرؤية ووقوعها، وذلك يستلزم وجود الخالق سبحانه وتعالى وهذا فيه رد على الملاحدة المعطلة للرب سبحانه.

---

(١) سورة يس: ٥٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/٦٥) رقم (١٨٤) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٣٦٣).

(٣) مختصر الصواعق: (١٨٠)، والأولى في الاستدلال في هذا أن يكون بإجماع الأمة والاستشهاد بإجماع الأمم على وجود الله ردًا بذلك على الملاحدة.

الفصل الثاني:

استدلاله بأدلة الفطرة والعقل في رده على الملاحدة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: استدلاله بأدلة الفطرة.

المبحث الثاني: استدلاله بأدلة العقل.

بعدما ذكرت استدلال ابن القيم - رحمه الله - في رده على الملاحدة سأذكر في هذا الفصل استدلاله - رحمه الله - بأدلة الفطرة والعقل في الرد على الملاحدة.

المبحث الأول:

استدلاله بأدلة الفطرة

سأسوق في هذا المبحث استدلال ابن القيم - رحمه الله - بأدلة الفطرة في الرد على الملاحدة، حيث بين - رحمه الله - أم الفطر شهدت بأن للعالم رباً قادرا حليما عليما رحيماً كاملا في ذاته وصفاته، قد فطر فيهم استحسان الحسن واستقباح القبيح حيث قال - رحمه الله -: (قد شهدت الفطر والعقول بأن للعالم ربا قادرا حليما عليما رحيما، كاملا في ذاته وصفاته، لا يكون إلا مريدا للخير لعباده، مجريا لهم على الشريعة والسنة الفاضلة العائدة باستصلاحهم، الموافقة لما ركب في عقولهم، من استحسان الحسن واستقباح القبيح، وما جبل طباعهم عليه، من إيثار النافع لهم المصلح لشأنهم، وترك الضار المفسد لهم، وشهدت هذه الشريعة له بأنه احكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه المحيط بكل شيء علما، وإذا عرف ذلك فليس من الحكمة الإلهية بل ولا الحكمة في ملوك العالم، إنهم يسوون بين من هو تحت تدبيرهم في تعريفهم، كلما يعرفه الملوك وإعلامهم جميع ما يعلمونه، واطلاعهم على كل ما يجرون عليه سياساتهم في انفسهم، وفي منازلهم حتى لا يقيموا في بلد فيها إلا اخبروا من تحت ايديهم بالسبب في ذلك، والمعنى الذي قصدوه منه، ولا يأمرون رعيتهم بأمر، ولا يضربون عليهم بعثا ولا يسوسونهم سياسة إلا أخبروهم بوجه ذلك، وسببه وغايته، ومدته، بل لا تتصرف بهم الأحوال في مطاعمهم، وملابسهم، ومراكبهم، إلا اوقفوهم على أغراضهم فيه، ولا شك أن هذا

مناف للحكمة والمصلحة بين المخلوقين، فكيف بشأن رب العالمين؟! وأحكم الحاكمين الذي لا يشاركه في علمه ولا حكمته أحد أبدا، فحسب العقول الكاملة أن تستدل بما عرفت من حكمته على ما غاب عنها، وتعلم أن له حكمة في كل ما خلقه وأمر به وشرعه، وهل تقتضي الحكمة أن يخبر الله تعالى كل عبد من عباده بكل ما يفعله؟! ويوقفهم على وجه تدبيره في كل ما يريده؟! وعلى حكمته في صغير ما ذرأ وبرأ من خليقته؟! وهل في قوى المخلوقات ذلك؟! بل طوى سبحانه كثيرا من صنعه، وأمره عن جميع خلقه، فلم يطلع على ذلك ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، والمدبر الحكيم من البشر إذا ثبتت حكمته وابتغاؤه الصلاح لمن تحت تدبيره وسياسته كفى في ذلك تتبع مقاصده فيمن يولي ويعزل، وفي جنس ما يأمر به وينهي عنه، وفي تدبيره لرعيته وسياسته لهم، دون تفاصيل كل فعل من أفعاله، اللهم إلا أن يبلغ الأمر في ذلك مبلغا لا يوجد لفعله منفذ ومساغ في المصلحة أصلا فحينئذ يخرج بذلك عن استحقاق اسم الحكيم، ولن يجد أحد في خلق الله ولا في أمره ولا واحدا من هذا الضرب، بل غاية ما تخرجه نفس المتعنت أمور يعجز العقل عن معرفة وجوهها وحكمتها، وأما أن ينفى ذلك عنها فمعاذ الله إلا أن يكون ما أخرجه كذب على الخلق الأمر فلم يخلق الله ذلك ولا شرعه، وإذا عرف هذا فقد علم أن رب العالمين أحكم الحاكمين، والعالم بكل شيء

والغني عن كل شيء، والقادر على كل شيء ومن هذا شأنه لم تخرج أفعاله وأوامره قط عن الحكمة والرحمة والمصلحة، وما يخفى على العباد من معاني حكمته في صنعه وإبداعه وأمره وشرعه، فيكفيهم فيه معرفته بالوجه العام أن تضمنته حكمة بالغة، وإن لم يعرفوا تفصيلها، وأن ذلك من علم الغيب الذي استأثر الله به فيكفيهم في ذلك الاسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة، التي علموا ما خفي منها بما ظهر لهم، هذا وأن الله تعالى بني أمور عباده على أن عرفهم معاني جلائل خلقه وأمره، دون دقائقهما وتفاصيلهما، وهذا مطرد في الأشياء أصولها وفروعها، فأنت إذا رأيت الرجلين مثلا أحدهما اكثر شعرا من الآخر، أو أشد بياضا، أو أحدّ ذهنا، لأمكنك أن تعرف من جهة السبب الذي أجرى الله عليه سنة الخلقية على وجه اختصاص كل واحد منهما بما اختص به، وهكذا في اختلاف الصور والأشكال، ولكن لو أردت أن تعرف لماذا كان شعر هذا مثلا يزيد على شعر الآخر بعدد معين، أو المعنى الذي فضله به في القدر المخصوص، والتشكيل المخصوص، ومعرفة القدر الذي بينهما من التفاوت، وسببه، لما أمكن ذلك أصلا، وقس على هذا جميع المخلوقات، من الرمال والجبال والأشجار، ومقادير الكواكب وهيئاتها، وإذا

كان لا سبيل إلى معرفة هذا في الخلق، بل يكفي فيه العلة العامة، والحكمة الشاملة، فهكذا في الأمر يعلم أن جميع ما أمر به متضمن لحكمة بالغة)[١].

يتلخص لنا في هذا المبحث أن ابن القيم - رحمه الله - قد استدل بأدلة الفطرة في رده على الملاحدة حيث شهدت فطر الناس بأن للعالم رباً كاملاً في ذاته وصفاته مريداً للخير لعباده، وقد ركب في عقولهم من استحسان الحسن واستقباح القبيح وجبل في طباعهم إيثار النافع لهم وترك الضار المفسد لهم.

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٣٠٤-٣٠٥).

المبحث الثاني:

استدلاله بأدلة العقل

تقدم في المبحث السابق ذكر كلام ابن القيم في الاستدلال بأدلة الفطرة، وفي هذا المبحث يبين ابن القيم – رحمه الله – الاستدلال بأدلة العقل مبيناً طرق العلم وأنها ثلاثة الحس والعقل والمركب منها وأن المطلوبات كذلك ثلاثة أقسام ما يعلم بالعقل أو بالسمع أو بالعقل والسمع فقال – رحمه الله –: أن طرق العلم ثلاثة: الحس، والعقل، والمركب منهما، فالمعلومات ثلاثة أقسام: أحدها: ما يعلم بالعقل، والثاني: ما يعلم بالسمع، والثالث: ما يعلم بالعقل والسمع، وكل منها ينقسم إلى ضروري ونظري، وإلى معلوم ومظنون وموهوم، فليس كل ما يحكم به العقل يكون علما، بل قد يكون ظنا أو وهما كاذبا، كما أن ما يدركه السمع والبصر كذلك، فلا بد من حاكم يفصل بين هذه الأنواع، فإذا اتفق العقل والسمع أو العقل والحس على قضية كانت معلومة يقينية، وإذا انفرد بها الحس عن العقل كانت وهمية، كما ذكر من أغلاط الحس في رؤية المتحرك أشد الحركة وأسرعها ساكنا، والساكن متحركا، والواحد اثنين والاثنين واحدا، والعظيم الجرم صغيرا والصغير كبيرا، والنقطة دائرة، وأمثال ذلك، وهذه الأمور يجزم بغلطها لتفرد الحس بها عن العقل.

وكذلك حكم السمع قد يكون كاذبا، وقد يكون صادقا، ضرورة ونظرا، وقد يكون ظنيا، فإذا قارنه العقل كان حكمه علما ضروريا ونظريا،

كالعلم بمخبر الأخبار المتواترة فإنه حصل بواسطة السمع والعقل، فإن السمع أدى إلى العقل ما سمعه من ذلك، والعقل حكم بأن المخبرين لا يمكن تواطؤهم على الكذب فأفاده علما ضروريا أو نظريا على الاختلاف في ذلك بوجود المخبر به، والنزاع في كونه ضروريا أو نظريا لا فائدة فيه، وكذلك الوهم يدرك أمورا، لا يدرى صحيحة هي أم باطلة فيردها إلى العقل الصريح، فما صححه منها قبله وما حكم ببطلانه رده، فهذا أصل يجب الاعتبار به وبه يعرف الصحيح من الفاسد)(١).

ثم أخذ ابن القيم – رحمه الله – يسأل الملاحدة الجاحدين للخالق سبحانه عن آلة دائرة على نهر اسمها دولاب يسقي بستانًا فيه من كل الثمرات، وفيه من يهتم بهذا البستان، ويرتبه ويقسمه وينظفه، هكذا طوال العام بل على الدوام كل ذلك اتفاقاً من غير فاعل ولا مدبر ولا مختار فهل يصدق العاقل هذا. قال – رحمه الله –: (فسل المعطل الجاحد ما تقول في دولاب دائر على نهر قد احكمت آلاته، وأحكم تركيبه، وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللا في مادته، ولا في صورته، وقد جعل على حديقة عظيمة، فيها من كل أنواع الثمار والزروع، يسقيها

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ١١٩).

حاجتها، وفي تلك الحديقة من يلم شعثها، ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها، فلا يختل منها شيء، ولا يتلف ثمارها، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج، بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به، ويقسمه هكذا على الدوام، أترى هذا اتفاقا، بلا صانع ولا مختار ولا مدبر، بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة، وكل ذلك اتفاقا من غير فاعل، ولا قيم، ولا مدبر؟ أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان؟ وما الذي يفتيك به؟ وما الذي يرشدك إليه؟ ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوبا عميا لا بصائر لها، فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية، كما خلق أعيناً لا أبصار لها، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وهي لا تراها، فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها، فهي تقول في ضوء النهار: هذا ليل، ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئاً ولقد احسن القائل

وهبني قلت: هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء) [1].

يتلخص لنا في هذا المبحث أن ابن القيم – رحمه الله – تعالى استدل بأدلة العقل في رده على الملاحدة، حيث بين – رحمه الله – أن ليس كل ما يحكم به العقل يكون علماً، بل قد يكون ظنا أو وهما كاذبا فلا بد من حاكم يفصل

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٢١٤).

بينها، فإذا اتفق العقل والسمع، أو العقل والحس على قضية كانت معلومة يقينية، وإذا انفرد بها الحس عن العقل كانت وهمية.

وأخيراً أخذ ابن القيم يسأل الملاحدة الجاحدين عن هذه المخلوقات العظيمة من العالم العلوي والسفلي، وسيرها بانتظام واستمرار، أترى هذا حصل اتفاقاً من غير صانع ولا مدبر؟! .

الفصل الثالث:

استدلاله بالحس والمشاهدة في رده على الملاحدة

في هذا الفصل سأتكلم عن استدلال ابن القيم – رحمه الله – بالحس والمشاهدة، في الرد على الملاحدة، وذلك بعد أن ذكرتُ في الفصل السابق استدلاله بأدلة الفطرة والعقل في رده على الملاحدة، فقد استدل – رحمه الله – بالحس والمشاهدة مثل مقدمات النبوة، ومعجزات الرسالة وذكر أنها من أقوى الطرق وأهمها وأدلها على الخالق وصفاته وأفعاله وصدق رسله واليوم الآخر. فقال – رحمه الله –: (قال الخطابي: وإنما سلك المتكلمون في الاستدلال بالأعراض مذهب الفلاسفة، وأخذوه عنهم، وفي الأعراض اختلاف كثير، منهم من ينكرها، ولا يثبتها رأسا، ومنهم من لا يفرق بينها وبين الجواهر في أنها قائمة بأنفسها كالجواهر، قلت: ومنهم من يقول بكمونها وظهورها، ومنهم من يقول بعدم بقائها، ثم سلك طرقا في إثبات الصانع، منها الاستدلال بأحوال الإنسان من مبدئه إلى غايته، والاستدلال بأحوال الحيوان والنبات والأجرام العلوية، وغير ذلك، ثم قال: والاستدلال بطريق الأعراض لا يصح إلا بعد استبراء هذه الشبه، وطريقنا الذي سلكناه بريء من هذه الآفات، سليم من هذه الريب، قال: وقد سلك بعض مشايخنا في هذا طريق الاستدلال بمقدمات النبوة، ومعجزات الرسالة، التي دلائلها مأخوذة من طرق الحس لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها، فلما ثبتت النبوة صارت أصلا في وجوب قبول ما دعى إليه، النبي

صلى الله عليه وسلم – قال: وهذا النوع مقنع في الاستدلال لمن لم يتسع فهمه لإدراك وجوه الأدلة، ولم يتبين معاني تعلق الأدلة بمدلولاتها ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها)[1].

ثم إن ابن القيم - رحمه الله - أخذ يبين أن طريق الاستدلال بمقدمات النبوة ومعجزات الرسالة، هي من أقوى الطرق وأصحها، وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله لأنها جمعت بين دلالة الحس والعقل فقال - رحمه الله -: (قلت وهذه الطريق من أقوى الطرق، وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته، وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية، بنفسها ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعبانا عظيما يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أدل الدليل على وجود الصانع، وحياته، وقدرته، وإرادته، وعلمه بالكليات، والجزئيات، وعلى رسالة الرسول، وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا، وكذلك اليد، وفلق البحر طرقا، والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١١٩٦/٣-١١٩٧).

العسكر العظيم فوق رؤوسهم، وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عينا، تكفي أمة عظيمة، وكذلك سائر آيات الأنبياء، فإخراج ناقة عظيمة من صخرة تمخضت بها، ثم انصدعت عنها، والناس حولها ينظرون، وكذلك تصوير طائر من طين، ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائرا ذا لحم ودم، وريش وأجنحة، يطير بمشهد من الناس، وكذلك إيماء الرسول إلى القمر، فينشق نصفين، بحيث يراه الحاضر والغائب، فيخبر به كما رآه الحاضرون، وأمثال ذلك مما هو من أعظم الأدلة على الصانع، وصفاته وأفعاله، وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد إليها عباده، ودلهم بها كما دلهم بما يشاهدونه من أحوال الحيوان والنبات والمطر والسحاب، والحوادث التي في الجو وفي الأرض، وأحوال المعلومات من السماء، والشمس، والقمر، والنجوم، وأحوال النطفة، وتقلبها طبقا بعد طبق، حتى صارت إنسانا، سميعا، بصيرا، حيا، متكلما، عالما، قادرا يفعل الأفعال العجيبة، ويعلم العلوم العظيمة، فكل طريق من هذه الطرق أصح، وأقرب، وأسهل، وأوصل، من طرق المتكلمين، التي لو صحت لكان فيها من التطويل والتعقيد والتعسير ما يمنع الحكمة الإلهية، والرحمة الربانية أن يدل بها عباده عليه، وعلى صدق رسله، وعلى اليوم الآخر، فأين هذه الطريق الطويلة العسرة الباطلة المستلزمة لتعطيل الرب عن صفاته وأفعاله وكلامه

وعلوه على خلقه وإنكار وجهه الأعلى ويديه الكريمتين ورؤيته في الدار الآخرة وسائر ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله إلى طرق القرآن التي هي ضد هذه الطريق من كل وجه؟! وكل طريق منها كافية شافية هادية، وإن صرفها الله لعباده ونوعها: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[(١)])[(٢)].

ثم ذكر ابن القيم – رحمه الله –، أمثلة عن الحس والمشاهدة مما فيه أبلغ رد على الملاحدة، الذين ينكرون الخالق سبحانه فقال عن النحل: (وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب، وذلك أن لها أميرا، ومدبرا، وهو اليعسوب[(٣)]، وهو أكبر جسما من جميع النحل، وأحسن لونا وشكلا، وإناث النحل تلد في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكن إناثا، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها، بل إما أن تطرده، وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك، وذلك أن الذكر منها لا تعمل شيئا، ولا تكسب، ثم تجمع الأمهات وفراخها عند الملك، فيخرج بها إلى المرعى من المروج والرياض والبساتين،

---

(١) سورة الأنفال: ٤٢.

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/١١٩٧-١١٩٩).

(٣) اليعسوب هو: فحل النحل وسيدها، وهو الذَّكَر العظيم منها الذي تتبعه، وكثر ذلك حتى سمّوا كلَّ رئيس يَعسوباً، وفلان يعسوب قومه أي سيدهم. انظر: غريب الحديث لابن سلام (٣/٤٣٩-٤٤٠). جمهرة اللغة لابن دريد (٢/١٢٠٠).

والمراتع، في أقصد الطرق وأقربها، فيجتني منها كفايتها فيرجع بها الملك، فإذا انتهوا إلى الخلايا وقف على بابها، ولم يدع ذكرا ولا نحلة غريبة تدخلها، فإذا تكامل دخولها دخل بعدها، وتواجدت النحل على مقاعدها، وأماكنها، فيبتدئ الملك بالعمل، كأنه يعلمها إياه، فيأخذ النحل في العمل، ويتسارع إليه، ويترك الملك العمل، ويجلس ناحية، بحيث يشاهد النحل، فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق، والأنوار، ثم تقتسم النحل فرقا، فمنها فرقة تلزم الملك ولا تفارقه، ولا تعمل، ولا تكسب، وهم حاشية الملك، من الذكورة، ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه، والشمع هو ثفل العسل، وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل ويصفيه، ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها، وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء، وتحمله على متونها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف، والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعها وقتلها، حتى لا تفسد عليهن بقية العمال، وتعديهن ببطالتها، ومهانتها، وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته، فيبنى له بيتا مربعا يشبه السرير، والتخت، فيجلس عليه طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص، لا يفارقنه ويجعل النحل بين يديه شيئا يشبه الحوض، يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه، ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعاما للملك

وخواصه، ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية، كأنها سكك ومحال، وتبنى بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب أقليدس، حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها؛ لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة، والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلا مستديرا، كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضا، حتى يصير طبقا واحدا محكما، لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر، فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم، الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين: إحداهما: أن لا يكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلا. الثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعا، ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط، فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها، بل يبقى فيما بينها فروج خاليه ضائعة، وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين، فهداها سبحانه على بناء بيوتها على هذا الشكل، من غير مسطر، ولا آلة، ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة،

فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها، وتأتها ذللا، لا تستعصي عليها، ولا تضل عنها، وأن تجتني أطيب ما في المرعى وألطفه. . .)[(١)].

وقال عن النمل: (وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها، وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة، بعيدة، ذات صعود وهبوط، في غاية من التوعر، حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها، في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين؛ لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوما ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها، ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[(٢)] فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من

---

(١) شفاء العليل (ص٦٦–٦٧)

(٢) سورة النمل: ١٨.

العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية، وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[١] ثم قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾[٢] فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروفا بالنمل، كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها، حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾[٣] فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: وهم لا يشعرون، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكا من قولها، وأنه لموضع تعجب وتبسم)[٤].

(١) سورة النمل: ١٧.
(٢) سورة النمل: ١٨.
(٣) سورة النمل: ١٨.
(٤) شفاء العليل (ص٦٨-٦٩)

وقال عن الحمام: (وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية، حتى قال الشافعي: "أعقل الطير الحمام" وبرد الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب، ربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد، فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها، وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول، والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيما، فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السفاد، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها، والإناث عن ذكورها، ويخافون عليها من فساد أنسابها، وحملها من غيرها، ويتعرفون صحة طرقها، ومحلها، لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكرا من عرض الحمام فتعتريها الهجنة، والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها! والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء، بحيث إذا رأوا حماما ساقطا لم يخف عليهم حسبها، ونسبها، وبلدها، ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة، وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له، ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها، ويقولون هو أحن إلى بيته، لمكان أنثاه، وهو أشد متنا، وأقوى بدنا، وأحسن اهتداء، وطائفة منهم يختار لذلك الإناث ويقولون الذكر إذا سافر وبعد عهده حن إلى الإناث، وتاقت نفسه إليهن، فربما رأى أنثى في طريقه

ومجيئه، فلا يصبر عنها فيترك المسير ومال إلى قضاء وطره، منها وهدايته على قدر التعليم والتوطين، والحمام موصوف باليمن والألف للناس، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان، ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه، وإن أساء إليه ويعود إليه من مسافات بعيدة، وربما صد فترك وطنه عشر حجج، وهو ثابت على الوفاء، ويرفع صدره ثم يعتريه ضرب من الوله، والأنثى في ذلك مرسلة جناحها وكتفها على الأرض، فإذا قضى حاجته منها ركبته الأنثى، وليس ذلك في شيء من الحيوان سواه، وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد يقدم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش، وصغار العيدان، فيعملان منه أفحوصة، وينسجانها نسجا متداخلا في الوضع الذي يكون بقدر جيمان الحمامة ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة؛ لئلا يتدحرج عنها البيض، ويكون حصنا للحاضن، ثم يتعاودان ذلك المكان، ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه ويطيبانه وينفيان طباعه الأول، ويحدثان فيه طبعا آخر مشتقا ومستخرجا من طباع أبدانهما، ورائحتهما؛ لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان ووضعت فيه البيض، فإن أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تسقط من الفزع، فإذا وضعت البيض في ذلك المكان، لم

يزالا يتعاقبان الحضن، حتى إذا بلغ الحضن مداه، وانتهت أيامه، انصدع عن الفرخ، فأعاناه على خروجه، فيبدآن أولاً بنفخ الريح في حلقه، حتى تتسع حوصلته، علما منهما بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء، فتتسع الحوصلة بعد التحامها، وتنفتق بعد ارتقاقها، ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئا فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء، وفيه قوى الطعم، ثم يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء، وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية، لتكون لها بعض المتانة فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو، ويزقانه الفرخ، ثم يزقانه بعد ذلك الحب، الذي هو أقوى وأشد، ولا يزالان يزقانه بالحب والماء، على تدريج بحسب قوة الفرخ، وهو يطلب ذلك منهما، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط، منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللقط ويعتاده، وإذا علما أن رئته قد قويت ونمت، وأنهما إن فطماه فطما تاما قوي على اللقط، وتبلغ لنفسه، ضرباه إذا سألهما الزق، ومنعاه ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما، وينسيان ذلك التعطف المتمكن، حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بنفسه، والتكسب، ثم يبتدآن العمل ابتداء على ذلك النظام)[1].

---

(١) شفاء العليل (ص٧١-٧٢)

ثم ختم - رحمه الله - الكلام بقوله (وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه، وعجيب تدبيره، ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف وغوامض الحيل وحسن التدبير والتأني لما تريده ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته، ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثا، ولم يترك سدى، وأن له سبحانه في كل مخلوق حكمة باهرة، وآية ظاهرة، وبرهانا قاطعا، يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم)[(١)].

يتلخص لنا من هذا المبحث أن الاستدلال بالحس والمشاهدة مثل مقدمات النبوة ومعجزات الرسالة، وهداية الله للمخلوقات كالنحل، والنمل والحمام وغيرها في تدبير أمور معيشتها من أقوى الطرق وأهمها وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد الله عز وجل إليها عباده.

---

(١) شفاء العليل (ص٧٨).

الفصل الرابع:

منهج ابن القيم في عرض الحكم والأسرار والغايات الحميدة في بديع خلق الله تعالى.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ذكر ابن القيم لبعض أسرار خلق الإنسان، واستدلاله بها على وجوه الله تعالى.

المبحث الثاني: ذكر ابن القيم لبعض أسرار خلق الحيوانات، واستدلاله بها على وجود الله تعالى.

المبحث الثالث: ذكر ابن القيم لبعض أسرار خلق الأجرام السماوية والأرضية، واستدلاله بها على وجود الله تعالى.

بعدما ذكرتُ كلام ابن القيم - رحمه الله - في استدلاله بالحس والمشاهدة على وجود الخالق سبحانه، وبما يتضمن على عظيم خلقه وصنعه، وفيه رد على الملاحدة المنكرين للخالق سبحانه، سأذكر في هذا الفصل كلام ابن القيم – رحمه الله – في ذكر الحكم والأسرار والغايات الحميدة في بديع خلق الله سبحانه وتعالى للمخلوقات، من إنسان وحيوان ونباتات، وأجرام سماوية، بأسلوب رائع قل إن تجد مثله في الصياغة والتنويع، فقال – رحمه الله –: (إن الله سبحانه وتعالى فطر عباده حتى الحيوان البهيم على استحسان وضع الشيء في موضعه، والإتيان به في وقته، وحصوله على الوجه المطلوب منه، وعلى استقباح ضد ذلك وخلافه، وأن الأول دال على كمال فاعله وعلمه وقدرته وخبرته، وضده دال على نقصه وعلى نقص علمه وقدرته وخبرته، وهذه فطرة لا يمكنهم الخروج عن موجبها، ومعلوم أن الذي فطرهم على ذلك وجعله فيهم أولى به منهم فهو سبحانه يضع الأشياء في مواضعها التي لا يليق بها سواها، ويخصها من الصفات والأشكال والهيئات والمقادير، بما هو أعلم بها من غيره، ويبرزها في أوقاتها وأزمنتها المناسبة لها التي لا يليق بها سواها، ومن له نظر صحيح وفكر مستقيم وأعطى التأمل حقه شهد بذلك فيما رآه وعلمه، واستدل بما شاهده على ما خفي عنه، فإن الكل صنع الحكيم العليم، ويكفي في هذا ما يعلمه من حكمة خلق الحيوان، وأعضائه وصفاته

وهيئاته، ومنافعه واشتماله على الحكمة المطلوبة منه أتم اشتمال، وقد ندب سبحانه عباده إلى ذلك فقال: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[1] وقال: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾[2] إلى آخرها، وكذلك جميع ما يشاهد من مخلوقاته عاليها وسافلها، وما بين ذلك، إذا تأملها صحيح التأمل والنظر، وجدها مؤسسة على غاية الحكمة، مغشاة بالحكمة، فقرأ سطور الحكمة على صفحاتها، وينادي عليها هذا صنع العليم الحكيم وتقدير العزيز العليم، فإن وجدت العقول أوفق من هذا فلتقترحه، أو رأت أحسن منه فلتبده، ولتوضحه ذلك صنع ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[3] ومن نظر في هذا العالم وتأمل أمره حق التأمل علم قطعا، أن خالقه أتقنه وأحكمه غاية الإتقان والإحكام، فإنه إذا تأمله وجده كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده، فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والمنافع مخزونة كالذخائر، كل شيء منها لأمر يصلح له، والإنسان كالمالك المخول فيه، وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف

(١) سورة الذاريات: ٢١.

(٢) سورة الغاشية: ١٧.

(٣) سورة الملك: ٣ – ٤.

الحيوان مصرفة في مصالحه، فمنها ما هو للدر والنسل والغذاء فقط، ومنها ما هو للركوب والحمولة فقط، ومنها ما هو للجمال والزينة، ومنها ما يجمع ذلك كله كالإبل، وجعل أجوافها خزائن لما هو شراب وغذاء ودواء وشفاء، ففيها عبرة للناظرين، وآيات للمتوسمين، وفي الطير واختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها ومقاديرها ومنافعها وأصواتها صافات[١] وقابضات[٢] وغاديات[٣] ورائحات[٤] ومقيمات وظاعنات[٥] أعظم عبرة وأبين دلالة على حكمة الخلاق العليم، وكل ما أوجده الناس وأولوه بالا بالأفكار الطويلة والتجارب المتعددة من أصناف الآلات والمصانع وغيرها إذا فكر فيها المتفكر

---

(١) الصف: هو بسط الأجنحة، ومعنى صافات: باسطات أجنحتها. انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٢/٨٣)، وغريب الحديث للخطابي (٣/٧٠).

(٢) القبض: هو الإسراع في الطيران. انظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٥٠)، ومختار الصحاح للرازي ص (٢٤٦).

(٣) الغدو: السير بالغداة، والغادي: الْفَاعِل من الغُدُوّ، وَكَذَلِكَ الغادي من السَّحَاب: المبكِّر بالمطر. انظر: جمهرة اللغة لان دريد (٢/ ١٠٥٩).

(٤) الرواح: السير من لدن زوالِ الشَّمسِ إلى الليل، رحنا رواحاً، يعني السير والعمل بالعشيّ، وتَروَّحْنا: سرنا فِي ذَلِك الْوَقْت أَو عَملنَا. انظر: العين للخليل (٣/٢٩١)، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٣/٥١١).

(٥) الظعن: هو الشخوص من السفر، وهو ضد الإقامة، وهو في الأصل بمعنى السير. انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٢/١٨٠)، الصحاح للجوهري (٦/٢١٥٩).

وجدها مشتقة من الخلقة، مستنبطة من الصنع الإلهي، مثال ذلك: القبان[(١)] مستنبطة من خلقة البعير، كأنهم لما رأوه ينهض بحمله وينوء به يمد عنقه ويوازن حمله برأسه، استنبطوا القبان من ذلك وجعلوا طول حديدته في مقابلة طول العنق، ورمانة القبان في مقابلة رأس البعير، فتم لهم ما استنبطوه وكذلك استنبطوا بناء الأقباء من ظهره، فإنهم وجدوه يحمل ما لا يحمله غيره، فتأملوا ظهره فإذا هو كالقبو، فعلموا أن القبو يحمل ما لا يحمله السطح، وكذلك ما استنبطه الحذاق لمن كل بصره أن يديم النظر إلى إجانة مملوءة خضرة ماء، استنباطا من حكمة الخلاق العليم في لون السماء، فإن لونها أشد الألوان موافقة للبصر، وتقويته فجعل أديمها بهذا اللون. . .)[(٢)].

وسأذكر في مباحث هذا الفصل كلام ابن القيم – رحمه الله –، لبعض أسرار خلق الإنسان والحيوان، والأجرام السماوية والأرضية.

---

(١) القبان: الميزان، والقسطاس. انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٢٣٨/٨)، ومعجم ديوان الأدب للفارابي (٧٣/٢).

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١٥٦٥/٤)، وانظر مختصر الصواعق ٢٦٢-٢٤٠، وكلام ابن القيم رحمه الله في هذا الباب يدل على إثبات وجود الله تعالى، ويدل إيضًا على توحيده سبحانه وتعالى ووجوب عبادته.

المبحث الأول:

ذكر ابن القيم لبعض أسرار خلق الإنسان، واستدلاله بها على وجود الله تعالى

بعد ما ذكرت كلام ابن القيم - رحمه الله - في عجائب خلق الله للإنسان والحيوان والأجرام السماوية إجمالاً، سأذكر في هذا المبحث كلامه تفصيلاً في عجائب خلق الله في الإنسان، من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، بدأً بالأطوار التي يمر بها الإنسان منذ كان في بطن أمه، من النطفة فالعلقة فالمضغة وبعد خروجه من بطن أمه ويصير إنساناً متكاملاً، ذا سمع وبصر وعقل، فبين بعدها - رحمه الله - أجهزة الإنسان الباطنية والخارجية وما أودع الله فيها من الحكم والأسرار وعظيم خلق الله فيها، فقال - رحمه الله -: (وإذا تأملت ما دعى الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه، أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى، وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته واحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه، فبهذا تعرف إلى عباده، وندبهم إلى التفكر في آياته، ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه يستدل بها على غيرها، فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه، والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ

---

(١)سورة الطارق: ٥.

(٢)سورة الذاريات: ٢١.

ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ ﴾(1) وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾(2) وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(3) وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾(4) وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾(5) وهذا كثير في القرآن، يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على

---

(١)سورة الحج: ٥.

(٢) سورة القيامة: ٣٦ – ٤٠.

(٣) سورة المرسلات: ٢٠ – ٢٣.

(٤) سورة يس: ٧٧.

(٥) سورة المؤمنون: ١٢ – ١٤.

بعضه، وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره قال الله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾[١] فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا، لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب، وإليه جرى ذلك الحديث، فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب، منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها، واختلاف مجاريها، إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها، وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع، الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارا مكينا، لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض

---

(١) سورة عبس: ١٧ - ٢٢.

يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها، وحقيقتها وشكلها، ثم جعله عظاما مجردة، لا كسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها، وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين، وبين ذلك، ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط، وأشده وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحما ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهي محفوظة به وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف، وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين، وبسطهما، وقسم رؤوسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة، والكبد والطحال، والرئة والرحم والمثانة، والأمعاء، كل واحد منها له قدر يخصه، ومنفعة تخصه، ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما للبدن، وعمادا له، وكيف قدرها ربه وخالقها بتقادير مختلفة، وأشكال مختلفة، فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض، فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط، وكيف اختلفت اشكالها

باختلاف منافعها، كالأضراس فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة، ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة، ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظما واحدا، بل عظاما متعددة، وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة، وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه، وكيف شد اسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفي العظم، وألصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط له، ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه، وفي الآخر نقرا غائصة فيه، موافقة لشكل تلك الزوائد، ليدخل فيها وينطبق عليها، فإذا أراد العبد أن يحرك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه، وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام، حتى قيل إنها خمسة وخمسون عظما، مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن، وجعله عاليا علو الراكب على مركوبه)[١].

ثم أخذ يذكر بديع الخلق الله في الحواس الخمس للإنسان من السمع والبصر والشم والذوق واللمس. فبدأ بحاسة البصر وذكر عجائب خلق الله

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٨٧-١٨٩)، وكلام ابن القيم رحمه الله في هذا الباب يدل على إثبات وجود الله تعالى، ويدل أيضًا على توحيده سبحانه وتعالى ووجوب عبادته.

فيها فقال - رحمه الله -: (ولما كان عاليا على البدن جعل فيه الحواس الخمس، وآلات الادراك كلها، من السمع والبصر، والشم والذوق واللمس، وجعل حاسة البصر في مقدمه، ليكون كالطليعة، والحرس والكاشف للبدن، وركب كل عين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص، ومقدار مخصوص، ومنفعة مخصوصة، لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الابصار، ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا، وهو إنسان العين، بقدر العدسة، يبصر به ما بين المشرق والمغرب، والأرض والسماء، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء، فهو ملكها، وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له، وحجاب وحراس، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[1] فانظر كيف حسن شكل العينين، وهيئتها ومقدارهما، ثم جملهما بالأجفان غطاء لهما، وسترا وحفظا وزينة، فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذا والغبار، ويكنانهما من البارد المؤذي، والحار المؤذي، ثم غرس في أطراف تلك الأجفان الأهداب جمالا وزينة، ولمنافع أخر وراء الجمال والزينة، ثم أودعهما ذلك النور الباصر، والضوء الباهر، الذي يخرق ما بين السماء والأرض، ثم يخرق السماء مجاوزا

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

لرؤية ما فوقها من الكواكب، وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير، بحيث تنطبع فيه صورة السموات مع اتساع اكنافها وتباعد أقطارها)[١]، ثم ذكر عجيب خلق الله في شق السمع للإنسان وخلق الأذن وما فيها من تجاويف واعوجاجات، وجعل فيها ماء في غاية المرارة. فقال – رحمه الله –: (وشق له السمع، وخلق الأذن أحسن خلقه وأبلغها، في حصول المقصود منها، فجعلها مجوفة كالصدفة، لتجمع الصوت، فتؤديه إلى الصماخ، وليحس بدبيب الحيوان فيها، فيبادر إلى إخراجه، وجعل فيها غضونا وتجاويف واعوجاجات، تمسك الهواء والصوت الداخل، فتكسر حدته، ثم تؤديه إلى الصماخ، ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان، فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لإمساكه، وفيه أيضا حكم غير ذلك، ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا في غاية المرارة، فلا يجاوزه الحيوان، ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن، بل إذا وصل اليه أعمل الحيلة في رجوعه، وجعل ماء العينين ملحا ليحفظها، فإنها شحمة قابلة للفساد، فكانت ملوحة مائها صيانة لها، وحفظا، وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي عليه، إذ لو كان على غير هذه الصفة

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٩–١٩٠).

لأحالها إلى طبيعته، كما أن من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التي ليست بمرة كما قيل:

ومن يك ذا فم مر مريض — يجد مرًّا به الماء الزلالا)[1]

ثم عرج – رحمه الله – في ذكر الأنف فقال: (ونصب سبحانه قصبة الأنف في الوجه، فأحسن شكله وهيأته ووضعه، وفتح فيه المنخرين، وحجز بينهما بحاجز، وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة، والنافعة والضارة، وليستنشق به الهواء، فيوصله إلى القلب فيتروح به، ويتغذى به، ثم لم يجعل في داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل في الأذن؛ لئلا يمسك الرائحة فيضعفها، ويقطع مجراها، وجعله سبحانه مصبا تنحدر اليه فضلات الدماغ، فتجتمع فيه، ثم تخرج منه، واقتضت حكمته أن جعل اعلاه أدق من أسفله، لأن أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة، ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد في مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولاً لا يضره، ولا يزعجه، ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما، حكمة منه ورحمة، فإنه لما كان قصبة ومجرى ساترا لما يتحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفَس الصاعد منه، جعل في وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجرى فيه، فيمنع نشقه للنفس، بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من احد المنفذين في الغالب، فيبقى الآخر للتنفس وإما أن

(١)مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٩-١٩٠)

يجرى فيهما فينقسم، فلا ينسد الأنف جملة، بل يبقى فيه مدخل للتنفس، وأيضا فإنه لما كان عضوا واحدا، وحاسة واحدة، ولم يكن عضوين وحاستين، كالأذنين والعينين، اللتين اقتضت الحكمة تعددهما، فإنه ربما اصيبت أحداهما، أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها، فتكون الأخرى سالمة، فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة، وكان وجود أنفين في الوجه شيئا ظاهرا، فنصب فيه أنفا واحدا، وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز، يجرى مجرى تعدد العينين والاذنين في المنفعة، وهو واحد، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين)[١].

ثم بين ابن القيم – رحمه الله – عجيب خلق الله وحكمته في خلق فم الإنسان في أحسن موضع، وجعل فيه حاسة الذوق والكلام، وما أودع فيه من الأسنان واللسان، فقال – رحمه الله –: (وشق سبحانه للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به، واودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه، فأودعه اللسان الذي هو احد آياته الدالة عليه، وجعله ترجمانا لملك الأعضاء، مبينا مؤديا عنه، كما جعل الأذن رسولا مؤديا مبلغا إليه، فهي رسوله وبريده، الذي يؤدي إليه الأخبار، واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه ما يريد، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل هذا الرسول مصونا محفوظا، مستورا غير بارز، مكشوف كالأذن والعين والأنف، لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج اليه جعلت

(١)مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٠-١٩١)

بارزة ظاهرة، ولما كان اللسان مؤديا منه إلى الخارج جعل له سترا مصونا؛ لعدم الفائدة في إبرازه؛ لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب، وأيضا فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره، ضرب عليه سرادق تستره وتصونه، وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدر، وأيضا فإنه من ألطف الأعضاء، وألينها وأشدها رطوبة، وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به، فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف، ولغير ذلك من الحكم والفوائد، ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التي هن جمال له وزينة، وبها قوام العبد وغذاؤه، وجعل بعضها أرحاء للطحن، وبعضها آلة للقطع، فاحكم أصولها، وحدد رؤوسها، وبيض لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس، متناسقة الترتيب، كأنها الدر المنظوم، بياضا وصفاء وحسنا)[1].

ثم تطرق – رحمه الله – إلى الشفتين وسماهما حائطين غطاء للفم وإتماماً لمخارج حروف الكلام، ونهاية له، وتكلم عن الحنجرتين، وأنواع الشعور في الرأس والوجه، وبرع في الكلام على أصابع اليدين كلاماً علمياً رصيناً فقال – رحمه الله –: (وأحاط سبحانه على ذلك حائطين، وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهيأتهما، وجعلهما غطاء للفم، وطبقا له، وجعلهما إتماما لمخارج حروف الكلام ونهاية له، كما جعل أقصى الحلق بداية له، واللسان وما جاوره وسطا، ولهذا كان

(١)مفتاح دار السعادة (١/ ١٩١)

أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة، واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحما صرفا، لا عظم فيه ولا عصب، ليتمكن بهما من مص الشراب، ويسهل عليه فتحهما، وطبقهما، وخص الفك الأسفل بالتحريك، لأن تحريك الأخف أحسن، ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة، فلم يخاطر بها في الحركة، وخلق سبحانه الحناجر، مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف، ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرا، ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم، كما يميز البصير بينهم بصورهم، والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور، وزين سبحانه الرأس بالشعر، وجعله لباسا له، لاحتياجه إليه، وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير، فزينه بالحاجبين، وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الراس إلى العينين، وقوسهما، وأحسن خطهما، وزين أجفاف العينين بالأهداب، وزين الوجه أيضا باللحية، وجعلها كمالا ووقارا ومهابة للرجل، وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب، وتحتهما من العنفقة، وكذلك خلقه سبحانه لليدين اللتين، هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه، فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه، وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط، وقسم فيه الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل والإبهام باثنتين، ووضع الأصابع الأربعة في جانب والإبهام في جانب؛ لتدور الابهام على الجميع، فجاءت على أحسن وضع، صلحت به للقبض والبسط، ومباشرة الأعمال، ولو اجتمع الاولون والاخرون على أن

يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا، فتبارك من لو شاء لسواها، وجعلها طبقا واحدا كالصفيحة، فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته، ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك، فإن بسط أصابعه كانت طبقا يضع عليه ما يريد، وإن ضمها وقبضها كانت دبوسا، وآلة للضرب، وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله، وركب الاظفار على رؤوسها؛ زينة لها وعمادا ووقاية، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع، وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطير، وآلة لمعاشه، وليحك الإنسان بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أقل الأشياء وأحقرها، لو عدمه الانسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته إليه، ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه، ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد اليه، ولو في النوم والغفلة، من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة)[(١)].

ثم بعد ذلك تحدث ابن القيم - رحمه الله – عن عجيب خلق الله لعظام الإنسان المختلفة فمنها الغليظة ومنها الدقيقة، وكيف كساها من اللحم ما يناسبها وتطرق لمفاصل الإنسان وفقرات ظهره ورقبته ما لم تجده عند غيره فقال

- رحمه الله -: (ثم انظر إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة

---

(١)مفتاح دار السعادة (١/ ١٩١-١٩٢)

قوية؛ لأنها أساس له، وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة؛ لأنها محمولة، ثم انظر كيف جعل الرقبة مركبا للرأس، وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات، ثم طبق بعضها على بعض، وركب كل خرزة تركيبا محكما متقنا، حتى صارت كأنها خرزة واحدة، ثم ركب الرقبة على الظهر، والصدر، ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز، من أربع وعشرين خرزة، مركبة بعضها في بعض، هي مجمع أضلاعه، والتي تمسكها أن تنحل وتنفصل، ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض، فوصل عظام الظهر بعظام الصدر، وعظام الكتفين بعظام العضدين، والعضدين بالذراعين، والذراعين بالكف والاصابع، وانظر كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والراس كسوة من اللحم تناسبها، والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع، والمتوسطة كذلك، كعظام الذراعين والعضدين، فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظما، مائتان وثمانية وأربعون مفاصل، وباقيها صغار، حشيت خلال المفاصل، فلو زادت عظما واحدا لكان مضرة على الانسان يحتاج إلى قلعة ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها، والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها، وحكمته وعلمه ولطفه، وكم بين النظرين! ثم انه سبحانه ربط تلك الأعضاء والأجزاء بالرباطات، فشد بها أسرها، وجعلها كالأوتاد تمسكها وتحفظها، حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا، وهي مختلفة في الغلظ والدقة، والطول والقصر، والاستقامة والانحناء، بحسب اختلاف مواضعها ومحالها، فجعل منها أربعة

وعشرين رباطا آلة لتحريك العين، وفتحها وضمها، وإبصارها، لو نقضت منهن رباطا واحدا اختل امر العين، وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هن له كالآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل، كل ذلك صنع الرب الحكيم، وتقدير العزيز العليم، في قطرة ماء مهين، فويل للمكذبين، وبعدا للجاحدين، ومن عجائب خلقه أنه جعل في الراس ثلاث خزائن نافذا بعضها إلى بعض، خزانة في مقدمه، وخزانة في وسطه، وخزانة في آخره، وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل) (١).

بعد ذلك تكلم ابن القيم - رحمه الله - وأبدع في ذكره لعجائب خلق الله في الأجهزة الداخلية للإنسان، من القلب والطحال، والرئة والأمعاء، والمثانة وغيرها، وأن القلب هو بمثابة الملك لرعيته، وباقي الأعضاء جنوده، واللسان ترجمانه والعين رائدة وطبيعته تكلم - رحمه الله - كلاماً نفسياً فيما عنها. وقال - رحمه الله -: (ومن عجائب خلقه ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهد، كالقلب والكبد والطحال، والرئة والامعاء، والمثانة، وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة، والقوى المتعددة، المختلفة المنافع فأما القلب فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن، والمستخدم لها، فهو محفوف بها محشود مخدوم، مستقر في الوسط، وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو

---

(١)مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٢)

منبع الروح الحيواني، والحرارة الغريزية، وهو معدن العقل والعلم والحلم، والشجاعة والكرم، والصبر والاحتمال، والحب والارادة، والرضا والغضب، وسائر صفات الكمال، فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب، فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات، فإن رأت شيئا أدته إليه، ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها، فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه، كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه، ولهذا كثيرا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١) وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾(٢) وقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾(٣) وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾(٤) وقوله: في حق رسوله محمد ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾(٥) ثم قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(٦)، وكذلك الأذن هي رسوله المؤدى إليه، وكذلك اللسان ترجمانه، وبالجملة

---

(١) سورة الإسراء: ٣٦.

(٢) سورة الأحقاف: ٢٦

(٣) سورة البقرة: ١٨.

(٤) سورة الأنعام: ١١٠.

(٥) سورة النجم: ١١.

(٦) سورة النجم: ١٧.

فسائر الأعضاء خدمه وجنوده، وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، إلا وهي القلب»[١] وقال أبو هريرة: "القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده"[٢]، وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائما؛ لأنه أشد الأعضاء حرارة، بل هو منبع الحرارة، وأما الدماغ وهو المخ فإنه جعل باردا، واختلف في حكمة ذاك، فقالت طائفة: إنما كان الدماغ بارد لتبريد الحرارة التي في القلب، ليردها عن الإفراط إلى الاعتدال، وردت طائفة هذا، وقالت: لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدا عن القلب، بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة، أو يكون قريبا منه في الصدر، ليكسر حرارته، قالت الفرقة الاولى: بُعد الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة؛ لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها، فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر، وهذا بخلاف الرئة فإنها آلة للترويح على القلب، لم تجعل لتعديل حرارته، وتوسطت فرقة أخرى، وقالت: بل المخ حار، لكنه فاتر الحرارة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) رقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) رقم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه معمر بن راشد في جامعه برقم (٢٠٣٧٥) (١١/ ٢٢١)، والدينوري في المجالسة برقم (٥٧٠) (٢/ ٣٩٣).

وفيه تبريد بالخاصية، فإنه مبدأ للذهن، ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الأقذار، والكدر خال من الجلبة والزجل، ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر، واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته، وقلة شواغله ومزعجاته، ولذلك لم يصلح لها القلب، وكان الدماغ معتدلا في ذلك، صالحا له، ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل، وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة، وعند الهم الشديد، ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية) [(١)].

ثم ختم – رحمه الله – الكلام عن عجائب خلق الإنسان: (فارجع الآن إلى النطفة، وتأمل حالها اولاً، وما صارت إليه ثانياً، وأنه لو اجتمع الانس والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا، أو عقلا، أو قدرة أو علما، أو روحا، بل عظما واحدا من أصغر عظامها، بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة، لعجزوا عن ذلك! بل ذلك كله آثار صنع الله الذي اتقن كل شيء، في قطرة من ماء مهين) [(٢)].

وخلاصة هذا المبحث: أنه تضمن ذكر أسرار خلق الإنسان من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، بداية من أطوار الإنسان في بطن أمه من طور النطفة

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/١٩٣- ١٩٤).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ١/١٩٦.

فالعلقة فالمضغة، وتضمن ذكر أجهزة الإنسان وما فيها من عجيب صنع الله من الرأس وما يحتويه والصدر وما بداخله، والبطن وما فيها، والأطراف، مما يدل على عظم خلق الله لهذا الإنسان، وفيه الرد على الملاحدة.

المبحث الثاني:

ذكر ابن القيم لبعض أسرار خلق الحيوانات واستدلاله بها على وجود الله تعالى

بعد أن ذكرت كلام ابن القيم – رحمه الله – عن أسرار خلق الإنسان وعظيم صنع الله له، فسأذكر في هذا المبحث ما يتعلق بأسرار خلق الحيوانات باختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها، الماشية والزاحفة، والسابحة، من حيث صفاتها وألوانها وأشكالها وأجناسها ومنافعها واختلافها، فمنها الماشي على بطنه ومنها الماشي على رجله، ومنها الماشي على أربع ومنها الماشي على رجليه – وكأنه – رحمه الله – عالماً في الأحياء فقال – رحمه الله –: (ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه، وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه، فمنه الماشي على بطنه، ومنه الماشي على رجليه، ومنه الماشي على أربع، ومنه ما جعل سلاحه في رجليه، وهو ذو المخالب، ومنه ما جعل سلاحه المناقير، كالنسر والرخم، والغراب، ومنه ما سلاحه الأسنان ومنه ما سلاحه الصياصي، وهي القرون يدافع بها عن نفسه، من يروم أخذه ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد، فإن سلاحه قوته، ومنه ما سلاحه في ذرقه وهو نوع من الطير إذا دنا منه من يريد اخذه ذرق عليه) [1].

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٢٠٥)، وكلام ابن القيم رحمه الله في هذا الباب يدل على إثبات وجود الله تعالى، ويدل إيضًا على توحيده سبحانه وتعالى ووجوب عبادته.

وقال – رحمه الله –: (ثم تأمل الحكمة في خلقة الحيوان الذي يأكل اللحم من البهائم، كيف جعلت له أسنان حداد، وبراثن شداد، وأشداق[١] مهرونة[٢]، وأفواه واسعة، وأعينت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد، والاكل ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد، ومخالب كالكلاليب، ولهذا حرم النبي كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير[٣] لضرره وعدوانه وشره، والمغتذى شبيه بالغاذي، فلو اغتذى بها الانسان لصار فيه من اخلاقها وعدوانها وشرها ما يشابهها به، فحرم على الأمة أكلها ولم يحرم عليهم الضبع، وإن كان ذا ناب، فإنه ليس من السباع عند أحد من الأمم، والتحريم إنما كان لما تضمن الوصفين، أن يكون ذا ناب، وأن يكون من السباع، ولا يقال هذا ينتقض بالسبع، إذا لم يكن له ناب لأن هذا لم يوجد أبدا)[٤].

وقال – رحمه الله –: (ثم تأمل أولاد ذوات الأربع من الحيوان، كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها، فلا تحتاج إلى الحمل والتربية كما يحتاج إليه

---

(١) أشداق: جمع شدق، وهو جانب الفم. انظر: الصحاح للجوهري (١٥٠٠/٤).

(٢) لم أجد من فسر معناها.

(٣) يشير إلى الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٣٤/٣) رقم (١٩٣٤) عن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير.

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢٣٥/١).

أولاد الأنس، فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من التربية والملاطفة والرفق والآلات المتصلة والمنفصلة، أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة، ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير كالدجاج والدراج والفتخ يدرج ويلقط حين يخرج من البيضة وما كان منها ضعيف النهوض كفراخ الحمام واليمام أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ما تمج به الطعم في أفواه الفراخ من حواصلها، فتخبأه في أعز مكان، فيها ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ، ولا تزال بها كذلك حتى ينهض الفرخ ويستقل بنفسه، وذلك كله من حظها وقسمها الذي وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة، فإذا استقل بنفسه وأمكنه الطيران لم يزل به الأبوان يعالجانه أتم معالجة، وألطفها حتى يطير من وكره، ويسترزق لنفسه، ويأكل من حيث يأكلان، وكأنهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط، بل يطردانه عن الوكر، ولا يدعانه، وأقواتهما بينهما، بل يقولان له بلسان يفهمه، اتخذ لك وكرا وقوتا، فلا وكر لك عندنا ولا قوت، فسل المعطل أهذا كله عن إهمال؟ ومن الذي ألهمها ذلك؟ ومن الذي عطفها على الفراخ وهي صغار أحوج ما كانت إليها ثم سلب ذلك عنها إذ استغنت الفراخ رحمة بالأمهات تسعى في مصالحها؟ إذ لو دام لها ذلك لأضرَّ بها وشغلها عن معاشها، لا سيما مع كثرة ما يحتاج إليه أولادها من الغذاء،

فوضع فيها الرحمة والإيثار والحنان، رحمة بالفراخ، وسلبها إياها عند استغنائها رحمه بالأمهات، أفيجوز أن يكون هذا كله بلا تدبير مدبر حكيم ولا عناية ولا لطف منه سبحانه وتعالى لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين الهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فلا يستطيع العقل لها جحودا، إن هي إلا مكابرة باللسان من كل جحود كفور ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] وإنما يكون الشك فيما تخفي أدلته وتشكل براهينه، فأما من له في كل شيء محسوس أو معقول آية بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بأنه الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين فكيف يكون فيه شك)[٢].

وقال – رحمه الله –: (فصل ثم تأمل الحكمة البالغة في قوائم الحيوان، كيف اقتضت أن يكون زوجا لا فردا، إما اثنتين وإما أربعا، ليتهيأ له المشي والسعي، وتتم بذلك مصلحته، إذ لو كانت فردا لم يصلح لذلك لأن الماشي ينتقل ببعض قوائمه ويعتمد على بعض، فذو القائمتين ينقل واحدة، ويعتمد على الأخرى، وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين، وذلك من خلاف؛ لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه، ولكان مشيه نقرا كنقر الطائر، وذلك مما

---

(١) سورة إبراهيم: ١٠.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٢٣٦).

يؤذيه ويتبعه، لنقل بدنه بخلاف الطائر، ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلا أجهده وشق عليه، بخلاف مشية الطبيعي الذي هو له، فاقتضت الحكمة تقديم نقل اليمنى من يديه مع اليسرى من رجليه، وإقرار يسرى اليدين ويمنى الرجلين، ثم نقل الأُخريين كذلك وهذا أسهل ما يكون من المشي وأخفه على الحيوان.

فصل: ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم؛ ليتهيأ ركوبها وتستقر الحمولة عليها، ثم خولف هذا في الإبل، فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو؛ لما خصت به من فضل القوة، وعظم ما تحمله، والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف، حتى قيل: إن عقد الأقباء إنما أخذ من ظهور الإبل، وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه؛ ليتناول المرعي من قيام، فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك، مع طول قوائمه، وليكون أيضا طول عنقه موازنا للحمل على ظهره إذا استقل به، كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل: إن القبان[1] إنما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله، ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنه ثم تأمل الحكمة في كون فرج الدابة جعل بارزا من ورائها؛ ليتمكن

(١) سبق التعريف به وهو الميزان.

الفحل من ضرابها، ولو جعل في أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذي تجامع به المرأة، وقد ذكر في كتب الحيوان أن فروج الفيلة في أسفل بطنها، فإذا كان وقت الضراب ارتفع ونشز وبرز للفحل، فيتمكن من ضرابها، فلما جعل في الفيلة على خلاف ما هو في سائر البهائم خصت بهذه الخاصية عنها؛ ليتهيأ الأمر الذي به دوام النسل.

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمي هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف، وكسيت الطيور الريش، وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو في غاية الصلابة والقوة كالسلحفاة، وبعضها من الريش ما هو كالأسنة، كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد، والعدو الذي يريد أذاها، فإنها لما لم يكن لها سبيل إلى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة وآلات الحرب، أعينت بملابس وكسوة، لا تفارقها وآلات وأسلحة تدفع بها عن نفسها، وأعينت بأظلاف وأخفاف وحوافر لما عدمت الأحذية والنعال، فمعها حذاؤها وسقاؤها، وخص الفرس والبغل والحمار بالحوافر، لما خلق للركض والشد والجرى، وجعل لها ذلك أيضا سلاحا عند انتصافها من خصمها، عوضا عن الصياصي والمخالب والأنياب والبراثن، فتأمل هذا اللطف والحكمة فإنها لما كانت بهائم خرصا لا عقول لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للانتفاع والدفاع، ولاحظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسج

والغزل، ولطف الحيلة، جعلت كسوتها من خلقتها، باقية عليها ما بقيت لا تحتاج إلى الاستبدال بها، وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها، كل ذلك لتتم الحكمة التي أُريدت بها ومنها)[1].

يتضح لنا في هذا المبحث أسرار خلق الله للحيوانات حيث جعل الله عز وجل مختلفة في ألوانها وأشكالها وطبائعها وصفاتها، فمنها ما يمشي على بطنه، ومنها ما يمشي على رجليه، ومنها ما يمشي على أربع، ومنها ما يطير في الهواء، ومنها ما يسبح، وفيها دلالة عظيمة على صنع الخالق سبحانه، وبديع حكمته مما يتضمن الرد على الملاحدة المنكرين لهذا الخالق العظيم.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٣٧-٢٣٨).

المبحث الثالث:

ذكر ابن القيم لبعض أسرار خلق الأجرام السماوية والأرضية، واستدلاله بها على وجود الله تعالى.

بعد أن ذكرت كلام ابن القيم - رحمه الله - في المبحث السابق عن أسرار خلق الحيوانات أذكر لك في هذا المبحث ما تحدث به عن عجيب خلق الله وأسرار حكمه في الأجرام السماوية والأرضية، فتكلم عن ملكوت السماوات والأرض، ووضعها وعلوها وصفتها واستدارتها، وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها، وقمرها، وكواكبها، ومقاديرها، وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، في كلام علمي دقيق ولكأنه عالم في الفلك والفضاء، فقال - رحمه الله -: (فمن هذا صنعه في قطرة ماء، فكيف صنعه في ملكوت السموات وعلوها، وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها، وكواكبها ومقاديرها، وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي احكم خلقا وأتقن صنعا، وأجمع العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، قال الله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾[2] إلى قوله: ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3]

---

(١) سورة النازعات: ٢٧ - ٢٨.

(٢) سورة البقرة: ١٦٤.

(٣) سورة البقرة: ١٦٤.

فبدأ بذكر خلق السموات وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(١)] وهذا كثير في القرآن، فالأرض والبحار والهواء، وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات، كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارا عن عظمها وسعتها، وإما إقساما بها، وإما دعاء إلى النظر فيها، وإما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظم بانيها ورافعها، وإما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته، وأنه الله الذي لا إله الا هو، وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها، على تمام حكمته وقدرته، وكذلك ما فيها من الكواكب، والشمس والقمر، والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها، فكم من قسم في القرآن بها كقوله: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾[(٢)]، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾[(٣)]، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ ﴾[(٤)]، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾[(٥)]، ﴿ وَٱلشَّمْسِ

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٢) سورة البروج: ١.

(٣) سورة الطارق: ١.

(٤) سورة الشمس: ٥.

(٥) سورة الطارق: ١١.

وَضُحَىٰهَا ﴾(١)، ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾(٢)، ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾(٣)، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴾(٤) وهي الكواكب التي تكون خنسا(٥) عند طلوعها، جوار في مجراها ومسيرها كنسا(٦) كنسا(٦) عند غروبها، فاقسم بها في أحوالها الثلاثة، ولم يقسم في كتابه بشيء من من مخلوقاته أكثر من السماء، والنجوم، والشمس، والقمر، وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره، ولهذا يعظم هذا القسم كقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾(٧)، وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء، فإن اسم النجوم عند الاطلاق إنما ينصرف إليها، وأيضا فإنه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم في آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تحمل

---

(١) سورة الشمس: ١.

(٢) سورة النجم: ١.

(٣) سورة الطارق: ٣.

(٤) سورة التكوير: ١٥.

(٥) الخُنَّسُ: الكواكب الخمسةُ التي تجري وتَخْنُس في مجراها حتى يخفى ضوء الشمس، وخُنُوسُها: اختفاؤها بالنهار. انظر: العين للخليل (٤/ ١٩٩).

(٦) الكُنَّسُ: النجومُ تَطْلُعُ جَارِيَة، وكُنوُسها: أَن تَغِيب فِي مغاربها الَّتِي تغيبُ فِيهَا. تهذيب اللغة (١٠/ ٣٩).

(٧) سورة الواقعة: ٧٥ - ٧٦.

عليه هذه الآية، وجرت عادته باستعمال النجوم في الكواكب في جميع القرآن، وأيضا فإن نظير الإقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوي النجم في قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾[(١)]، وأيضا فإن هذا قول جمهور أهل التفسير، وأيضا فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده، هذه طريقة القرآن قال الله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾[(٢)]، ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[(٣)]، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾[(٤)]﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾[(٥)] ونظائره، والمقصود أنه سبحانه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته، وقد أثنى سبحانه في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض، وذم المعرضين عن ذلك فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾[(٦)] وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان، دخان، وهو بخار الماء، قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢﴾[(٧)]وقال

---

(١) سورة النجم: ١.

(٢) سورة ص: ١.

(٣) سورة يس: ١ - ٢.

(٤) سورة ق: ١.

(٥) سورة الزخرف: ١ - ٢.

(٦) سورة الأنبياء: ٣٢.

(٧) سورة النبأ: ١٢.

تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾(١) وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾(٢) فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع، الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع، وزينه بأحسن زينة، وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان.

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات، ونصب لهم الدلالات واوضح لهم الآيات البينات ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣) فارجع البصر إلى السماء، وانظر فيها وفي كواكبها، ودورانها، ودورانها، وطلوعها وغروبها، وشمسها وقمرها، واختلاف مشارقها ومغاربها، ودؤوبها في الحركة على الدوام، من غير فتور في حركتها ولا تغير في سيرها، بل تجري في منازل قد رتبت لها، بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها، وانظر إلى كثرة كواكبها، واختلاف ألوانها ومقاديرها، فبعضها يميل إلى الحمرة، وبعضها إلى البياض، وبعضها إلى اللون الرصاصي، ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها، في مدة سنة ثم هي في

---

(١) سورة النازعات: ٢٧ – ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٢.

(٣) سورة الأنفال: ٤٢.

كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها، لا تتعداه ولا تقصر عنه، ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار، ولا المواقيت، ولأطبق الظلام على العالم، أو الضياء، ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة، وكيف قدر لها السميع العليم سفرين متباعدين: أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها، والثاني سفرها هابطة إلى حضيضها، تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة، حتى تبلغ غايتها منه، فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول، من الصيف والشتاء والخريف والربيع، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء، وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ، وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان، وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات، بهذه الفصول الأربعة، واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه، ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها، وانظر إلى القمر وعجائب آياته، كيف يبديه الله كالخيط الدقيق، ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئا فشيئا كل ليلة، حتى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى، ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم، وعباداتهم ومناسكهم، فتميزت به الأشهر والسنين، وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات، والعبر التي لا يحصيها إلا الله، وبالجملة فما من كوكب من الكواكب إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة، ثم في

مقداره، ثم في شكله ولونه، ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها، وبعده وقربه من الكوكب الذي يليه، وبعده منه وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال فقسه بأعضاء بدنك، واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها، وبعد ما بين المتباعدات، وأشكالها ومقاديرها، وتفاوت منافعا وما خلقت له، وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها، وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفا وستين مرة، والكواكب التي نراها كثير منها أصغرها بقدر الأرض، وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها، وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي «أن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك»(١) وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر، وذلك بعد لحظة واحدة؛ لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلا، ثم سار في اللحظة من موضع إلى موضع، فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات، وهكذا يسير على الدوام، والعبد غافل عنه وعن آياته، وقال بعضهم: إذا تلفظت بقولك لا نعم، فبين اللفظتين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٢٥٦) رقم (٣٢٩٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٦٠٩٤).

خمسمائة عام، ثم أنه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها، وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾[(١)])[(٢)].

وقال – رحمه الله –: (فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة، كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار، ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة، ولا عمد تحتها، وعلاقة فوقها بل هي ممسوكة بقدرة الله، الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ثم تأمل استواءها واعتدالها، فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت[(٣)] ولا عوج، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية، له حتى أن من أصابه شيء

---

(١) سورة لقمان: ١٠ – ١١.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/١٩٦–١٩٩) وكلام ابن القيم رحمه الله في هذا الباب يدل على إثبات وجود الله تعالى، ويدل إيضًا على توحيده سبحانه وتعالى ووجوب عبادته.

(٣) الأَمْتُ: أن تَصُبَّ في السقاء ماء فلا تَمْلَؤه فيَنثَني، وذلك التِّنْيُ هو الأمت، وإذا مليء وتمدَّدَ فلا أَمْتَ فيه، تَقول الْعَرَب: قد مَلأَ القِرْبَة مَلأً لَا أَمْتَ فِيهِ، أَي لَيْسَ فِيهِ استِرْخاءٌ مِنْ شِدَّةِ امْتلائِها. العين (٨/ ١٤١)، تهذيب اللغة (١٤/ ٢٤٣).

أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد، وقال الأطباء: إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء، فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه، ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له. هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك)[(١)].

ثم إن ابن القيم – رحمه الله – تكلم عن الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما، وما ينتج عنهما من النور والظلمة، والليل والنهار، والحرارة والبرودة، وتكون الفصول الأربعة: الصيف والشتاء والربيع والخريف، وحرارة الهواء وبرودته، ويبوسته ورطوبته، وما يترتب على ذلك من نضيح الثمار وتساقط الأوراق، وتنور الأشجار بالأزهار، إلى غير ذلك من معرفة السنين والحساب، والأزمان والأوقات، فقال – رحمه الله –: (ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما، لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل امر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم ويتصرفون في امورهم، والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور، ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٠٧).

قرار، مع فرط الحاجة إلى السبات، وجموم[(١)] الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمي بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك، ليقروا ويهدؤا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا، مع تضادهما متعاونين متظاهرين، بهما تمام مصالح العالم وقد اشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[(٢)] خص سبحانه النهار بذكر البصر؛ لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات مالا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات، وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر،

---

(١) يقال: جمَّ الفَرسُ يجُمُّ جَمَاماً إذا ذهب إعْيَاؤُه، وَيُقَال: أجْمِمْ نفْسَكَ يَوْماً أَو يَوْمَين أَي أرِحْها. تهذيب اللغة (١٠/٢٧٥).

(٢) سورة القصص: ٧١ – ٧٢.

والنهار بالعكس، فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع، فقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[(١)] راجع إلى قوله: قل ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾[(٢)] وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[(٣)] راجع إلى قوله ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[(٥)] فذكر تعالى خلق الليل والنهار، وإنهما خلفة، أي: يخلف أحدهما الآخر، لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما، وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يحاذيه بل يغشى أحدهما صاحبه، فيطلبه حثيثا، حتى يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عقيبه، فيطلبه حثيثا حتى يهزمه، ويزيله عن سلطانه، فهما دائما يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه.

---

(١) سورة القصص: ٧١

(٢) سورة القصص: ٧١.

(٣) سورة القصص: ٧٢.

(٤) سورة القصص: ٧٢.

(٥) سورة الفرقان: ٦١ – ٦٢.

ثم تأمل بعد ذلك احوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها، لإقامة هذه الأزمنة والفصول، وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه، فلو كان صيفا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء، ولو كان شتاء لفاتت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفا كله، ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال، فتتولد مواد الثمار وغيرها، وتبرد الظواهر، ويستكثف فيه الهواء، فيحصل السحاب والمطر، والثلج والبرد، الذي به حياة الأرض وأهلها، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها، وتزايد القوى الطبيعية، واستخلاف ما حللته حرارة الصيف من الأبدان، وفي الربيع تتحرك الطبائع، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيظهر النبات، ويتنور الشجر بالزهر، ويتحرك الحيوان للتناسل، وفي الصيف يحتد الهواء، ويسخن جدا، فتنضج الثمار وتنحل فضلات الأبدان، والأخلاط التي انعقدت في الشتاء، وتغور البرودة، وتهرب إلى الأجواف، ولهذا تبرد العيون والآبار ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة؛ لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون، فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان، وصفا الهواء وبرد، فانكسر ذلك السموم، وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد

الشتاء؛ لئلا يتنقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد؛ فيجد أذاه ويعظم ضرره، فإذا انتقل إليه بتدريج وترتب لم يصعب عليه، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه، حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول، حكمة بالغة، وآية باهرة، وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا، بتدريج وترتيب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين.

ثم تأمل حال الشمس والقمر، وما أودعاه من النور والإضاءة وكيف جعل لهما بروجا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة، وتمام مصالح حساب العالم، الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإجارات، والمعاملات والعدد، وغير ذلك، فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل، وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة، لم يعلم شيء من ذلك، وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾[1]

---

(١) سورة يونس: ٥.

وقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾(١).

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم، كيف قدره العزيز العليم سبحانه، فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، وكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم، والنهار سرمدا على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء، فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى الغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار، فتنتظم مصالحهم.

فصل: ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار، تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة، واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من

(١) سورة الإسراء: ١٢.

الآخر يعود الأخر فيسترده منه، قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾[(١)] وفيه قولان: أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء، ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار والقول الثاني انه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الاخر فما ينقص منه يلج في الاخر لا يذهب جملة، وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان، وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة، إلى أن ينتهي إلى حد لايسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات، لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفين، وربيعين.

---

(١) سورة الحج: ٦١.

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل، والحكمة في ذلك، فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان، وبرد الهواء على الأبدان، والنبات، فتعادل حرارة الشمس، فيقوم النبات والحيوان، فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لا ضوء فيه أصلا، فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة، ولا الأعمال ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لايتهيأ له بالنهار؛ لضيق النهار، أو لشدة الحر، أو لخوفه بالنهار، كحال كثير من الحيوان، جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة، كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس؛ لئلا يستوى الليل والنهار، فتفوت حكمة الاختلاف بينهما، والتفاوت الذي قدره العزيز العليم، فتأمل الحكمة البالغة، والتقدير العجيب، الذي اقتضى أن اعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة،

ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا، بل ظلمة مشوبة بنور، رحمة منه وإحسانا، فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه)[١].

وهاهنا تحدث ابن القيم - رحمه الله - عن حكمة الله تعالى في هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها، أنها زينة للسماء وأدلة يُهتدى بها في طرق البر و البحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكن رؤيتها مع البعد المفرط، ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء و الدلالة، ومعرفة المواقيت وذكر سير الكواكب واختلافها في ذلك، وما فيه من العجائب. فقال - رحمه الله -: (ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى في هذه النجوم وكثرتها، وعجيب خلقها، وأنها زينة للسماء، وأدلة يُهْتدى بها في طرق البر والبحر، وما جعل فيها من الضوء والنور، بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط، ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت، ثم تأمل تسخيرها منقادة بأمر ربها تبارك وتعالى، جارية على سنن واحد، اقتضت حكمته وعلمه أن لا تخرج عنه، فجعل منها البروج والمنازل، والثوابت والسيارة، والكبار والصغار، والمتوسط، والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر، ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه، وجعل منطقة البروج قسمين، مرتفعة ومنخفضة، وقدر سيرها

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٠٧-٢١٠).

تقديرا واحدا، ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها، فمنها ما يقطعها في شهر واحد وهو القمر، ومنها ما يقطعها في عام، ومنها ما يقطعها في عدة أعوام، كل ذلك موجب الحكمة والعناية، وجعل ذلك أسبابًا لما يحدثه سبحانه في هذا العالم، فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التي تقارنها كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت، وغروبها إذا سقطت، من الحوادث التي تقارنها، وكذلك غيرها من المنازل والسيارات، ثم تأمل جعله سبحانه بنات نعش، وما قرب منها ظاهرة لا تغيب؛ لقربها من المركز، ولما في ذلك من الحكمة الإلهية وأنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة، في البر والبحر، فهم ينظرون إليها وإلى الجدي والفرقدين كل وقت أرادوا فيهتدون بها حيث شاءوا.

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب، وما فيه من العجائب، كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع رفقته، لا يفرد عنهم سيره أبدا بل لا يسيرون إلا جميعا، وبعضها يسير سيرا مطلقا، غير مقيد برفيق ولا صاحب، بل إذا اتفق له مصاحبته في منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى، فبينا تراه ورفيقه وقرينه إذ رأيتهما مفترقين متابعدين، كأنهما لم يتصاحبا قط، وهذه السيارة لها في سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف، سير عام يسير بها فلكها، وسير خاص تسير هي في فلكها، كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحى ذات

الشمال، والرحى تأخذ ذات اليمين، فللنملة في ذلك حركتان مختلفتان، إلى جهتين متباينتين، إحداهما بنفسها، والاخرى مكرهة عليها تبعا للرحى، تجذبها إلى غير جهة مقصدها، وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق، ثم يسير فلكها وبمنزلتها إلى جهة الغرب، فسل الزنادقة والمعطلة أي طبيعة اقتضت هذا؟! وأي فلك أوجبه؟! وهلا كانت كلها راتبه، أو منتقلة، أو على مقدار واحد، وشكل واحد، وحركة واحدة، وجريان واحد، وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته، وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارئ المصور، الذي ليس كمثله شيء، أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنعه، وأنه العليم الحكيم، الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه، وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه، وأنه خلق مسخر مربوب مدبر ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1] فإن قلت: فما الحكمة في كون بعض النجوم راتبا وبعضها منتقلا؟ قيل: إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

في بروجها، ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها، ولا رسم يقاس عليها، لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب، كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها، ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها، ولتشبث المعطل بذلك، وقال: لو كان فاعلها ومبدعها مختارا لم تكن على وجه واحد، وأمر واحد، وقدر واحد، فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق، وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته.

ثم تأمل هذا الفلك الدوار، بشمسه وقمره، ونجومه وبروجه، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام، وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار، والفصول، والحر والبرد، وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض، من أصناف الحيوان، والنبات، وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم، وتقدير العزيز العليم، ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الإقرار به فقالت لهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ

فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾[(١)] فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده، فما ينكره الا مكابر بلسانه وقلبه، وعقله وفطرته، وكلها تكذبه)[(٢)].

يتلخص لنا من هذا المبحث أن ابن القيم – رحمه الله – تحدث عن أسرار خلق الله في الأجرام السماوية، والمخلوقات الأرضية، من الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وما يحصل بسبب سيرها ودورانها سواء على نفسها أو على ما يقابلها من كواكب أخرى، وما يتمخض من ذلك من ليل ونهار، وما يحصل من الفصول الأربعة من صيف وشتاء وربيع وخريف، وما ذكره من أقاليم في الأرض في الشمال والجنوب والشرق والأرض، واختلاف المخلوقات الموجودة فيها كل على حسب الجهة التي هو فيها، وما ينتج عن ذلك من اختلاف الألوان والأشكال والأوصاف والطباع، مما يدل على عظم خلق الله، وأسرار حكمه في مخلوقاته، مما يدل أوضح دلالة على وجود هذا الرب وعظمته وحكمته، والتي تسكت الملاحدة وتفحمهم.

---

(١) سورة إبراهيم: ١٠.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٢١٠-٢١٢).

الفصل الخامس:

موقف الإمام ابن القيم - رحمه الله - من عرض شبهات الملاحدة ونقضها.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهج ابن القيم في عرض شبهات الملاحدة.

المبحث الثاني: ذكر ما أورده ابن القيم من شبهات الملاحدة وردِّه عليها .

كان الحديث في الفصل الرابع عن منهج ابن القيم – رحمه الله – في عرض الحكم والأسرار والغايات الحميدة في بديع خلق الله تعالى، وتضمن ثلاثة مباحث ذكرت فيها كلام ابن القيم – رحمه الله – عن أسرار خلق الإنسان والحيوان، والأجرام السماوية والأرضية.

وفي هذا الفصل سيدور الكلام حول جهود الإمام ابن القيم – رحمه الله – في عرض شبهات الملاحدة ونقدها.

المبحث الأول:

منهج ابن القيم في عرض شبهات الملاحدة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: عرض الشبهات على سبيل الإجمال لا التفصيل.

المطلب الثاني: نقض كل شبهة بالتفصيل واستعمال جميع أنواع الأدلة في النقض.

المطلب الثالث: بيان ابن القيم للموقف الصحيح الواجب على المؤمن عند ورود الشبهات.

المطلب الأول:

عرض الشبهات على سبيل الإجمال لا التفصيل

في هذا المطلب سأنقل كلام ابن القيم – رحمه الله – في عرضه لشبهات الملاحدة على سبيل الإجمال لا التفصيل، حيث اقتفى في ذلك منهج السلف، حيث كانوا يجملون في العرض، ويفصلون في الرد، وقد أجمل في هذا المطلب عند ما أراد عرض الشبهات فقال – رحمه الله –: (إن الشبهات القادحة في نبوات الأنبياء ووجود الرب ومعاد الأبدان التي يسميها أصحابها حججا عقلية، هي كلها معارضة للنقل، وهي أقوى من الشبه التي يدعي النفاة للصفات أنها معقولات خالفت النقل أو من جنسها أو قريبة منها، كما قيل:

دع الخمر يشربها الغواة فإنني ... رأيت أخاها مغنيا بمكانها
فإن لا يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها غذته أمه بلبانها

فقد أورد على القدح في النبوات ثمانين شبهة أو أكثر، وهي كلها عقلية، وأورد على إثبات الصانع سبحانه نحو أربعين شبهة، كلها عقلية، وأورد على المعاد نحو ذلك، والله يعلم أن هذه الشبه من شبه جنس نفاة الصفات، وعلو الله على خلقه، وتكلمه وتكليمه، ورؤيته بالأبصار عيانا في الآخرة، لكن نفقت هذه الشبهة بجاه نسبة أربابها إلى الرسول والإسلام، وأنهم يذبون عن دينه، وينزهون الرب عما لا يليق به، وإلا فعند التحقيق يسفر القاع عن فخ كله) [1].

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/٨٥٦-٨٥٨).

المطلب الثاني:

نقض كل شبهة بالتفصيل واستعمال جميع أنواع الأدلة في النقض

أما في هذا المطلب فقد فصّل ابن القيم – رحمه الله – إذ المقام يناسبه التفصيل؛ لأنه فيه الرد على الشبهات، فقد استوعب الرد، واستقصى الأدلة، وناقش كل الإيرادات، حتى لا يبقى في قلب من علقت به الشبهة أدنى شك في بطلانها. فقال – رحمه الله –: (وقال سبحانه في تثبيت أمر البعث: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[1] إلى آخر السورة.

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة، أو بمثلها، في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ، في الإيجاز والاختصار، ووضوح الدلالة، وصحة البرهان، لألفى نفسه ظاهر العجز، منقطع الطمع، يستحي الناس من ذلك.

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد، اقتضى جوابا، فكان في قوله سبحانه: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾[2] ما وفى بالجواب، وأقام الحجة، وأزال الشبهة، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته، وزيادة تقريرها، وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه، وبدأ كونه، وذكر خلقه، لكانت فكرته فيه كافية في جوابه، مسكتة له عن هذا

---

(١) سورة يس: ٧٨ – ٧٩.

(٢) سورة يس: ٧٨.

السؤال، ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾[١] وصرح به جوابا له عن مسألته فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٢] فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علما ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه، وعلمه بتفاصيل خلقه، اتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٣] فهو عليم بالخلق الأول، وتفاصيله وجزئياته، ومواده وصورته وعلله الأربع.

وكذلك هو عليم بالخلق الثاني، وتفاصيله ومواده، وكيفية إنشائه، فإن كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم! ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر، يقول: العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها، باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة، لتقبل صورة الحياة، فتولى سبحانه جواب هذا السؤال بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب معا فقال:

---

(١) سورة يس: ٧٨.

(٢) سورة يس: ٧٩.

(٣) سورة يس: ٧٩.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[١] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها، ولا تستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهي رميم. ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر)[٢].

وقال - رحمه الله -: (إن الرجل إما أن يكون مقرا بالرسل، أو جاحدا لرسالتهم، فإن كان منكرا فالكلام معه في تثبيت النبوة، فلا وجه للكلام معه في تعارض العقل والنقل، فإن تعارضهما فرع الإقرار بصحة كل واحد منهما، لو تجرد عن المعارض، فمن لم يقر بالدليل العقلي لم يخاطب في تعارض الدليل العقلي والشرعي.

---

(١) سورة يس: ٨٠.

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/٤٧٣-٤٧٥).

وكذلك من لم يقر بالدليل الشرعي لم يخاطب في هذا التعارض، فمن لم يقر بالأنبياء لم يستفد من خبرهم دليلا شرعيا، فهذا يتكلم معه في إثبات النبوات أولا، وإن كان مقرا بالرسالة فالكلام معه في مقامات:

أحدها: صدق الرسول فيما أخبر به، فإن أنكر ذلك أنكر الرسالة والنبوة، وإن زعم أنه مقر بهما، وأن الرسل خاطبوا الجمهور بخلاف الحق؛ تقريبا إلى أفهامهم، ومضمون هذا أنهم كذبوا للمصلحة، وهذا حقيقة قول هؤلاء، وهو عندهم كذب حسن، وإن أقر بأنه صادق فيما أخبر به فالكلام معه في:

المقام الثاني: وهو هل يقر بأنه أخبر بهذا أو لا يقر به، فإن لم يقر به جهلا عرف ذلك بما يعرف به أنه ظهر ودعا إلى الله، وحارب أعداءه، فإن أصر على إنكاره ذلك فقد خرج من جملة العقلاء، وأنكر الأمور الضرورية، كوجود بغداد ومكة والهند وغيرها، وإن أقر بأنه أخبر بذلك فالكلام معه في:

المقام الثالث: وهو أنه هل أراد ما دل عليه كلامه ولفظه أو أراد خلافه؟ فإن ادعى أنه أراده فالكلام معه في:

المقام الرابع: وهو أن هذا المراد حق في نفسه أم باطل، فإن كان حقا لم يتصور أن يعارضه دليل عقلي ألبتة، وإن كان باطلا انتقلنا معه إلى:

مقام خامس: وهو أنه هل كان يعلم الحق في نفس الأمر أو لا؟ يعلمه فإن قال لم يكن عالما به فقد نسبه إلى الجهل، وإن قال كان عالما به انتقلنا معه إلى:

مقام سادس: وهو أنه هل كان يمكنه التعبير والإفصاح عن الحق كما فعلتم أنتم بزعمكم أو لم يكن ذلك ممكنا له؟ فإن لم يكن ذلك ممكنا له كان تعجيزا له ولمرسله، عن أمر قدر عليه أفراخ الفلاسفة، وتلامذة اليهود، وأوقاح المعتزلة والجهمية، وإن كان ممكنا له ولم يفعله كان ذلك غشا للأمة، وتوريطا لها في الجهل بالله وأسمائه وصفاته، واعتقاد مالا يليق بعظمته فيه، وأن الجهمية والمعتزلة، وأفراخ اليونان، وورثة الصابئين والمجوس، هم الذين نزهوا الله سبحانه عما لا يليق به، ووصفوه بما يليق به، وتكلموا بالحلق الذي كتمه الرسول، وهذا أمر لا محيد لكم عنه فاختاروا أي قسم شئتم من هذه الأقسام.

والظاهر أنكم متنازعون في الاختيار، وأن عقلاءكم مختارون أن الرسول كان يدري الحق في خلاف ما أخبر به، وإن كان قادرا على التعبير عنه، ولكن ترك ذلك خشية التنفير، فخاطب الناس خطابا جمهوريا يناسب

عقولهم بها الأمر بخلافه، وهذا أحسن أقوالكم إذا آمنتم بالرسول وأقررتم بما جاء به) [(١)].

ثم ذكر ابن القيم – رحمه الله – المحاجة والمجادلة من إبراهيم عليه السلام للنمرود الجاحد لوجود الله المذكورة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(٢)] حيث قال – رحمه الله –: (فإن من تأمل موقع الحجاج وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان، بأوجز عبارة، فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت، أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة، وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة.

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/٨٦٦– ٨٦٩).
(٢) سورة البقرة: ٢٥٨.

فإن كان صادقا فليتصرف في الشمس تصرفا تصح به دعواه، وليس هذا انتقالا من حجة إلى حجة أوضح منها، كما زعم بعض النظار وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة)[١].

ثم ذكر ابن القيم - رحمه الله - تعالى ما رد الله به على من الملاحدة المنكرين للخالق سبحانه فقال: (ومن هذا احتجاجه سبحانه على المشركين بالدليل المقسم الحاصر، الذي لا يجد سامعه إلى رده ولا معارضته سبيلا، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[٢] فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة، يقول تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل، أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق. ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها، ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا، وعمارات محكمة، لم يتخالجه شك ولا ريب، أن صانعا صنعها وبانيا بناها.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٩٠-٤٩١).

(٢) سورة الطور: ٣٥ - ٣٦.

ثم قال: ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[١] وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعا ولا ظفرا ولا شعرة، كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه؟ وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقا خلقهم، وفاطرا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلها غيره؟ وهو وحده الخالق لهم. فإن قيل: فما موقع قوله ﴿ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[٢] من هذه الحجة؟ قيل أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقا وفاطرا، وأنهم مخلوقون، وبين بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم، ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم، وخلق السموات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن، بخلق العالم العلوي والسفلي وما فيه)[٣].

---

(١) سورة الطور: ٣٥.

(٢) سورة الطور: ٣٦.

(٣) الصواعق المرسلة (٢/٤٩٢-٤٩٤).

المطلب الثالث:

بيان ابن القيم للموقف الصحيح الواجب على المؤمن عند ورود الشبهات

في هذا المطلب سأذكر كلام ابن القيم - رحمه الله – في موقف المؤمن عندما ترِدُه الشبهات قال - رحمه الله - تعالى: (ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لايصلحون لحمله، وهم أربعة: أحدهم: من ليس هو بمأمون عليه، وهو الذي أوتى ذكاء وحفظا، ولكن مع ذلك لم يؤت زكاء، فهو يتخذ العلم الذي هو آلة الدين آلة الدنيا، يستجلبها به، ويتوسل بالعلم إليها، ويجعل البضاعة التي هي متجر الآخرة متجر الدنيا، وهذا غير أمين على ما حمله من العلم، ولا يجعله الله إماما فيه قط، فإن الأمين هو الذي لاغرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته، فلا يدعو إلى إقامة رياسته، ولا دنياه، وهذا الذي قد اتخذ بضاعة الآخرة، ومتجرها متجرا للدنيا، قد خان الله، وخان عباده، وخان دينه، فلهذا قال غير مأمون عليه، وقوله يستظهر بحجج الله على كتابه، وبنعمه على عباده، هذه صفة هذا الخائن إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس، وإذا تعلم علما استظهر به على كتاب الله، ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله: تحكيمه عليه، وتقديمه وإقامته دونه، وهذه حال كثير ممن يحصل له علم، فإنه يستغنى به، ويستظهر به، ويحكمه ويجعل كتاب الله تبعا له، يقال: استظهر فلان على كذا بكذا، أي ظهر عليه به وتقدم، وجعله وراء ظهره، وليست هذه حال العلماء، فإن العالم حقا يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه، فيقدمه ويحكمه ويجعله عيارا على غيره مهيمنا عليه كما

جعله الله تعالى كذلك فالمستظهر به موفق سعيد والمستظهر عليه مخذول شقي فمن استظهر على الشيء فقد جعله خلف ظهره، مقدما عليه ما استظهر به، وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه، واكتفى بغيره منه، وقدم غيره، وأخره، والصنف الثاني من حملة العلم المنقاد، الذي لم يثلج له صدره، ولم يطمئن به قلبه، بل هو ضعيف البصيرة فيه، لكنه منقاد لأهله، وهذه حال اتباع الحق من مقلديهم، وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين، وإنما هم من مكثري سواد الجيش، لا من أمرائه وفرسانه، والمنقاد منفعل من قاده يقوده، ...، قال لبيد:

فقلت ازدجر احناء طيرك واعلمن   بأنـك إن قـدمت رجلـك عـاثر

والطير هنا الخفة والطيش، وقوله: ينقدح الشك في قلبه بأول عارض، من شبهة هذا؛ لضعف علمه، وقلة بصيرته إذا وردت على قلبه ادنى شبهة قدحت فيه الشك والريب، بخلاف الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكا، لأنه قد رسخ في العلم، فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم، وجيشه مغلولة مغلوبة، والشبهة وارد يرد على القلب، يحول بينه وبين انكشاف الحق له، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه، بل يقوى علمه ويقينه بردها، ومعرفة بطلانها، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق

قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها، حتى يصير شاكا مرتابا، والقلب يتوارده جيشان من الباطل، جيش شهوات الغي، وجيش شبهات الباطل، فأيما قلب صغا إليها، وركن إليها، تشربها وامتلأ بها، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها، فإن أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه، وقال لي شيخ الاسلام – رضى الله عنه – وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد: لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فاذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرا للشبهات، أو كما قال، فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك وإنما سميت الشبهة شبهة؛ لاشتباه الحق بالباطل فيها؛ فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس، فيعتقد صحتها وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك، بل يجاوز نظره إلى باطنها، وما تحت لباسها، فينكشف له حقيقتها. . . وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح، وفي مثل هذا قال أئمة السنة – منهم الإمام أحمد وغيره–: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعت،

فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله – من حياته، وعلمه، وكلامه، وسمعه، وبصره، وسائر ما وصف به نفسه – تشبيها وتجسيما، ومن أثبت ذلك مشبها، فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول الصغيرة القاصرة، خفافيش البصائر، وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل، ولا تغتر باللفظ كما قيل في هذا المعنى:

تقول هذا جنى النحل تمدحه ... وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل؟ فجرده من لباس العبارة، وجرد قلبك عن النفرة والميل، ثم أعط النظر حقه، ناظرا بعين الإنصاف، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظرا تاما بكل قلبه، ثم ينظر في مقالة خصومه وممن يسيء ظنه به، كنظر الشزر والملاحظة، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ، والناظر بعين المحبة عكسه، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته، وارتضاه لقبول الحق)[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/١٣٩-١٤١).

ويتلخص من هذا المبحث أن ابن القيم - رحمه الله - عندما قام بعرض شبهات الملاحدة عرضها مجملة، وعندما أراد أن يرد عليها وينقضها ذكرها شبهة شبهة بالتفصيل، واستعمل جميع أنواع الأدلة في نقضها.

وأخيراً بين ابن القيم - رحمه الله - تعالى الموقف الصحيح الواجب على المؤمن عند ورود الشبهات بعدم التعرض لها لا قراءة ولا استماعاً ولا مخالطة لأصحاب الشبهات.

المبحث الثاني:

ذكر ما أورده ابن القيم من شبهات الملاحدة وردّه عليها

قال ابن القيم - رحمه الله -: (ومن هذا احتجاجه سبحانه على المشركين بالدليل المقسم الحاصر، الذي لا يجد سامعه إلى رده ولا معارضته سبيلا، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[1] فتأمل هذا الترديد والحصر، المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق، وأفصح عبارة، يقول تعالى هؤلاء مخلوقون، بعد أن لم يكونوا فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق.

ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها، ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا، وعمارات محكمة، لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانيا بناها.

ثم قال ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[2] وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعا، ولا ظفرا، ولا شعرة، كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه؟

---

(١) سورة الطور: ٣٥ – ٣٦.

(٢) سورة الطور: ٣٥.

وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقا خلقهم، وفاطرا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلها غيره وهو وحده الخالق لهم؟! فإن قيل: فما موقع قوله ﴿ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾(١) من هذه الحجة؟ قيل: أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقا وفاطرا، وأنهم مخلوقون، وبين بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم، ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن بخلق العالم العلوي والسفلي وما فيه)(٢).

وقال – رحمه الله – في رده على شبهة الملاحدة القائلين بالصدفة: (فسَل المعطل الجاحد ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته، وأحكم تركيبه، وقدرت أدواته أحسن تقدير، وأبلغه، بحيث لا يرى الناظر فيه خللا في مادته، ولا في صورته، وقد جعل على حديقة عظيمة، فيها من كل أنواع الثمار والزروع، يسقيها حاجتها، وفي تلك الحديقة من يلم شعثها، ويحسن مراعاتها وتعهدها، والقيام بجميع مصالحها، فلا يختل منها شيء، ولا يتلف

(١) سورة الطور: ٣٦.
(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/٤٩٢-٤٩٤).

ثمارها، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج، بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به، ويقسمه هكذا على الدوام، أترى هذا اتفاقا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر، بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة، وكل ذلك اتفاقا، من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر، أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان! وما الذي يفتيك به وما الذي يرشدك إليه! ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوبا عميا لا بصائر لها، فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية، كما خلق أعينا لا أبصار لها، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وهي لا تراها فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها، فهي تقول في ضوء النهار هذا ليل، ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئا، ولقد أحسن القائل:

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء) [(١)].

وقال – رحمه الله –: (وبهذا يعلم أن الفلاسفة الذين يقولون بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة شر من النصارى، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقا لله، وقوله أخبث من قول النصارى، لأن النصارى أخرجوا عن عموم خلقه شخصا واحدا أو

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٢١٤).

شخصين، ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقا لله، والنصارى لم يصل كفرهم إلى هذا الحد)[1].

وخلاصة هذا المبحث أن ابن القيم - رحمه الله - ذكر عدة شبه من شبه الملاحدة ثم قام بالرد عليها شبهة شبهة، فذكر شبهة إنكار الخالق، وشبهة القائلين بالصدفة، وشبهة القائلين بقدم العالم، وبيَّن فسادها وتناقضها، ثم وضح إثبات ربوبية الله عز وجل وألوهيته على خلقه.

---

(١) بدائع الفوائد (١٥٤/٤).

الفصل السادس:

منهجه من استدلالات أهل الكلام في الرد على الملاحدة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان ابن القيم لفساد طرق المتكلمين

المبحث الثاني: تعقب ابن القيم لاستدلالات المتكلمين وحججهم الضعيفة في الرد على الملاحدة وغيرهم.

قد انتهينا من الفصل الخامس، والذي ذكرت فيه جهود ابن القيم – رحمه الله – في عرض شبهات الملاحدة ونقدها، وتعرفنا فيه على منهج ابن القيم – رحمه الله – في عرضه لشبهات الملاحدة، وإجماله لها ثم نقض كل شبهة بالتفصيل، مع بيانه الموقف الصحيح عند ورود الشبهات.

وفي هذا الفصل سأذكر منهجه في استدلالات أهل الكلام في الرد على الملاحدة، حيث يبين فيه فساد طرق المتكلمين، وتعقبه لاستدلالاتهم وحججهم الضعيفة في الرد على الملاحدة وأهل الكتاب لئلا يغتر بهم أحد أو تأثر.

المبحث الأول:

بيان ابن القيم لفساد طرق المتكلمين

في هذا المبحث يبين ابن القيم – رحمه الله – فساد طرق المتكلمين؛ لئلا يغتر بهم أحد أو ينخدع بكلامهم فقال – رحمه الله –: (إن هؤلاء المعارضين بين العقل والوحي لا يمكنهم إثبات الصانع، بل نفيه بالكلية لازم قولهم لزوما بينا، ولا أن العالم مخلوق له، ولا يمكنهم إقامة الدليل على استحالة إلهين، ولا يمكنهم إقامة دليل واحد على استحالة كون الصانع جسما، ولا يمكنهم إثبات كونه عالما ولا قادرا، ولا ربا، فهم عاجزون عن إثبات وجود الصانع، فضلا عن تنزيهه، ونقتصر من هذه الجملة على بيان عجزهم عن إثبات وجوده سبحانه، فضلا عن تنزيهه عن صفات كماله، فنقول: المعارضون بين الوحي والعقل في الأصل هم الزنادقة المنكرون للنبوات وحدوث العالم والمعاد، ووافقهم في هذا الأصل الجهمية والمعطلة لصفات الرب وأفعاله، والطائفتان لم تثبت للعالم صانعا ألبتة، فإن الصانع الذي أثبتوه وجوده مستحيل، فضلا عن كونه واجب الوجود قديما. . .)[1].

وقال ابن القيم – رحمه الله –: (والملحد لا يتمكن من الرد على الملحد وقد وافقه في الأصل وإن خالفه في فروعه فلهذا استطال على هؤلاء الملاحدة كابن سينا وأتباعه غاية الاستطالة وقالوا: القول في نصوص المعاد كالقول في

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/٩٦٢-٩٦٣).

نصوص الصفات، قالوا: بل الأمر فيها أسهل من نصوص الصفات؛ لكثرتها وتنوعها، وتعدد طرقها وإثباتها على وجه يتعذر معه التأويل، فإذا كان الخطاب بها خطابا جمهوريا فنصوص المعاد أولى، قال: فإن قلتم نصوص الصفات قد عارضها ما يدل على انتفائها من العقل، قلنا: ونصوص المعاد قد عارضها من العقل ما يدل على انتفائها، ثم ذكر العقليات المعارضة للمعاد بما يعلم به العاقل أن العقليات المعارضة للصفات من جنسها أو أضعف منها) [١].

وقال – رحمه الله –: (من المعلوم أن كل مبطل أنكر على خصمه شيئا من الباطل قد شاركه في بعضه أو نظيره، فإنه لا يتمكن من دحض حجته؛ لأن خصمه تسلط عليه بمثل ما تسلط هو به عليه)[٢].

ويتلخص معنا من هذا المبحث أن ابن القيم – رحمه الله – تعالى بين فيه فساد طرق المتكلمين في ردهم على الملاحدة، حيث أنهم إذا ردوا على الملاحدة مستدلين بالآيات والأحاديث ردوا عليهم بأنها مؤولة كما أولتم نصوص الصفات.

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/٩١٧–٩١٩).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (ص٨٠).

المبحث الثاني:

تعقب ابن القيم لاستدلالات المتكلمين وحججهم الضعيفة في الرد على الملاحدة وغيرهم

ذكرت في المبحث السابق بيان فساد طريقة المتكلمين في ردهم على الملاحدة، وأنها طرق فاسدة لا تروي غليلا، ولا تشفي عليلاً، وأنه لا يمكن إثبات الخالق بطرقهم حيث إنهم معارضين بين العقل والوحي، وفي هذا المبحث أذكر كلام ابن القيم - رحمه الله - في تعقب استدلالات المتكلمين وحججهم الضعيفة في الرد على اليهود والملاحدة وغيرهم؛ لأن هذا يترتب عليه إظهار حجج الإسلام وأدلته ضعيفة؛ فقال - رحمه الله -: (إن الجهمية المعطلة معترفون بوصفه تعالى بعلو القهر وعلو القدر، وإن ذلك كمال لا نقص، فإنه من لوازم ذاته، فيقال: ما أثبتم به هذين النوعين من العلو والفوقية هو بعينه حجة خصومكم عليكم في إثبات علو الذات له سبحانه، وما نفيتم به علو الذات يلزمكم أن تنفوا به ذينك الوجهين من العلو، فأحد الأمرين لازم لكم، ولا بد إما أن تثبتوا له سبحانه العلو المطلق من كل جهة ذاتا وقهرا وقدرا، وإما أن تنفوا ذلك كله، فإنكم إذا نفيتم علو ذاته سبحانه بناء على لزوم التجسيم - وهو لازم لكم فيما أثبتموه من وجهي العلو - فإن الذات القاهرة لغيرها التي هي أعلى قدرا من غيرها إن لم يعقل كونها غير جسم لزمكم التجسيم، وإن عقل كونها غير جسم فكيف لا يعقل أن تكون الذات العالية على سائر الذوات غير جسم! وكيف لزم التجسيم من هذا العلو ولم يلزم من ذلك العلو! فإن قلتم: لأن هذا العلو يستلزم تميز شيء عن

شيء منه، قيل لكم: في العلم أو في الخارج؟ فإن قلتم: في الخارج كذبتم وافتريتم وأضحكتم عليكم المجانين فضلا عن العقلاء، وإن قلتم: في الذهن، فهذا لازم لكل من أثبت للعالم ربا خالقا ولا خلاص من ذلك إلا بإنكار وجوده رأساً) [(١)].

وقال - رحمه الله -: (ولا ريب أن أصولهم التي عارضوا بها الوحي تنفي وجود الصانع، فضلا عن كونه صانعا للعالم، بل تجعله ممتنع الوجود فضلا عن كونه واجب الوجود؛ لأن الصفات التي وصفوه بها صفات معدوم ممتنع في العقل والخارج، فلا العقل يتصور إلا على سبيل الفرض الممتنع، كما يفرض المستحيلات، ولا يمكن في الخارج وجوده، فإن ذاتا هي وجود مطلق لا ماهية لها سوى الوجود المطلق المجرد على كل ماهية، ولا صفة لها ألبتة، ولا فيها معنيان متغايران في المفهوم، ولا هي هذا العالم، ولا صفة من صفاته، ولا داخلة فيه ولا خارجة عنه، ولا متصلة به ولا منفصلة عنه، ولا مجانبة له ولا مباينة، ولا فوقه ولا تحته، ولا يمينه ولا يسرته، ولا ترى ولا يمكن أن ترى، ولا تدرك شيئا ولا تدرك هي بشيء من الحواس، ولا هي متحركة ولا ساكنة، ولا توصف بغير السلوب والإضافات العدمية،

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/١٣٢٤-١٣٢٥).

ولا نعتت بشيء من الأمور الثبوتية، هي بامتناع الوجود أحق منها بإمكان الوجود، فضلا عن وجوبه، وتكليف العقل بالاعتراف بوجود هذه الذات ووجوبها كتكليفه الجمع بين النقيضين، ومعلوم أن مثل هذه الذات لا تصلح لفعل، ولا ربوبية ولا إلهية، وأي ذات فرضت في الوجود فهي أكمل منها، فالذي جعلوه واجب الوجود هو أعظم استحالة من كل ما يقدر مستحيلا، فلا يكثر عليهم بعد هذا إنكارهم لصفاته، كعلمه وقدرته، وحياته وسمعه، وبصره، ولا إنكارهم لكلامه وتكليمه، فضلا عن استوائه على عرشه، ونزوله إلى سماء الدنيا ومجيئه، وإتيانه وفرحه وحبه، وغضبه ورضاه، فمن هدم قواعد البيت من أصلها هان عليه هدم السقف والجدران ولهذا كان حقيقة قول هؤلاء القول بالدهر، وإنكار الخالق بالكلية، وقولهم ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[(١)] وإنما صانعوا المسلمين بألفاظ لا حقيقة لها، واشتق إخوانهم الجهمية النفي والتعطيل من أصولهم، فسدوا على أنفسهم طريق العلم بإثبات الخالق وتوحيده، بمشاركتهم لهم في الأصل المذكور، وإن باينوهم في بعض لوازمهم كإثباتهم كون الرب تعالى قادرا مريدا فاعلا بالاختيار، وإثباتهم معاد الأبدان،

---

(١) سورة الجاثية: ٢٤.

والنبوة، ولكن لم يثبتوا ذلك على الوجه الذي جاءت به الرسل، ولا نفوه نفي إخوانهم الملاحدة، بل اشتقوا مذهبا بين المذهبين، وسلكوا طريقا بين الطريقين، لا للملاحدة فيه وافقوا، ولا للرسل اتبعوا، ولهذا عظمت بهم البلية على الإسلام وأهله، بانتسابهم إليه، وظهورهم في مظهر ينصرون به الإسلام، ويردون به على الملاحدة، فلا للإسلام نصروا ولا لأعدائه كسروا)[١].

وقال – رحمه الله –: (وأما المتكلمون: فلما رأوا بطلان هذه الطريق عدلوا عنها إلى طريق الحركة والسكون، والاجتماع والافتراق، وتماثل الأجسام وتركبها من الجواهر المفردة[٢]، وأنها قابلة للحوادث وما يقبل الحوادث فهو حادث، فالأجسام كلها حادثة، فإذا يجب أن يكون لها محدث ليس بجسم، فنفوا العلم بإثبات الصانع على حدوث الأجسام، واستدلوا على حدوثها بأنها مستلزمة للحركة والسكون، والاجتماع والافتراق، ثم قالوا: إن تلك أعراض والأعراض حادثة، ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث، فاحتاجوا في هذه الطريق إلى إثبات الأعراض أولا، ثم إثبات لزومها للجسم ثانيا، ثم إبطال حوادث لا أول لها ثالثا، ثم التزام بطلان حوادث لا

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/٩٧١-٩٧٣).

(٢) انظر: تمهيد الأوائل للباقلاني ص (٥٧)، التبصير في الدين للإسفراييني ص (١٦٠).

نهاية لها رابعا، عند فريق منكم، وإلزام الفرق عند فريق آخر، ثم إثبات الجوهر الفرد خامسا، ثم إلزام كون العرض لا يبقى زمانين سادسا، فيلزم حدوثه، والجسم لا يخلو منه، ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث، ثم إثبات تماثل الأجسام سابعا، فيصح على بعضها، ما يصح على جميعها، فعلمهم بإثبات الخالق سبحانه مبني على هذه الأمور الشنيعة، فلزمهم من سلوك هذه الطريق إنكار كون الرب تعالى فاعلا في الحقيقة، وإن سموه فاعلا بألسنتهم، فإنه لا يقوم به عندهم فعل، وفاعل بلا فعل كقائم بلا قيام، وضارب بلا ضرب، وعالم بلا علم، وضم الجهمية إلى ذلك أنه لو قام به صفة لكان جسما، ولو كان جسما لكان حادثا، فيلزم من إثبات صفاته إنكار ذاته، فعطلوا صفاته وأفعاله بالطريق الذي أثبتوا بها وجوده، فكانت أبلغ الطرق في تعطيل صفاته وأفعاله، وعن هذه الطريق أنكروا علوه على عرشه، وتكلمه بالقرآن، وتكليمه لموسى، ورؤيته بالأبصار في الآخرة، ونزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة، ومجيئه لفصل القضاء بين الخلائق، وغضبه ذلك اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وجميع ما وصف به نفسه من وصف ذاتي أو معنوي أو فعلي، فأنكروا وجهه الأعلى وأنكروا أن له يدين، وأن له سمعا

وبصرا وحياة، وأنه يفعل ما شاء حقيقة، وإن سمي فاعلا فلم يستحق ذلك الفعل الذي قام به بل فعله هو عين مفعوله) [١].

وقال – رحمه الله –: (من المعلوم أن كل مبطل أنكر على خصمه شيئا من الباطل قد شاركه في بعضه أو نظيره، فإنه لا يتمكن من دحض حجته لأن خصمه تسلط عليه بمثل ما تسلط هو به عليه.

مثاله: أن يحتج من يتأول الصفات الخبرية وآيات الفوقية والعلو على من ينكر ثبوت صفة السمع والبصر والعلم بالآيات والأحاديث الدالة على ثبوتها، فيقول له خصمه: هذه عندي مؤولة كما أولت نصوص الاستواء والفوقية والوجه واليدين والنزول والضحك والفرح والغضب والرضى ونحوها، فما الذي جعلك أولى بالصواب في تأويلك مني؟ فلا يذكر سببا على التأويل إلا أتاه خصمه بسبب من جنسه أو أقوى منه أو دونه، وإذا استدل المتأول على منكري المعاد وحشر الأجسام بنصوص الوحي أبدوا لها تأويلات تخالف ظاهرها وحقائقها، وقالوا لمن استدل بها عليهم: تأويلنا لهذه الظواهر كتأويلك لنصوص الصفات، ولا سيما فإنها أكثر وأصرح، فإذا تطرق التأويل إليها فهو إلى ما دونها أقرب تطرقا، وإذا استدل بالنصوص الدالة على فضل

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/٩٨٤-٩٨٦).

الشيخين وسائر الصحابة تأولوها بما هو من جنس تأويلات الجهمي، وإذا احتج الجهمي على الخارجي بالنصوص الدالة على إيمان مرتكب الكبائر، وأنه لا يكفر ولا يخلد في النار، واحتج بها على الوعيديين القائلين بنفوذ الوعيد والتخليد، قالوا: هذه متأولة، وتأويلها أقرب من تأويل نصوص الصفات، وإذا احتج على المرجئة بالنصوص الدالة على أن الإيمان قول وعمل ونية يزيد وينقص، قالوا: هذه النصوص قابلة للتأويل كما قبلته نصوص الاستواء والفوقية والصفات الخبرية، فنعمل فيها ما عملتم أنتم في تلك النصوص.

فقد بان لا يمكن أهل التأويل أن يقيموا على مبطل حجة من كتاب ولا سنة، ولم يبق لهم إلا نتائج الأفكار وتصادم الآراء، لا سيما وقد أعطى الجهمي من نفسه أن أكثر اللغة مجاز[(١)]، وأن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين، وأن العقل إذا عارض السمع وجب تقديم العقل، بل نقول: إنه لا يمكن أرباب التأويل أن يقيموا على مبطل حجة عقلية أبداً وهذا أعجب من الأول)[(٢)].

---

(١)مختصر الصواعق المرسلة (ص٨٠-٨١).

(٢) المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، كالأسد للرجل الشجاع، وقد اختلف العلماء في هذا التقسيم، وهل يوجد في اللغة العربية وفي الشرع مجاز، وهل عرف السلف هذا =

وقال – رحمه الله –: (والمتأول لا يمكنه أن يقيم على مبطل حجة نقلية ولا عقلية، أما النقل فإنه عنده قابل للتأويل، وهو لا يفيد اليقين، وأما العقل فلأنه قد خرج عن صريحه وموجبه بالقواعد التي قادته إلى تأويل النصوص وإخراجها عن ظواهرها وحقائقها، فصارت تلك القواعد الباطلة حجابا بينه وبين العقل والسمع، فإذا احتج على خصمه بحجة عقلية نازعه خصمه في مقدمتها بما سلم له من القواعد التي تخالفها.

فالمقصود الصريح هو ما دلت عليه النصوص، فإذا أبطله بالتأويل فلم يبق معه صحيح يحتج به على خصمه كما لم يبق معه منقول صريح، فإنه قد عرض المنقول للتأويل، والمعقول الصريح خرج عنه بالذي ظن أنه معقول.

ومثال هذا أن العقل الصحيح الذي لا يكذب ولا يغلط قد حكم حكما لا يقبل الغلط أن كل ذاتين قائمتين بأنفسهما إما أن تكون كل منهما مباينة للأخرى أو محايثة لها، وأنه يمتنع أن تكون هذه الذات قائمة بنفسها، وإحداهما ليست فوق الأخرى، ولا تحتها، ولا عن يمينها ولا عن يسارها

التقسيم، ومن أول من قسَّم هذا التقسيم، وما الغرض منه؟ والصحيح الذي عليه أهل العلم الربانيين المتمسكين بالكتاب والسنة أن هذا التقسيم مبتدع باطل لم يعرفه السف الصالح، وأن الغرض منه التوصل إلى نفي صفات الباري جلَّ جلاله، يقول ابن القيم –رحمه الله–: هذا التَّقْسِيمِ الْحَادِثِ الْمُبْتَدَعِ الْمُتَنَاقِضِ بَاطِلٌ من أكثر من أَرْبَعِينَ وَجْهًا.ا.ه بتصرف، وقد سماه في كتابه الصواعق "طاغوتاً". انظر: قواطع الأدلة للسمعاني (٢٦٩/١)، الإحكام للآمدي (٥٣/١)، إعلام الموقعين لابن القيم (٢٣٨/٣)، مختصر الصواعق المرسلة لابن الموصلي (٦٨٠/٢).

ولا محايثة ولا داخلة فيها ولا خارجة عنها، فإذا خولف مقتضى هذا المعقول الصريح ودفع موجبه، فأي دليل عقلي احتج به المخالف بعد هذا على مبطل أمكنه دفعه هو به حكم هذا العقل)[١].

وقال - رحمه الله - في معرض رده على النصارى: (وكذلك ما احتج به سبحانه على النصارى مبطلا لدعوى إلهية المسيح كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾[٢]، فأخبر تعالى أن هذا الذي أضافه من نسب الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل، ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه، ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر، والمجبول على الثبات والبقاء، لا من جواهر هذا العالم الفاني الكثير الأدناس والأوساخ والأقذار.

ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٣].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٤﴾[٤] وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص٩٥-٩٦).

(٢) الأنبياء: ١٧.

(٣) سورة الأنبياء: ١٨.

(٤) سورة الزمر: ٤.

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[١]، وقد تضمنت هذه الحجة دليلين ببطلان إلهية المسيح وأمه: أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسها، بل هي محتاجة فيما يعينهما إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لا يكون إلها، إذ من لوازم الإله أن يكون غنيا.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحى من التصريح بذكرها، ولهذا والله أعلم عبر الله سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة، فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولدا من هذا الجنس، ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب، ولا يكون منه الفضلات المستقذرة)[٢].

وقال – رحمه الله – في رده على اليهود: (انكار النبوات معناه جحد الخالق والجهل بالحقائق؛ ما وقع للفلاسفة والمجوس والنصارى واليهود من ذلك: ولذلك كان جحد نبوة خاتم أنبيائه ورسله وإنزال كتبه، وتكذيبه إنكارا للرب تعالى في الحقيقة، وجحودا له، فلا يمكن الإقرار بربوبيته وإلهيته وملكه، بل ولا بوجوده مع تكذيب محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم. .

---

(١) سورة المائدة: ٧٥.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (ص٨٩-٩٠).

. وأما اليهود فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم وغباوتهم وضلالهم ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل التي بعضها فوق بعض، ويكفي في ذلك عبادتهم العجل الذي صنعته أيديهم من ذهب، ومن عبادتهم أن جعلوه على صورة أبلد الحيوان، وأقله فطانة الذي يضرب المثل به في قلة الفهم، فانظر إلى هذه الجهالة والغباوة المتجاوزة للحد، كيف عبدوا مع الله الها آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب وجلاله ما يشاهده سواهم، واذا قد عزموا على اتخاذ اله دون الله فاتخذوه ونبيهم حي بين أظهرهم لم ينتظروا موته وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر العلوية كالشمس والقمر والنجوم بل من الجواهر الأرضية واذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر التي خلقت فوق الأرض عالية عليها كالجبال ونحوها، بل من جواهر لا تكون إلا تحت الأرض والصخور والاحجار عالة عليها، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من جوهر يستغني عن الصنعة وإدخال النار وتقليبه وجوها مختلفة، وضربه بالحديد وسبكه، بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له بضروب مختلفة، وإدخاله النار وإحراقه، واستخراج خبثه، وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال ملك كريم، ولا نبي مرسل، ولا على تمثال جوهر علوي لا تناله الأيدي بل على تمثال حيوان أرضي، وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال أشرف الحيوانات وأقواها وأشدها امتناعا من الضيم كالأسد، والفيل، ونحوهما، بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوان وأقبله للضيم والذل، بحيث يحرث عليه ويسقى عليه بالسواقي، والدواليب، ولا له قوة يمتنع بها من كبير ولا صغير، فأي معرفة لهؤلاء بمعبودهم ونبيهم، وحقائق الموجودات، وحقيق بمن سأل

نبيه أن يجعل له إلها فيعبد ألها مجعولا بعد ما شاهد تلك الآيات الباهرات ان لا يعرف حقيقة الإله ولا أسماءه وصفاته ونعوته ودينه، ولا يعرف حقيقة المخلوق وحاجته وفقره، ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم لما قالوا لنبيهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾[1] ولا قالوا له: اذهب انت وربك فقاتلا، ولا قتلوا نفسا وطرحوا المقتول على ابواب البرآء من قتله ونبيهم حي بين أظهرهم، وخبر السماء والوحي يأتيه صباحا ومساء، فكأنهم جووزا أن يخفى هذا على الله كما يخفى على الناس، ولو عرفوا معبودهم لما قالوا في بعض مخاطباتهم له: يا أبانا انتبه من رقدتك، كم تنام؟! ولو عرفوه لما سارعوا إلى محاربة أنبيائه وقتلهم وحبسهم ونفيهم، ولما تحيلوا على تحليل محارمه وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل، ولقد شهدت التوراة بعدم فطانتهم، وأنهم من الأغبياء، ولو عرفوه لما حجروا عليه بعقولهم الفاسدة أن يأمر بالشيء في وقت لمصلحة ثم يزيل الأمر به في وقت آخر لحصول المصلحة، وتبدله بما هو خير منه، وينهي عنه ثم يبيحه في وقت آخر؛ لاختلاف الأوقات والأحوال في المصالح والمفاسد كما هو مشاهد في أحكامه القدرية الكونية، التي لا يتم نظام العالم ولا مصلحته إلا بتبديلها واختلافها بحسب الأحوال والأوقات والأماكن، فلو اعتمد طبيب أن لا يغير الأدوية والأغذية بحسب اختلاف الزمان والأماكن والأحوال لأهلك الحرث والنسل وعد من الجهال، فكيف يحجر على طبيب القلوب والأديان أن تتبدل أحكامه بحسب اختلاف

---

(١) سورة البقرة: ٥٥.

المصالح، وهل ذلك إلا قدح في حكمته ورحمته وقدرته وملكه التام، وتدبيره لخلقه، ومن جهلهم بمعبودهم ورسوله وأمره أنهم أمروا أن يدخلوا باب المدينة التي فتحها الله عليهم سجدا ويقولوا: حطة فيدخلوا متواضعين لله سائلين منه أن يحط عنهم خطاياهم فدخلوا يزحفون على استاههم بدل السجود لله، ويقولون: هنطا سقمانا، أي حنطة سمراء، فذلك سجودهم وخشوعهم! وهذا استغفارهم واستقالتهم من ذنوبهم!)[(١)].

يتبين لنا من هذا المبحث أن ابن القيم - رحمه الله - تعالى تعقب استدلالات المتكلمين، وحججهم الضعيفة في الرد على والملاحدة وغيرهم، فتتبع ما أتوا به من حجج وشبهات وقام ببيان فسادها، وضعفها، وأن الحق وبيانه لا يكون إلا بطريق الوحي، وما أرشد إليه.

---

(١) هداية الحيارى (ص١٨٨-١٨٩).

الفصل السابع:

مقارنة بين منهج ابن القيم - رحمه الله - ومنهج من جاء بعده في الرد على الملاحدة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ذكر أبرز العلماء الذين ردوا على الملاحدة بعد ابن القيم.

المبحث الثاني: مقارنة بين منهج ابن القيم ومنهج من جاء بعده من أهل العلم.

بعد ما انتهينا من المبحث السابق وفيه تعقب ابن القيم رحمه الله في استدلالات المتكلمين وحججهم الضعيفة في الرد على المتكلمين وحججهم الضعيفة في الرد على اليهود والملاحدة وغيرهم، سأنتقل إلى الفصل السابع وفيه مقارنة بين منهج ابن القيم رحمه الله ومنهج من جاء بعده في الرد على الملاحدة.

المبحث الأول:

ذكر أبرز العلماء الذين ردوا على الملاحدة بعد ابن القيم.

لقد رد على الملاحدة في عصر ابن القيم وما بعده العديد من أهل العلم فمنهم من ألف تأليفاً مستقلا في الرد على الملاحدة وهم قليل جداً، ومنهم من رد على الملاحدة ضمن كتب عامة ككتب التفسير والحديث، وخصوصاً كتب التفسير منها، وقد اختلفت طريقة ردود أهل العلم هؤلاء على الملاحدة سواء من حيث كيفية الرد على شبهاتهم أو من حيث الاستدلال على تلك الردود فمن حيث الرد على الشبهات فبعضهم يجمل في ذكر الشبهات، ويفصل في الردود عليها، كما نحى منحى ابن القيم رحمه الله بعض العلماء كابن كثير والشوكاني وغيرهم من المعاصرين، ومنهم من يفصل في ذكر شبهات الملاحدة، ويجمل في الردود، وترتب على ذلك آثار سيئة فلربما كانت الردود أدنى من مستوى قوة الشبهات.

ومن حيث الاستدلال للردود على تلك الشبهات فمنهم من يقتصر على نوع أو نوعين من الأدلة كالدليل العقلي، أو الحسي أو المشاهد، وهذه بلا شك استدلالات قاصرة، ومنهم من يقتصر على الأدلة الكلامية والفلسفية في رده على شبهات الملاحدة مما ترتب على ذلك استطالة الملاحدة عليهم لضعف ردودهم واستدلالاتهم، وهنالك صنف ثالث قد نوّع في الاستدلالات عند رده على الملاحدة وشبهاتهم، فتارة يستدل بالأدلة النقلية، وتارة بالعقلية، وتارة بالحس، وأخرى بالمشاهدة، وأخرى بالفطرة، وهكذا،

وهذا الصنيع هو صنيع من نحى منحى ابن القيم رحمه الله في ردوده على الملاحدة.

ومن أبرز أهل العلم الذين ردو على الملاحدة في ثنايا مصنفاتهم:

العلامة المحلي[١] رحمه الله:

قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[٢]: (﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾[٣] من غير خالق ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[٤]أنفسهم ولا يعقل مخلوق بغير خالق ولا معدوم يخلق فلا بد لهم من خالق هو الله الواحد فلم لا يوحدونه ويؤمنون

(١) هو: جلال الدين، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلّى الشافعى، ولد بمصر سنة ٧٩١ هـ، واشتغل وبرع في الفنون فقهاً، وكلاماً، وأُصولاً، ونحواً، ومنطقاً، وغيرها. من مؤلفاته: شرح جمع الجوامع في الأصول، وشرح المنهاج في فقه الشافعية، وشرح الورقات في الأصول، توفى - رحمه الله - في أول يوم من سنة ٨٦٤ هـ انظر: التفسير والمفسرون للذهبي (٢٣٧/١).

(٢) سورة الطور: ٣٥ - ٣٦.

(٣) سورة الطور: ٣٥.

(٤) سورة الطور: ٣٥.

برسوله وكتابه، ﴿ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾[(١)] ولا يقدر على خلقهما إلا الله الخالق فلم لا يعبدونه ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[(٢)] به وإلا لآمنوا بنبيه)[(٣)].

العلامة الشوكاني رحمه الله:

قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ ﴾[(٤)]

(في هذه الآية استشهاد على ما تقدم ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت، وهمزة الاستفهام لإنكار النفي والتقرير المنفي، أي: ألم ينته علمك أو نظرك إلى هذا الذي صدرت منه هذه المحاجة؟ قال الفراء: ألم تر بمعنى: هل رأيت، أي: هل رأيت الذي حاج إبراهيم؟ . . . وقوله: ﴿ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ ﴾ أي: لأن آتاه الله، أو من أجل أن آتاه الله، على معنى: أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو، فحاج لذلك، أو على أنه وضع المحاجة التي هي

---

(١) سورة الطور: ٣٦.

(٢) سورة الطور: ٣٦.

(٣) تفسير الجلالين (ص٦٩٩).

(٤) سورة البقرة: ٢٥٨.

أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر، كما يقال: عاديتني لأني أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه الله الملك. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ هو ظرف لحاجَّ. . . قوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ . . .﴾أراد إبراهيم عليه السلام: أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد الكافر: أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة، فكان هذا جوابا أحمق، لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم، لأنه أراد غير ما أراد الكافر، فلو قال له: ربه الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل تقدر على ذلك؟ لبهت الذي كفر بادئ بدء وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسا لخناقه، وإرسالا لعنان المناظرة فقال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة. قوله: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ بهت الرجل وبهت وبهت: إذا انقطع وسكت متحيرا. . . وقال سبحانه: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ ولم يقل فبهت الذي حاج، إشعارا بأن تلك المحاجة كفر. وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ تذييل مقرر لمضمون الجملة التي قبله)[1].

---

(١) فتح القدير (٣١٨-٣١٩).

العلامة القاسمي[١] رحمه الله:

قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[٢] أي ما الحياة أو الحال غير حياتنا هذه التي نحن فيها نَمُوتُ أي بالموت البدني الطبيعي، وَنَحْيا أي الحياة الجسمانية الحسية، لا موت ولا حياة غيرهما ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[٣] أي مرّ الليالي والأيام وطول العمر ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[٤] أي: وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين. وبِذلِكَ إشارة إلى نسبة الحوادث إلى الدهر، أو إلى إنكار البعث، أو إلى كليهما قال الزمخشري[٥]: كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس. وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثة وحدث إلى الدهر

---

(١) هو: محمد جمال الدين أبو الفرج بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح ابن إسماعيل بن أبي بكر المعروف بالقاسمي، ولد سنة ١٢٨٣هـ من مؤلفاته: محاسن التأويل، قواعد التحديث، توفي سنة ١٣٣٢هـ انظر: ترجمته في مقدمة تفسيره (١/١-٢).

(٢) سورة الجاثية: ٢٤.

(٣) سورة الجاثية: ٢٤.

(٤) سورة الجاثية: ٢٤.

(٥) هو: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، الزمخشري الخوارزمي النحوي، العلامة، كبير المعتزلة، من مؤلفاته: " الكشاف "، " المفصل "، "الفائق" مات ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة. سير أعلام النبلاء (١٥١/٢٠).

والزمان. وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان، ومنه قوله - صلّى الله عليه وسلّم-: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»(١)، أي فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر. انتهى.

وقال الخطابي، معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التي تنسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور، عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جعل ظرفا لمواقع الأمور. وكان عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا: (بؤسا للدهر) و (تبا للدهر) (٢). انتهى.

قال ابن كثير: وقد غلط ابن حزم. ومن نحا نحوه من الظاهرية، في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى. أخذا من هذا الحديث(٣). انتهى.

تنبيه: في هذه الآية ردّ على الدهرية. وهم المعطلة بأن متمسكهم ظن وتخمين. لم يشم رائحة اليقين. وما هذا سبيله، فباب القبول في وجهه مسدود ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٦٢) رقم (٢٢٤٦).

(٢) انظر: معالم السنن للخطابي (٤/١٥٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/٢٧٠).

(٤) سورة يونس: ٣٦.

قال الشهرستاني في معطلة العرب: فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني. وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا. إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي. وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها.

فالجامع هو الطبع، والمهلك هو الدهر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١]. فاستدل عليهم بضرورات فكرية، وآيات فطرية، في كم آية وسورة فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٢]﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾[٤]، وقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾[٥]وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾[٦] فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق. فإنه قادر على الكمال. إبداء وإعادة. انتهى.)[٧]

---

(١) سورة الجاثية: ٢٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٤.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٥.

(٤)سورة النحل: ٤٨.

(٥) سورة فصلت: ٩.

(٦) سورة البقرة: ٢١.

(٧) محاسن التأويل القاسمي (٨/٣١٨-٣١٩).

العلامة صديق حسن خان[١] رحمه الله:

قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]: (﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار، أي أفي وحدانيته سبحانه شك؟ وهي في غاية الوضوح والجلاء، ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومخترعهما، ومبدعهما وموجدهما وما فيهما بعد العدم)[٣].

---

(١) هو: محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لُطْف الله الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيّب: من رجال النهضة الإسلامية المجددين. ولد ونشأ في قنوج (بالهند) وتعلم في دهلي، من مؤلفاته: "أبجد العلوم"، "فتح البيان في مقاصد القرآن"، "حصول المأمول من علم الأصول" توفي سنة ١٣٠٧هـ. الأعلام للزركلي (١٦٧/٦).

(٢) سورة إبراهيم: ١٠.

(٣)فتح البيان في مقاصد القرآن (٩٢/٧).

الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله[١]:

قال رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٢]: (فالله تعالى إنما ذكرهم على ألسنة رسله بهذا الإقرار والمعرفة، ولم يذكرهم قط بإقرار سابق على إيجادهم ولا أقام به عليهم حجة)[٣].

ثم ذكر أن الله تعلى بث في الكون آيات دالة على وجوده فقال: (وهذا شأن آيات الرب تعالى فإنها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾[٤] أي مثل هذا التفصيل والتبيين ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٥] من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، وهذه الآيات التي فصلها هي التي بينها في كتابه من أنواع مخلوقاته،

---

(١) هو: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بَهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له توفي سنة ١٣٥٤هـ ودفن بالقاهرة. أشهر آثاره "مجلة المنار" أصدر منها ٣٤ مجلدا، و"الوحي المحمدي"، "نداء للجنس اللطيف". انظر: الأعلام للزركلي (١٢٦/٦).

(٢) سورة إبراهيم: ١٠.

(٣) تفسير المنار (٣٣٧/٩).

(٤) سورة الأعراف: ١٧٤.

(٥) سورة الأعراف: ١٧٤.

وهي آيات أفقية ونفسية، آيات في نفوسهم وذواتهم وخلقهم، وآيات في الأقطار والنواحي مما يحدثه الرب تبارك وتعالى، مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسله، وعلى المعاد والقيامة، ومن أبينها ما أشهد به كل واحد على نفسه من أنه ربه وخالقه ومبدعه، وأنه مربوب مخلوق مصنوع حادث بعد أن لم يكن، ومحال أن يكون حدث بلا محدث أو يكون هو المحدث لنفسه، فلا بد له من موجد أوجده ليس كمثله شيء، وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة)(١).

العلامة الشنقيطي رحمه الله:

قال رحمه الله في تفسيره: (دليل الإلزام؛ لأن الخلق لابد لهم من خالق، وهذه قضية منطقية مسلمة، وهي أن كل موجود لابد له من موجد، وقد ألزمهم في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾(٢)، وهذا بالسبر والتقسيم أن يقال: إما خلقوا من غير شيء خلقهم أي: من العدم، ومعلوم أن العدم لا يخلق شيئا؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والعدم ليس أمرا وجوديا حتى يمكن له أن يوجد موجودا. أم هم الخالقون؟ وهم أيضا يعلمون من

---

(١)تفسير المنار (٩/٣٣٧).

(٢) سورة الطور: ٣٥.

أنفسهم أنهم لم يخلقوا أنفسهم، فيبقى المخلوق لابد له من خالق، وهو الله تعالى: الخالق البارئ. ولو قيل من جانب المنكر: إن ما نشاهده من وجود الموجود كالإنسان والحيوان والنبات يتوقف وجوده على أسباب نشاهدها، كالأبوين للحيوان، وكالحرث والسقي للنبات. . . إلخ، فجاء قوله تعالى: المصور، فهل الأبوان يملكان تصوير الجنين من جنس الذكورة أو الأنوثة، أو من جنس اللون، والطول والقصر والشبه؟

الجواب: لا وكلا، بل ذلك لله وحده، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾(١)، كما قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾(٢).

وكذلك في النبات توضع الحبة وتسقى بالماء، فالتربة واحدة، والماء واحد، فمن الذي يصور شكل النبات هذا نجم على وجه الأرض، وذاك نبت على ساق، وهذا كرم على عرش، وذاك نخل باسقات، فإذا طلعت الثمرة في أول طورها فمن الذي يصورها في شكلها، من استدارتها أو

---

(١) سورة آل عمران: ٦.

(٢) سورة الشورى: ٤٩ – ٥٠.

استطالتها أو غير ذلك؟ وإذا تطورت إلى النضج فمن الذي صورها في لونها الأحمر أو الأصفر أو الأسود أو الأخضر أو الأبيض؟ هل هي التربة أو الماء أو هما معا، لا وكلا. إنه هو الله الخالق البارئ المصور، سبحانه له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض طوعا وكرها)(١).

العلامة السعدي رحمه الله:

قال رحمه الله في تفسيره: (﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٢) وهذا إنكار منه لربه، ظلما وعلوا، مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى، ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾(٣) أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية. ومن جملة ذلك، أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات، وفاطر الأرض والسماوات ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾(٤) فقال فرعون متجرهما(٥)، ومعجبا لقومه: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾(٦) ما يقول هذا

---

(١) أضواء البيان (٨/٧٧-٧٨).

(٢) الشعراء: ٢٣.

(٣) سورة الشعراء: ٢٤.

(٤) سورة الشعراء: ٢٤.

(٥) يقال: رجل جِرْهام ومُجرهِم، إذا كَانَ جادّاً فِي أمره، و"الجَرهَمة" الجِدّ في الأمر. انظر: جمهرة اللغة (٢/١١٣٧)، كتاب الأفعال (١/ ١٩٩).

(٦) سورة الشعراء: ٢٥.

الرجل، فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[(١)] تعجبتم أم لا استكبرتم، أم أذعنتم.

فقال فرعون معاندا للحق، قادحا بمن جاء به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[(٢)] حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض، ما زالتا موجودتين من غير موجد وأنهم، بأنفسهم، خلقوا من غير خالق، والعقل عنده، أن يعبد المخلوق الناقص، من جميع الوجوه، والجنون عنده، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[(٣)] فقال موسى عليه السلام، مجيبا لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[(٤)]، من سائر المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٥)] فقد

(١) سورة الشعراء: ٢٦.
(٢) سورة الشعراء: ٢٧.
(٣) سورة الزخرف: ٥٤.
(٤) سورة الشعراء: ٢٨.
(٥) سورة الشعراء: ٢٨.

أديت لكم من البيان والتبيين، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه داؤكم فرميتم أزكى الخلق عقلا وأكملهم علما، بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأي شيء تثبتون؟ وإذا جهلتموه، فأي شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فبأي شيء - بعد الله وآياته - تؤمنون؟ تالله، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم، أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة، أهدى منكم)[1].

وقال شيخنا الدكتور غالب عواجي في رده على الملاحدة الشيوعيين: (مما يجب التسليم به أن ما زعمه الملاحدة من أن المجتمع قام على الشيوعية في بدايته ما هو إلّا افتراض ظنون لا يملكون على صحتها أيّ دليل صحيح، بل كل شيء يكذبهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[2].

فقد تصوروا في أخيلتهم أن البشر البدائيين أقاموا فيما بينهم شراكة في كل شيء قبل أن يتطوروا ويعرفوا الملكية الفردية، رادّين بهذا كل ما جاءت

(١) تفسير ابن سعدي (ص٥٩٠).

(٢) سورة الكهف: ٥.

بذكره الشرائع وخصوصًا الإسلام، وما شهد به التاريخ، وما تواتر نقله في كل الأجيال، وما شهد به الواقع على مر السنين من أنَّ الله تعالى هو الذي رتَّب حياة الإنسان وطريقة تعامله منذ أن أهبطه الله إلى الأرض، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأنَّ ما من أمة إلّا خلا فيها نذير، وأن الإنسان هو الإنسان من بدايته إلى نهايته، لم يتغيَّر لا في هيئته ولا في طبيعته ولا في حبه للملكية الفردية منذ وجوده على الأرض، وما تصوره الملاحدة من انعدام الملكية الفردية وذوبان الشخص في القبيلة إنما كان يصدق على بعض عهود الجاهلية من التعصُّب الشديد للقبيلة، لكن في غير الملكية الفردية، مع أن تصور عدم ميل كل شخص إلى الملكية الفردية افتراضي بعيد الوقوع ومحال، نعم وُجِدَ بين أفراد القبيلة الواحدة تعاون قوي وتعاضُد وشراكة في السراء والضراء، وتلاحم بين كل أفراد القبيلة إلى حدٍّ أن الفرد لا يتصور وجوده وكيانه وانتماءه، وما يأخذه وما يتركه، إلّا من خلال قبيلته، يفعل كل ما تفعله قبيلته، ويترك كل ما تتركه دون أن يكون له أي رأي في مخالفة عرف القبيلة، ولكن هذا الحال لا يصلح أن يكون دليلًا للملاحدة على شيوعية البشر على الطريقة التي قرَّرها ماركس وأتباعه، بل إن اعتقاد أن البشر كانوا بمنزلة البهائم في بدايتهم هو الظلم بعينه، والكذب على البشرية بعينه، وردٌّ صريح لكل ما يثبت في الأديان السماوية من تكريم الله للبشر ورفعهم عن منزلة

الحيوانات البهيمة التي تصورها الملاحدة في تفسيرهم لنشأة البشر، وقيام أمورهم على الناحية الاقتصادية والقبلية فقط كما زعموا، ثم على فرض المستحيل أن بعض المكتشفين وجدوا قبائل تعيش على الفوضى في كل شيء بما فيها الجنس، ألا يصح أن يوصف هؤلاء بأنهم شواذّ لا قيمة لهم، فاسدي الفطرة، وأن وصف البشرية كلهم بتلك الوصمة الشنيعة لأجل ما وجده هؤلاء عند تلك القبائل الهمجية يعتبر تطاولًا على تاريخ البشر؟ هذا إن صح أنهم وجدوا بشرًا بتلك الحال، مع أن كذبهم وافتراءهم وارد، ذلك أن ما من إنسان يرضى بالفوضى الجنسية في أهله، بل إنها حالة لا ترضى بها حتى الحيونات البهيمية فضلًا عن الإنسان، فقد أخبر الله –عز وجل– عن فطرة الإنسان وعن الغيرة الموجودة فيه منذ أن وجد أبناء آدم على هذه الأرض وقتل أحد بني آدم آخاه، وليت شعري لماذا يحرص الشيوعيون على إشاعة الجنس أكثر من غيره، فإن الشيوعيين يحرصون أشد الحرص على إشاعة الجنس بالطريقة المشتركة لعلَّه ترغيبًا لمن يتوق إلى ذلك من الشباب والشابات الساقطين ولظنّهم أن الشيوعية ستبني وتنهض بسبب هذه الدعايات الرخيصة، ولكنهم فوجئوا باستحقار الناس لهم واستهجانهم لهذا السلوك الشائن، فعادوا وزعموا أن شيوعية النساء ليست قاصرة على المذهب الشيوعي، وإنما هي قضية شائعة بين كل الطبقات خصوصًا الأغنياء

بصور مختلفة، ولكن هذا الدليل هو واهٍ كبيت العنكبوت لم يخرجهم أيضًا من استحقار الناس لهم في مناداتهم بالفوضى الجنسية العارمة؛ لأن الباطل لا يستدل له بالباطل، وذلك أن استدلالهم بالمنحرفين لا يعطيهم المبرر لدعواهم، فهو تبرير باطل بباطل، ويكفي أن يقال عن الجميع: إنها أوضاع فاسدة جاهلية يجب أن تصحح، ولا تستحق أن تكون قدوة أو دليلًا يظلمون به فطر الناس ويخدشون كرامتهم، سواء كانوا من الأغنياء أو من الفقراء، فهو عمل لا تقره حتى الحيوانات.

وأما زعم الملاحدة أن الناس في الشيوعية الأولى كانوا يعيشون عيشة متساوية لا فروق بينهم، فهو افتراض ينقصه الدليل، فمن أين لهم أنهم ما كانوا يشعرون بالفوارق فيما بينهم، وأقل ما فيها فوارق في الذكاء، فوارق في إتقان العمل، فوارق في القوة الجسدية والنفسية، فوارق في الشجاعة، وفوارق في المال. . . إلى آخر الفوارق التي لا يجهلها أيّ إنسان سليم العقل، وحتى الملاحدة لا يجهلونها، لولا أنهم يريدون تحبيب الشيوعية إلى الناس، وخصوصًا الناس الذين يشعرون بانتقاص المجتمع لحقوقهم، أو أنهم مغلوبون على أمرهم، ويتمنَّون أي فرصة لإثبات وجودهم الذي يحلمون به، فانتهز الملاحدة وجود هذه الفوارق الحتميّة بين الناس للمناداة بالقضاء عليها، وأنَّى لهم ان يطبقوا ذلك فعلًا وهو مخالف لما أراده الله تعالى في سننه،

ذلك أن الله تعالى هو الذي أراد للناس أن يكونوا بهذه الحال؛ منهم الذكي ومنهم البليد، ومنهم الغني ومنهم الفقير، إلى آخر الصفات المعلومة بالضرورة من أحوال البشر، فكيف يقضون على ما أراد الله بقاءه، والحاصل أنه لا دليل لهم على كل ما زعموه من تلك المساواة المكذوبة، وكذلك زعمهم أن الناس كانوا يعيشون حياة ملائكية في منتهى السعادة إن هو إلّا خيال فارغ تكذّبه طبيعة البشر منذ وجودهم إلى اليوم، إضافة إلى أنه لا دليل لهم إلّا محض أخيلتهم المنكوسة، وإلّا فأي زمن خلا عن الحرب والتنافس بين القبائل على أمور كثيرة، أقلها المرعى والحمى والغنائم، وما إلى ذلك من الأمور التي لا بُدَّ من وقوعها ضرورة في كل أجيال البشر.

وأخيرًا أخي القارئ الكريم، يجب أن تعلم أن الحقائق كلها تدل على أن الشيوعية التي نادى بها "ماركس" ورفاقه لم تكن نتتجة عن التأثر بالشيوعية الأولى فقط، وإنما كانت بدافع منها من التخطيط الماسوني اليهودي كما تبيَّن ذلك في دراستنا للماسونية حينما أوعز دهاتها إلى "كارل ماركس" أن ينادي بهذه النظرية الفاشلة؛ لأن تاريخ اليهود يدل على أنهم يستثمرون الأحداث لصالحهم، وأنهم قد برعوا في هذا الجانب، لا أنهم هم الذين يثيرون

الأحداث ابتداءً، كما يذكر بعض الباحثين مما يعطي لليهود حجمًا أكبر من حجمهم الحقيقي)[١].

وهناك من العلماء بعد ابن القيم - رحمه الله - من صنف في الرد على الملاحدة كتباً مستقلة، فمن أبرزهم:

- **محمد جمال الدين القاسمي** في كتابه "دلائل التوحيد" حيث رد فيه على الدهريين، وهم الماديون والطبيعيون.

- **والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي** في كتابه "الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين"[٢] رد فيه على الملحدين من أكثر من ثمانين وجهاً.

- **وعبد الرحمن الميداني** في كتابه "صراع مع الملاحدة حتى العظم" وفيه رد المؤلف على مقولات "نقد الفكر الديني" للدكتور صادق جلال العظم بين فيه كثيراً من المغالطات وأنواع السفسطات التي تعمدها كاتبها د. العظم؛ ليضلل بها من يطالع كتابه من مراهقي الفتيان والفتيات، من أجيال الأمة الإسلامية، خدمة متحمسَة للماركسية، وسائر النظريات بل (الفرضيات)

---

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة للدكتور غالب عواجي (٢/١٠٧٢-١٠٧٥).

(٢) طبع بمكتبة المعارف بالرياض.

اليهودية الإلحادية، وهو في كل ذلك يتستر بعبارات التقدم العلمي والصناعي، والمناهج العلمية الحديثة.

– **ووحيد الدين خان** في كتابه "الإسلام يتحدى" رد فيه على بعض ما يسمونها بالنظريات العلمية، التي ينبعث منها رائحة الإلحاد، ورفض الأديان.

– **والشيخ صالح البليهي** في كتابه "عقيدة الموحدين في الرد على الملحدين" ذكر في كتابه العقيدة الصحيحة ثم رد فيه على بعض شبهات الملاحدة خصوصاً الشيوعيين منهم وما مارسوه في حقبة سيطرتهم على الجمهوريات الإسلامية السوفياتية من قتل وتعذيب وتشريد.

– **والدكتور صابر عبد الرحمن طعيمة** في كتابه "الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين"، تناول فيه ماهية الإلحاد ومضمونه ونشأته وأسبابه، وتكلم في كتابه عن الإلحاد العلمي وهو القائم قوانين الجدل الفلسفية، والمتعلق بقدم العالم وحدوثه، ونظريات أسبقية المادة على الفكر.

– **والشيخ مقبل الوادعي في كتابه** "السيوف الباترة لإلحاد الشيوعية الكافرة"، وقد رد فيه على الشيوعيين الذين كانوا في جنوب اليمن، وعرض بعض شبههم إجمالاً ثم رد عليها بالأدلة النقلية، وأتبعها ببيان ما هم عليه من محاربة دين الله، والمتمسكين به، وفساد ماهم عليه في مجال الأخلاق.

وهناك من أهل العلم من رد على الملحدين ضمن كتبهم المؤلفة في التأريخ أو الفرق، وغيرها، ومن أبرزهم:

- **الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله** في كتابه مجموع فتاوى ابن باز تحت عنوان "أهمية العلم في محاربة الأفكار الهدامة": (فإذا تقدم دعاة الشيوعية والاشتراكية المنكرون لوجود الله والقائلون: (لا إله والحياة مادة) المكذبون بالحق والمنكرون لكتاب الله وما ورد فيه من الأدلة النقلية والعقلية على وجود الباري وقدرته العظيمة وعلمه الشامل فارجعوا إلى كتاب الله واقرؤا من آياته ما يرشد إلى دلائل وجوده سبحانه، وأنه الصانع الحكيم لهذه الأشياء والموجد لها والخالق لها سبحانه.

وقد أرشد سبحانه في كتابه الكريم إلى ذلك، وبين أنه رب العالمين وأنه الخلاق العليم وأنه خالق كل شيء وأنه ينصر الحق، ويقيم الأدلة على ذلك في مواضع كثيرة من كتابه، ليعتمد عليها طالب الحق، يقول سبحانه: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1] ثم يقول سبحانه بعدها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ

(١) سورة البقرة: ١٦٣.

ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[(١)] ويقول تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾[(٢)] ويقول: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨ ﴾[(٣)] ويقول سبحانه: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[(٤)] ويقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾[(٥)])[(٦)].

– **وشيخنا الدكتور غالب بن علي عواجي** في كتابيه "المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها"، تكلم في مقدمة الكتاب عن أهمية دراسة المذاهب الفكرية، ثم بين خطورة هذه المذاهب، كذلك وضح مدى تغلل هذه المذاهب في المجتمعات الغربية منها

(١) سورة البقرة: ١٦٤.

(٢) سورة البقرة: ٢١ – ٢٢.

(٣) سورة طه: ٩٨.

(٤) سورة الإسراء: ٢٣.

(٥) سورة الفاتحة: ٥.

(٦)مجموع فتاوى ابن باز (٦٣/٤).

والإسلامية، وخصوصاً المذاهب الإلحادية كالشيوعية، والعلمانية(١)، والماسونية(٢)، والقومية العربية(٣) . . . الخ.

وكتابه: "فرق معاصرة تنتسب للإسلام وبيان موقف الإسلام منها" تكلم في الكتاب عن الفرق التي ضلت عن الإسلام الصحيح والأسباب التي أدت إلى ضلالها، مع التحذير من ضلالاتهم وانحرافاتهم، كالباطنية مثلاً حيث أخرجها من الإسلام لما في عقيدتها من الكفر والإلحاد.

- **وناصر القفاري، وناصر العقل** في كتابهما "الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة"(٤) ذكرا في الكتاب المذاهب المادية الملحدة: الشيوعية

---

(١) العلمانية: وترجمتها الصحيحة: اللادينية أو الدنيوية، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة بعيداً عن الدين. وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم، ومدلول العلمانية المتفق عليه يعني عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع. الموسوعة الميسرة (٢/٦٧٩).

(٢) الماسونية: منظمة يهودية سرية هدامة، إرهابية غامضة، محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خداعه (حرية . إخاء . مساواة . إنسانية). انظر: الأجوبة المفيدة لعبد الرحمن الدوسري ص (١٧٤)، الموسوعة الميسرة (١/٥١٠).

(٣) حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم، على أساس من رابطة الدم واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين. وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا. الموسوعة الميسرة (١/٤٤٤).

(٤) انظر: الكتاب ص (٨٩-١١٩).

والعلمانية، والوجودية[١]، وبينا مصادمة الشيوعية للدين والفطرة، وبينا خطرها على العالم الإسلامي، كما بينا خطر الوجودية القائلين بأن الإنسان أوجد نفسه، ويقولون بأن الوجود مقدم على الماهية وهذه من ركام الفلسفات القديمة، وهي نتيجة عدم الإيمان بالله واليوم الآخر والانقياد للنفس والشيطان.

- **والندوة العالمية للشباب الإسلامي** في الكتاب الذي أخرجته بعنوان "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة" ذُكر في هذه الموسوعة بعض المذاهب الإلحادية التي انتشرت في العصر الحاضر كالشيوعية والعلمانية والماسونية.

(١) الوجودية اتجاه فلسفي يغلو في قيمة الإنسان ويبالغ في التأكيد على تفرده وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى موجه. انظر: الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية د. آمال العمرو ص (٣٣٩)، الموسوعة الميسرة (٢/٨١٨)، فرق معاصرة د. غالب عواجي (٢/٨٥٧).

المبحث الثاني:

مقارنة بين منهج ابن القيم رحمه الله ومنهج من جاء بعده من أهل العلم

منهج ابن القيم رحمه الله في رده على الملاحدة هو الإجمال عند ذكره لشبهاتهم، وفي معرض الرد على تلك الشبهات فإنه يفصل فيها، وهذا هو منهج السلف الصالح، وفي معرض الاستدلال في رده على شبهات الملاحدة فإنه ينوع في الأدلة ولا يقتصر على نوع واحد من الأدلة، وعلى رأس ذلك الاستدلال بالكتاب والسنة، وهو ما يطلق عليه بالأدلة النقلية، وكذلك يستدل بالأدلة العقلية، وتارة أخرى يستدل بدليل الفطرة، وكذلك يستدل بدليل الحس والمشاهدة.

كما أن ابن القيم اتصف منهجه بالشمولية والاستقصاء وقوة الحجة والبرهان، والقدرة على الإقناع، كما أنه اتصف بأسلوب في العرض والنقد يأسر قلوب قارئيه، ويشدهم إليه، ويجذبهم نحوه، ولكأنه عالم نفساني، كما أنه تميز بذكر الظواهر الكونية محتجاً بها على الخالق سبحانه وتعالى، ووجوب عبادته، وعظم قدرته، وبديع صنعه وبليغ حكمته حيث يذكر السماوات وما فيها من أبراج ونجوم وكواكب وشمس وقمر، والأرض وما فيها من جبال وبحار ونبات ومخلوقات ذكراً دقيقا مفصلاً ولكأنه عالم فلك وجيولوجيا وإحياء.

وقد تقدمت أمثلة ذلك في الباب الثالث وهو: منهج ابن القيم رحمه الله وجهوده في الرد على الملاحدة.

وأما منهج من جاء بعده من أهل العلم فمنهم من سار على خطاه، حيث إنهم تتلمذوا على مصنفاته، فظهر منهجه جليا في كتاباتهم، إلا أنه تميز ابن القيم رحمه الله عنهم بقوة الحجة والبيان والتنويع في الأدلة وكثرة الشمولية وقدرته على إقناع القارئ خصوصا إذا قام بضرب الأمثلة وحث على التأمل والتفكر والاعتبار.

والقلة من أهل العلم ممن رد على الملاحدة قد سلكوا منهجاً مغايراً لمنهج ابن القيم رحمه الله، وذلك لأنهم يفصلون في ذكرهم لشبه الملاحدة، وفي معرض الرد عليهم فإنهم يجملون شيئاً ما، وأما ما يتعلق في استدلالهم في ردهم على الملاحدة فمنهم من سلك مسلك المتكلمين والفلاسفة فلربما كانت الردود أضعف من قوة الشُّبه مما أدى إلى استطالة الملاحدة عليهم.

ومنهم من يقتصر في استدلالاته في رده على الملاحدة على الأدلة العقلية فقط ويهمل الأدلة النقلية، أو أنه يقتصر على الأدلة المادية الحسية ويهمل ما عداها من الأدلة.

ويمكن بيان ما سبق تفصيلاً في الآتي:

يتبين للقارئ عند المقارنة بين منهج ابن القيم في الرد على الملاحدة وبين من جاء بعده من أهل العلم أن منهجه قد تميز بأمور عدة منها:

١- أنه رحمه الله يذكر شبهات الملاحدة إجمالا ويرد عليه تفصيلا كما هي طريقة السلف الصالح رحمهم الله، ولذلك أعظم الأثر في إبطال الشبه، وبيان الحق للناس، فنجد أن ابن القيم رحمه الله يفصل تفصيلا مقنعا في رد الشبه، ويستقصي أوجه الرد عليهم.

٢- أن ابن القيم رحمه الله في رده على شبه الملاحدة ينوع في الاستدلال فيذكر الأدلة الشرعية والعقلية، ولا يقتصر رحمه الله على نوع واحد من الأدلة، مما يقوي رده ويدحض شبهة المخالف من كل وجه.

ويستدل رحمه الله بالحس والفطرة على إبطال شبهاتهم.

٣- تميز ابن القيم بسهولة الأسلوب مع قوة الحجة، والقدرة على الإقناع

٤- تميز منهج ابن القيم باستخدامه الأمثلة والحث على التأمل والتفكر والاعتبار.

وأما من جاء بعد ابن القيم رحمه الله فهم ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: من تأثر بمنهج ابن القيم – رحمه الله – في الرد على الملاحدة، وهؤلاء سيأتي الحديث عنهم بالتفصيل وبيان أبرز العلماء الذين تأثروا به –رحمه الله –، وهؤلاء وإن كانوا قد استفادوا من ابن القيم – رحمه

الله - إلا أنهم أقل منه في البيان وجمع الحجج، مع عدم الاستقصاء في الرد على الملاحدة.

القسم الثاني: هم الذي خالفوا طريقة ابن القيم - رحمه الله - في الرد على الملاحدة، وهم الذين ساروا على طريقة أهل الكلام في الرد على الفلاسفة، ويتجلي الفرق بين طريقتهم وطريقة ابن القيم - رحمه الله - في النقاط الآتية:

١- بُعدهم عن الاستدلال بالأدلة الشرعية واعتمادهم على الأدلة العقلية التي يزعمونها، ولاشك أن هذا يدل على فساد طريقتهم وسوء مذهبهم، فلم يرد على الإلحاد بمثل أدلة الشرع، وقد جمعت أدلة الشرع بين أنواع الأدلة، ففيها دلالة الشرع وفيها دلالة العقل والفطرة والحس.

وكلام الله هو أعظم الكلام ولم يرد على الملاحدة بمثل كلامه تبارك وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1] ولتصدي المتكلمين للرد على الملاحدة بهذا الأسلوب الأثر السيئ على المتكلمين أنفسهم مما أدى بهم إلى الانحراف في العقيدة، وارتكاب أعظم

(١) سورة النساء: ٨٢.

المحرمات من الإلحاد في أسماء الله وصفاته ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(١)].

فوافقوا هؤلاء الملاحدة في كثير من باطلهم عندما أرادوا الرد عليهم لإعراضهم عن الطريقة السلفية المعتمدة على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، كما وقع للجهم بن صفوان[(٢)] في مناظرته للفلاسفة في إثبات وجود الله، مما أدى به إلى إنكار الأسماء والصفات وجحدها، وكذا من سار على طريقته من المعتزلة والأشاعرة[(٣)] والماتريدية[(٤)].

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٢) هو: جهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولاهم، السمرقندي، الكاتب المتكلم، أس الضلالة، ورأس الجهمية، كان صاحب ذكاء وجدال، وكان ينكر الصفات، ويقول بخلق القرآن، قيل: إن سلم بن أحوز قتل الجهم، لإنكاره أن الله كلم موسى، كان حتفه سنة١٢٨ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٦/٢٦)، الأعلام للزركلي (٢/١٤١).

(٣) الأشاعرة: فرقة كلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة. وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاجة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية على طريقة ابن كلاب. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/٩٤)، الموسوعة الميسرة (١/٨٣).

(٤) الماتريدية: فرقة كلامية (بدعية) ، تُنسب إلى أبي منصور الماتريدي، قامت على استخدام البراهين والدلائل العقلية والكلامية في محاجة خصومها، من المعتزلة والجهمية، وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية. انظر: العرش للذهبي (١/٦٨)، فرق معاصرة د. غالب عواجي (٣/١٢٢٧)، الموسوعة الميسرة (١/٩٥).

ولإعراضهم عن النصوص الشرعية في أسماء الله وصفاته وجعلهم أنها ليست على حقيقتها وأنها ظنية؛ ألزمهم الفلاسفة المنكرين لوجود الله أن تكون جميع أدلة الشرع كذلك بما فيه إثبات الخالق والمعاد، لأنها من نوع واحد.

٢- عدم استدلالهم بدليل الفطرة، وبحثهم عن أدلة يزعمونها في إثبات وجود الخالق.

ويرد عليهم بقول شيخ الإسلام - رحمه الله -: (أما إثبات الصانع فطرقه لا تحصى بل الذي عليه جمهور العلماء أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مغروز في الجبلة) [(١)]. ثم بعد أن قرر ذلك قال: (وأما بالعقل فيعلم أن العالم لو كان قديماً لكان إما واجباً بنفسه، وهذا باطل كما تقدم التنبيه عليه من أن كل جزء من أجزاء العالم مفتقر إلى غيره، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجباً بنفسه، وإنما واجباً بغيره فيكون المقتضى له موجباً بذاته)[(٢)].

(١) منهاج السنة" (٢ | ٢٧٠).
(٢) منهاج السنة" (٢ | ٢٧٣).

وقال شيخ الإسلام أيضاً: (. . . كما قال الشيخ إسماعيل الكوراني(١) لعز الدين بن عبد السلام(٢) لما جاء إليه يطلب علم المعرفة وقد سلك الطريقة الكلامية فقال أنتم تقولون إن الله يعرف بالدليل ونحن نقول عرفنا نفسه فعرفناه، وكما قال نجم الدين الكبرى(٣) لابن الخطيب(٤) ورفيقه المعتزلي وقد سألاه عن علم اليقين فقال: هو واردات ترد على النفوس تعجز عن ردها. فأجابهما بأن علم اليقين عندنا هو موجود بالضرورة لا بالنظر وهو جواب حسن)(٥).

(١) هو: إسماعيل بن محمد بن أبي بكر بن خسرو، الشيخ الصالح الزاهد العابد أبو محمد الكوراني المشهور، كان كثير العبادة والتلاوة، وكان يتحرى في دينه، ويسأل العلماء كثيراً عما يشكل عليه، وكان متشدداً في دينه. توفي سنة ٦٦٥هـ، انظر: المنهل الصافي لابن تغري بردي (٤/٤٢٧).

(٢) هو: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي، أحد الأئمة الأعلام سلطان العلماء إمام عصره بلا مدافعة القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها العارف بمقاصده، من مؤلفاته: "القواعد الكبرى"، "الإمام في أدلة الأحكام"، "بيان أحوال الناس يوم القيامة"، توفي سنة ستين وستمائة انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٨/٢٠٩)

(٣) هو: أبو الجناب أحمد بن عمر ابن محمد الخوارزمي الخيوقي الصوفي، كان صاحب حديث وسنة، عظيم الجاه، لا يخاف في الله لومة لائم، خرج مجاهدا لملاقاة التتار بخوارزم فقتل بها سنة ثماني عشرة وست مائة. . انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/١١١).

(٤) هو فخر الدين الرازي، تقدمت ترجمته.

(٥) مجموع الفتاوى (٢ | ٧٦).

و قال – رحمه الله –: (فإن قيل إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتاً في كل فطرة؛ فكيف ينكر ذلك كثير من النظار –نظار المسلمين وغيرهم – وهم يدعون أنهم يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية!

فيقال أولاً: أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة –أي الفطرة– هم أهل الكلام الذي اتفق السلف على ذمهم من الجهمية والقدرية، وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم)[1].

و قال شيخ الإسلام – رحمه الله –: (والمقصود أن هذه الطرق العقلية الفطرية هي التي جاء بها القرآن واتفق العقل والشرع وتلازم الرأي والسمع والمتفلسفة كابن سينا والرازى ومن اتبعهما قالوا إن طريق إثباته الاستدلال عليه بالممكنات وإن الممكن لابد له من واجب قالوا والوجود إما واجب وإما ممكن؛ والممكن لابد له من واجب فيلزم ثبوت الواجب على التقديرين، وهذه المقالة أحدثها ابن سينا وركبها من كلام المتكلمين وكلام سلفه؛ فإن المتكلمين قسموا الوجود إلى قديم ومحدث وقسمه هو إلى واجب وممكن. وذلك أن الفلك عنده ليس محدثا بل زعم أنه ممكن وهذا التقسيم لم يسبقه إليه أحد من الفلاسفة بل حذاقهم عرفوا أنه خطأ وأنه خالف سلفه وجمهور

---

(١) مجموع الفتاوى" (١٦/٣٤٠).

العقلاء وغيرهم. وقد بينا في مواضع أن القدم ووجوب الوجود متلازمان عند عامة العقلاء الأولين والآخرين ولم يعرف عن طائفة منهم نزاع في ذلك إلا ما أحدثه هؤلاء؛ فإنا نشهد حدوث موجودات كثيرة حدثت بعد أن لم تكن ونشهد عدمها بعد أن كانت وما كان معدوما أو سيكون معدوما لا يكون واجب الوجود ولا قديما أزليا)[١].

وقال شيخ الإسلام: (ولما كانت طرق معرفة الله والإقرار به كثيرة متنوعة صار كل طائفة من النظار تسلك طريقا إلى إثبات معرفته ويظن من يظن أنه لا طريق إلا تلك وهذا غلط محض وهو قول بلا علم.

فإنه من أين للإنسان أنه لا يمكن المعرفة إلا بهذا الطريق؟ فإن هذا نفي عام لا يعلم بالضرورة فلا بد من دليل يدل عليه، وليس مع النافي دليل يدل على هذا النفي بل الموجود يدل على أن للمعرفة طرقا أخرى، وأن غالب العارفين بالله من الأنبياء وغير الأنبياء بل من عموم الخلق عرفوه بدون تلك الطريق المعينة.

وقد نبهنا في هذا الكتاب على ما نبهنا عليه من طرق أهل النظر وتنوعها، على ما يأتي، وأن الطرق تتنوع تارة بتنوع أصل الدليل، وتارة بزيادة

---

(١) مجموع الفتاوى (١ | ٤٩).

مقدمات فيه يستغني عنها آخرون، فهذا يستدل بالإمكان وهذا بالحدوث وهذا بالآيات وهذا يستدل بحدوث الذوات وهذا بحدوث الصفات وهذا بحدوث المعين كالإنسان وهذا بحدوثه وحدوث غيره، وآخرون غلطوا فظنوا أنه لا بد من العلم بحدوث كل موصوف تقوم به الصفات، وقد يعبرون عنه بلفظ الجسم والجوهر، والمحدود والمركب وغير ذلك من العبارات، وآخرون يستدلون بحدوث ما قام به الحوادث، ويقولون: كل ما قامت به الصفات محدثا. والفلاسفة لم يسلكوا هذه الطريق لاعتقادهم أن من الأجسام ما هو قديم تحله الحوادث والصفات، فكونه جسما ومتميزا وقديما وتحله الصفات والحوادث ليس هو عندهم مستلزما لكونه محدثا، بل وليس ذلك مستلزما عند أرسطو كونه ممكنا يقبل الوجود والعدم، وكذلك لم يسلكها كثير من أهل الكلام كالهشامية(١) والكرامية(٢) وغيرهم بل ولا سلكها سلف الأمة وأئمتها كما قد بسط في موضعه.

---

(١) الهشامية: أصحاب الهشامين هشام بن الحكم صاحب المقالة في التشبيه وهشام بن سالم الجواليقي الذي نسج على منواله في التشبيه. وكان هشام بن الحكم من متكلمي الشيعة وجرت بينه وبين أبي الهذيل مناظرات في علم الكلام منها في التشبيه ومنها في تعلق علم الباري تعالى. الملل والنحل (١/١٧٢).

(٢) الكرامية: فرقة من المرجئة، أتباع محمد بن كرام السجستاني، ، ذهب هو وفرقته إلى أن الإيمان هو قول باللسان فقط، دون التصديق بالقلب. انظر: مذاهب الإسلاميين (١/٢٢٣)

ولم يسلكها متأخرو أهل الكلام الذين ركبوا طريقا من قول الفلاسفة وقول أسلافهم المتكلمين، كالرازي والآمدي والطوسي ونحوهم، بل سلكوا طريقة ابن سينا التي ذكرها في إثبات واجب الوجود طريقة ابن سينا.

وطريقة ابن سينا لم يسلكها سلفه الفلاسفة كأرسطو وأصحابه، بل ولا سلكها جماهير الفلاسفة، بل كثير من الفلاسفة ينازعونه في نفيه لقيام الحوادث والصفات بذات واجب الوجود، ويقولون: إنه تقوم به الصفات والإرادات، وأن كونه واجبا بنفسه لا ينافي ذلك كما لا ينافي عندهم جميعا كونه قديما.

ولكن ابن سينا وأتباعه لما شاركوا الجهمية في نفي الصفات، وشاركوا سلفهم الدهرية في القول بقدم العالم، سلكوا في إثبات رب العالمين طريقا غير طريقة سلفه المشاءين، كأرسطو وأتباعه الذين أثبتوا العلة الأولى بحركة الفلك الإرادية، وأن لها محركا يحركها كحركة المعشوق لعاشقه، وهو يحرك الفلك للتشبه بالعلة الأولى، فعدل ابن سينا عن تلك الطريقة إلى هذه الطريقة التي سلخها من طريقة أهل الكلام، الذين يحتجون بالْمُحْدَثِ على الْمُحْدِثِ، وهو لا يقول بحدوث العالم، فجعل طريقته الاستدلال بالممكن على الواجب، ورأى أولئك المتكلمين قسموا الوجود إلى قديم ومحدث فقسمه هو

إلى واجب وممكن، وأثبت الواجب بهذا الطريق، ولكن هذا بناء على أن القديم ممكن وله ماهية تقبل الوجود والعدم.

وهذا مما خالفه فيه جمهور العقلاء من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم، حتى أنه هو تناقض في ذلك فوافق سلفه وجميع العقلاء وصرح بأن الممكن لا يكون إلا ما يقبل الوجود والعدم، ثم تناقض هنا كما قد بسط في غير هذا الموضع)[(١)].

وقال شيخ الإسلام أيضاً: (ونفس ما اشتركوا فيه من إثبات الصانع بطريقة الأعراض وأنها لازمة للجسم أو متعاقبة عليه، فلا يخلو منها وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها، وأن الله يمتنع أن يقال: أنه لم يزل متكلما بمشيئته وقدرته، أو يمتنع أن يقال: أنه لم يزل فعالا، وأنه صار فاعلا أو فاعلا ومتكلما بمشيئته مبتدع في الإسلام، أول ما عرف أنه قاله الجهم بن صفوان - مقدم الجهمية - وأبو الهذيل العلاف مقدم المعتزلة)[(٢)].

(١) درء التعارض (٢ | ١٢٣).
(٢) النبوات (١ | ٥٨٦).

وقال ابن حجر – رحمه الله –: (وقد وافق أبو جعفر السمناني[١] وهو من رؤوس الأشاعرة على هذا، وقال: إن المسألة بقيت في مقالة الأشعري من مسائل المعتزلة، وتفرع عليها أن الواجب على كل أحد معرفة الله بالأدلة الدالة عليه، وأنه لا يكفي التقليد في ذلك.

ونقل عن القرطبي[٢] صاحب المفهم: ولو لم يكن في الكلام إلا مسألتان هما من مبادئه لكان حقيقاً بالذم:

أحدهما: قول بعضهم إن أول واجب الشك إذ هو اللازم عن وجوب النظر أو القصد إلى النظر. . .

ثانيتها: قول جماعة منهم إن من لم يعرف الله بالطرق التي رتبوها والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه)[٣].

---

(١) هو: أبو جعفر، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد، السمناني، أكبر أصحاب أبي بكر الباقلاني، ومقدم الأشعرية في وقته، توفي سنة سنة أربع وأربعين وأربع مائة. سير أعلام النبلاء (٦٥١/١٧).

(٢) هو: أحمد بن عمر بن إبراهيم، أبو العباس الأنصاري القرطبي: فقيه مالكي، من رجال الحديث، من مؤلفاته: "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"، "اختصار صحيح البخاري"، "مختصر الصحيحين" توفي سنة ٦٥٦ هـ. الأعلام للزركلي (١٨٦/١).

(٣) الفتح" (٣٦٣/١٣).

قال شيخ الإسلام: (والمقصود هنا إنما كان التنبيه على طرق الطوائف في إثبات الصانع، وأن ما يذكره أهل البدع من المتكلمة والمتفلسفة؛ فإما أن يكون طويلا لا يحتاج إليه أو ناقصا لا يحصل المقصود، وأن الطرق التي جاءت بها الرسل هي أكمل الطرق وأقربها وأنفعها وأن ما في الفطرة المكملة بالشرعة المنزلة يغني عن هذه الأمور المحدثة، وأن سالكيها يفوتهم من كمال المعرفة بصفات الله تعالى وأفعاله ما ينقصون به عن أهل الإيمان نقصا عظيما إذا عذروا بالجهل، وإلا كانوا من المستحقين للعذاب إذا خالفوا النص الذي قامت عليهم به الحجة، فهم بين محروم ومأثوم.

وهذه الطرق التي أخدها ابن سينا عن المتكلمين من المعتزلة ونحوهم وخلطها بالكلام سلفه الفلاسفة صار بسبب ما فيها من البدع المخالفة للكتاب والسنة يستطيل بها على المسلمين، ويجعل القول الذي قاله هؤلاء هو قول المسلمين، وليس الأمر كذلك، وإنما هو قول مبتدعتهم، وهكذا عمل إخوانه القرامطة الباطنية: صاروا يلزمون كل طائفة من طوائف المسلمين بالقدر الذي وافقهم عليه مما هو مخالف للنصوص ويلزمونهم بطرد ذلك القول حتى يخرجوهم عن الإسلام بالكلية.

ولهذا كان لهؤلاء وأمثالهم نصيب من حال المرتدين الذين قال الله تعال فيهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى

ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾[١] ولهذا آل الأمر بكثير من هؤلاء إلى عبادة الأوثان والشرك بالرحمن، مثل دعوة الكواكب والسجود لها، أو التصنيف في ذلك كما صنفه الرازي وغيره في ذلك)[٢].

٣- أن ما جعله أهل الكلام دليلا على إثبات وجود الله أدى بهم إلى الحيرة والضلال، وقد ندم كثير منهم عند موته لسلوكه طرق المتكلمين لما أدى به ذلك من الشك والحيرة.

فأبو حامد الغزالي – رحمه الله – من المتمكِّنين في علم الكلام، ومع ذلك فقد جاء عنه ذمُّه، بل والمبالغة في ذمِّه، ولا يُنبئك مثلُ خبير، جاء ذلك عنه في كتابه إحياء علوم الدِّين، حيث بيَّن ضررَه وخطرَه، فقال: (أمَّا مضرَّته، فإثارةُ الشبهات وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم، فذلك مِمَّا يحصل في الابتداء، ورجوعُها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضررُه في الاعتقاد الحقِّ، وله ضررٌ آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة، وتثبيته في صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم، ويشتدُّ حرصُهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصُّب الذي يثور من الجدل. . . وأمَّا

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) درء التعارض(٤ | ٢١٥).

منفعتُه، فقد يُظنُّ أنَّ فائدَتَه كشفُ الحقائق ومعرفتُها على ما هي عليه، وهيهات؛ فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعلَّ التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدِّث أو حشوي ربَّما خطر ببالك أنَّ الناسَ أعداءُ ما جهلوا، فاسمع هذا مِمَّن خَبَرَ الكلامَ ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلِّمين، وجاوز ذلك إلى التعمُّق في علوم أخر تناسبُ نوع الكلام، وتحقق أنَّ الطريقَ إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفكُّ الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور في أمور جليَّة تكاد تفهم قبل التعمُّق في صنعة الكلام)(١).

وقال أيضاً شارح الطحاوية: (قال ابن رُشد الحفيد – وهو من أعلم الناس بمذهب الفلاسفة ومقالاتهم – في كتابه تهافت التهافت: ومَن الذي قال في الإلَهيات شيئاً يعتدُّ به؟ ، وكذلك الآمدي – أفضل أهل زمانه – واقفٌ في المسائل الكبار حائر.

وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنَّفه في أقسام اللذات:

---

(١) (١/٩١-٩٢).

نِهايةُ إقدام العقول عِقالُ وغايةُ سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصلُ دنيانا أذَى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولةٍ فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد عَلَت شُرُفاتِها رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالُ

لقد تأمَّلتُ تلك الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتُها تشفي عليلاً، ولا تُروي غليلاً، ورأيتُ أقربَ الطرق طريق القرآن، اقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[(١)]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[(٢)]، واقرأ في النفي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[(٣)]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾[(٤)]، ثم قال: "ومَن جرَّب مثلَ تجربَتِي، عرف مثل معرفتِي".

وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، إنَّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلاَّ الحيرة والندم، حيث قال:

لعمري لقد طُفت المعاهد كلها وسَيَّرتُ طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلاَّ واضعاً كفَّ حائر على ذقن أو قارعاً سنَّ نادم

---

(١) سورة طه: ٥.
(٢) سورة فاطر: ١٠.
(٣) سورة الشورى: ١١.
(٤) سورة طه: ١١٠.

وكذلك قال أبو المعالي الجويني – رحمه الله –: "يا أصحابنا! لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أنَّ الكلامَ يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلتُ به"، وقال عند موته: "لقد خضتُ البحرَ الخِضَمَّ، وخلَّيتُ أهل الإسلام وعلومَهم، ودخلتُ في الذي نَهونِي عنه، والآن فإن لم يتداركنِي ربِّي برحمته، فالويل لابن الجوينِي، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمِّي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور"، وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي[١] – وكان من أجلِّ تلامذة فخر الدِّين الرازي – لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوماً فقال: (ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنتَ مُنشرح الصَّدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال، فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النِّعمة، لكنِّي – والله! – ما أدري ما أعتقد، – والله! – ما أدري ما أعتقد! – والله! – ما أدري ما أعتقد!) وبكى حتى أخضَل لحيته.

ولابن أبي الحديد الفاضل المشهور بالعراق:

فيكَ يا أُغلوطة الفِكَر   حارَ أمري وانقضى عمري
سافرتْ فيك العقولُ فما   ربحت إلاَّ أذى السفر
فلحى الله الأُلَى زعموا   أنَّك المعروف بالنَّظر

(١) هو: عبد الحميد بن عيسى بن عمّويه بن يونس بن خليل بن عبد الله بن يونس، أبو محمد، شمس الدين: من علماء الكلام، من مؤلفاته: "اختصار المهذب"، "اختصار الشفا"، "تلخيص الآيات البينات" توفي سنة ٦٥٢ هـ. الأعلام للزركلي (٣/٢٨٨).

كذبوا إنَّ الذي ذكروا خارجٌ عن قوة البشر

وقال الخونجي[١] عند موته: "ما عرفتُ مِمَّا حصَّلته شيئاً سوى أنَّ الممكن يفتقر إلى المرجِّح، ثم قال: الافتقار وصفٌ سلبِيٌّ، أموت وما عرفتُ شيئاً".

وقال آخر: "أضطجع على فراشي، وأضع الملحفةَ على وجهي، وأقابل بين حُجَج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجَّح عندي منها شيء- إلى أن قال شارح الطحاوية – وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيُقرُّ بما أقرُّوا به، ويُعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك، التي كان يقطع بها ثمَّ تبيَّن له فسادُها، أو لم يتبيَّن له صحتُها، فيكونون في نهاياتهم – إذا سلموا من العذاب – بِمنْزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب)[٢].

---

(١) هو: أفضل الدين، أبو عبد الله محمد بن ناماور بن عبد الملك الخونجي، الشافعي، القاضي، المتكلم الباهر، ولد: سنة تسعين وخمس مائة، وتوفي سنة ست وأربعين وست مائة. سير أعلام النبلاء (٢٣/٢٢٨).

(٢) شرح الطحاوية (ص: ٢٤٣).

وكان أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين في حيرة واضطراب في صفات الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ صار إلى مذهب السَّلف، وألَّف رسالة نُصح لبعض مشايخه من الأشاعرة[١].

رد أهل الكلام خبر الآحاد فيما يتعلق بالاعتقاد، لاعتقادهم أن خبر الآحاد يفيد الظن والعقيدة لا تثبت إلا بيقين بزعمهم، وهو ظاهر المخالفة للنصوص الشرعية ولما كان عليه السلف من عدم التفريق بين الأدلة، وأن خبر الآحاد يفيد العلم[٢].

٤- ذكر كثير منهم للشبهات بقوة، مع ضعف الردود عليها.

٥- عدم الاستقصاء في الرد على شبه الملاحدة.

٦- عدم التنويع بين الأدلة، والاقتصار على الأدلة العقلية الفلسفية فقط.

٧- ما وقع به المتكلمون من فساد الفطرة، وفساد العقيدة، أدى إلى فساد ردهم على الملاحدة وضعفه، ومن ذلك إيجابهم على العامة النظر وغيرها من الأدلة.

---

(١) وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١/١٧٤–١٨٧).

(٢) انظر: مختصر الصواعق لابن الموصلي (١/٥٧٦) وما بعدها.

وقد رد شيخ الإسلام على استدلالهم بإيجابهم على العامة النظر وغيرها من الأدلة حيث قال: (والمقصود هنا أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف، وأنه من لم ينظر في هذا الدليل فإما أنه لا يصح إيمانه فيكون كافرا على قول طائفة منهم، وإما أن يكون عاصيا على قول آخرين، وأما إن يكون مقلدا لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمنا غير عاص، والأقوال الثلاثة باطلة؛ لأنها مفرعة على أصل باطل، وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والإيمان هو هذا النظر في هذا الدليل)[١].

٨- القول بأن أدلة الشرع تفيد الظن، وأدلة العقل تفيد اليقين مما أدى بهم تقديس العقل والتهوين من أدلة الشرع.

٩- استدلالهم على وجود الله بدليل الأعراض وحدوث الأجسام.

وقال أبو الحسين البصري[٢] في غرر الأدلة كما نقل عنه شيخ الإسلام: قال: وليس أحد يثق بصحة ما جاءت به الرسل إلا بعد المعرفة بصدقهم، ولا

---

(١) النبوات (١ | ٢٥٥).

(٢) هو: أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف الكلامية، من مؤلفاته: "المعتمد في أصول الفقه" "تصفح الأدلة" توفي ٤٣٦ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٥٨٧/١٧)

تحصل المعرفة بصدقهم إلا بالمعجزات التي تميزهم عن غيرهم، وليس تدل المعجزات على صدقهم إلا إذا صدرت ممن لا يفعل القبيح؛ لكي يؤمن أن نصدق الكذابين، وليس يؤمن أنه لا يفعل القبيح إلا إذا عرف أنه عالم بقبحه، عالم باستغنائه عنه، ولا يعرف غناءه إلا بعد أن يعلم أنه غير جسم، ولا يعرف أنه غير جسم إلا إذا عرف أنه قديم، ولا يعلم أنه عالم بكل قبيح إلا إذا علم أنه عالم بكل شيء، ولا يعلمه كذلك إلا إذا علم أنه عالم لذاته، ولا يعلمه كذلك إلا إذا علم أنه عالم، ولا يعلم أنه يثيب ويعاقب إلا إذا علم أنه قادر حي، ولا يعرف موصوفا بهذه الصفات إلا إذا عرفت ذاته، وإنما تعرف ذاته إذا استدل عليها بأفعاله لأنها غير مشاهدة، ولا معروفة باضطرار، ولا طريق إليها إلا أفعاله، فيجب أن نتكلم في هذه الأشياء لنعلم صحة ما جاءت به الرسل، ونمتثله، فنكون آمنين في المعاد. . . . وقال الغزالي: من لم يعتقد حدوث الأجسام لا يصل لاعتقاد في الصانع أصلا)[1].

ورد عليهم شيخ الإسلام - رحمه الله - بقوله: (وأصل منشأ نزاع المسلمين في هذا الباب أن المتكلمين من الجهمية والمعتزلة، ومن اتبعهم

---

(١) درء التعارض(٥ | ٣٢).

سلكوا في إثبات حدوث العالم، وإثبات الصانع طريقاً مبتدعة في الشرع مضطربة في العقل، وأوجبوها، وزعموا أنه لا يمكن معرفة الصانع إلا بها.

وتلك الطريق فيها مقدمات مجملة لها نتائج مجملة فغلط كثير من سالكيها في مقصود الشارع، ومقتضى العقل فلم يفهموا ما جاءت به النصوص النبوية، ولم يحرروا ما اقتضته الدلائل العقلية؛ وذلك أنهم قالوا لا يمكن معرفة الصانع إلا بإثبات حدوث العالم، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلا بإثبات حدوث الأجسام)(١).

إذاً فطريقة المتكلمين في إثبات الخالق هي الاستدلال على حدوث العالم بحدوث الأجسام، ولا يُستدل على حدوث الأجسام إلا بحدوث الأعراض، فهم لا يستدلون بحدوث ذات الأشياء وأعيانها من السحاب والمطر والحيوان والنبات، إنما يستدلون بحدوث الأعراض لأن الأجسام عندهم مكونة من الجواهر الفردة(٢) والله إنما يحدث تأليفها وتركيبها، فإذا

(١) مجموع الفتاوى" (٢١٣/١٢).

(٢) الجواهر الفردة: هي النظرية التي يفسرون بها الخلق، وتتلخص في أن الأجسام مركبة من الجواهر الصغار التي قد بلغت من الصغر إلى حد لا يتميز منها جانب عن جانب وتلك الجواهر باقية تتقلب عليها الأعراض أو الصفات الحادثة.

وبناء عليه يرى هؤلاء المتكلمون أن الله تعالى أحدث أعراضًا كجمع الجواهر وتفريقها فالمادة التي هي الجواهر المنفردة باقية بأعيانها، ولكن أحدث صورًا هي أعراض قائمة بهذه الجواهر.

=

أثبتوا أن الأعراض القائمة بالأجسام حادثة قالوا بأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، أو ما لا يسبق الحادث إما أن يكون مقارنًا له أو متأخرًا عنه، وما قارن الحادث أو تأخر عنه فهو حادث مثله(١).

ملخص ما خالف به المتكلمون طريقة السلف في إثبات توحيد الربوبية:

١. جعل المتكلمون هدفهم الأول هو إثبات توحيد الربوبية معتمدين في ذلك على دليل التمانع(٢).

٢. تقديمهم العقل على الشرع وجنوحهم إلى التأويل وإيجابهم النظر.

ويترتب على هذه النظرية أشد النتائج انحرافًا، لأنه لا يختلف عن مذاهب الفلاسفة القائلين بقدم العالم، فانهارت بذلك الحجج العقلية للمتكلمين الذين ظنوا أنهم بأدلتهم يدافعون عن الإسلام، وأصبحوا كمن أراد أن يغزو العدو بغير طريق شرعي فلا فتح بلادهم ولا حفظ بلاده، بل سلطهم حتى صاروا يحاربونه بعد أن كانوا عاجزين عنه. انظر: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين (ص: ١٥٢-١٥٣).

(١) انظر: الفتاوى ١٢/١٤٠ - ١٥٠ وص٢١٢ وانظر درء التعارض (١/١٨٦-١٨٨).

(٢) دليل التمانع عرفه شارح الطحاوية (ص ٢٨) بقوله: (وهو: أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته: فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما. والأول ممتنع، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع، لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع، ويستلزم أيضا عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلها، واذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان هذا هو الإله القادر، والآخر عاجزا لا يصلح للإلهية).

٣. طريقتهم متعبة طويلة لاعتمادها على الجدل والاستدلالات المنطقية الجافة.

٤. بعد طريقتهم عن التوحيد الحقيقي الذي بعثت به الرسل.

٥. طريقتهم غير عملية ولا تدخل الناس في دين الله؛ لعدم مناسبتها لجميع الناس، ولاعتمادها على ألفاظ مستوردة من الأمم الأخرى.

٦. طريقتهم نهايتها الشك والحيرة وندم أصحابها لسلوكها، وقد ذمها السلف الصالح.

٧. أن في الأجسام أعراضًا كالحركة والسكون والاجتماع والافتراق يجوز عليها العدم والبطلان، والقديم لا يجوز عليه العدم والبطلان.

٨. أن الأعراض تشتمل على المختلف والمتماثل والمتضاد، والقديم لا يصح اشتماله على ذلك.

٩. أن الأعراض تتجدد على الأجسام، وهذا التجدد هو الحدوث، إذن فالأعراض حادثة.

١٠. أن الأعراض الحادثة لا تقوم إلا بالأجسام، فالأجسام حادثة مثلها، وعليه فالعالم كله حادث.

١١. أن العالم لا يحدث نفسه، ولا يصح الدور والتسلسل، فيثبت بذلك أنه لا بد من محدث قديم لهذا العالم وهو الله تعالى[١].

---

(١) انظر: نظرية التكليف د. عبد الكريم عثمان ص١٥٦-١٦١.

الباب الرابع:

أثر الإمام ابن القيم -رحمه الله - على من جاء بعده من أهل العلم في الرد على الملاحدة.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: العلاقة بين مظاهر الإلحاد في زمن ابن القيم -رحمه الله- ومظاهر الإلحاد في العصور التي بعده إلى العصر الحاضر.

الفصل الثاني: أثر الإمام ابن القيم -رحمه الله- على من جاء بعده من العلماء إلى عصرنا هذا في الرد على الملاحدة.

الفصل الأول:

العلاقة بين مظاهر الإلحاد في زمن ابن القيم – رحمه الله – ومظاهر الإلحاد في العصور التي بعده إلى العصر الحاضر.

أولاً: العلاقة بين مظاهر الإلحاد في زمن ابن القيم وطوائف الملاحدة في العصر الحاضر:

قبل بيان العلاقة بين مظاهر الإلحاد في زمن ابن القيم – رحمه الله – ومظاهر الإلحاد في العصر الحاضر سأبين الفروق بين مظاهره الإلحاد في زمن ابن القيم – رحمه الله – ومظاهره في العصر الحاضر

* فمن مظاهر الإلحاد في زمن ابن القيم – رحمه الله –ما يلي:

١. إلحاد الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

٢. ومن مظاهره كذلك إلحاد أهل الحلول والاتحاد[(١)] القائلين بحلول الرب في خلقه واتحاده معهم.

٣. ومن مظاهره إلحاد أهل وحدة الوجود[(٢)] الذين يجعلون الوجود كله واحداً.

---

(١) الحلول يراد به: حلول الله–عز وجل– في مخلوقاته أو في بعض مخلوقاته. والاتحاد: اتحاد الله بمخلوقاته أو ببعض مخلوقاته، والفرق بينهما: ١– أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد. ٢–أن الحلول يقبل الانفصال، أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال. انظر: مصطلحات في كتب العقائد للحمد (ص: ٤٠– ٤١).

(٢) أهل وحدة الوجود هم الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق وأنه ليس لهذا العالم رب مباين له منفصل عنه، وفي هذا تعطيل للصانع، وجحود له، وهذا الرأي جامع لكل شرك وهو أكفر أقوال أهل الأرض، و مذهب أهل الإلحاد. انظر: التحفة العراقية لشيخ =

٤. ومن مظاهره إلحاد المعطلة الذين أخلوا الرب عن صفاته.

٥. ومن مظاهره أيضاً إلحاد الطبائعيين الذين أنكروا الإله الحق وأسندوا إيجاد هذا العالم إلى الطبيعة.

٦. ومن مظاهره أيضاً إلحاد الدهريين الذين أسندوا التصرف إلى الدهر.

٧. ومن مظاهر الإلحاد في عصر ابن القيم أيضاً إلحاد الباطنية الذين نسبوا لعلي رضي الله عنه التصرف في الكون وألهوا الحاكم بأمر الله

وكما أن تلك المظاهر الإلحادية كانت موجودة في عهد ابن القيم وقبله فقد استمرت تلك المظاهر بعد ابن القيم إلى العصر الحاضر.

❊ أما مظاهر الإلحاد في العصر الحاضر فتختلف عن سابقتها، وإن كانت امتداداً لها بل زادوا عليها مظاهر أقوى وأكثر، ويتمثل هذا فيما يلي:

١. إلحاد الشيوعية المنكرين لله تعالى؛ حيث لا يعترفون بخالق ولا دين.

الإسلام ص (٦٤)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٤/٣٥)، الصواعق المرسلة لابن القيم (٢٩٤/١)، الرد على القائلين بوحدة الوجود لملا علي القاري ص (١٣)، الإعلام بقواطع الإسلام ص: (٢٠٤ – ٢٠٥).

٢. ومن مظاهر الإلحاد في الزمن الحاضر إلحاد الوجودية المادية، القائمة على فلسفة أن يجد الإنسان نفسه.

٣. ومن مظاهره أيضاً إلحاد العلمانية اللادينية القائلين بفصل الدين عن الدولة والحياة، ويحاربون الأديان كلها.

٤. ومن مظاهره أيضاً إلحاد الإنسانية[١]، القائلين بأن الكون موجود بذاته وليس مخلوقًا[٢].

٥. ومن مظاهر الإلحاد في العصر الحاضر إلحاد القومية العربية، فهم ملحدون مجاهرون بالكفر[٣].

٦. ومن مظاهر الإلحاد في العصر الحاضر إلحاد الماسونية، حيث يقولون لا إله إلا الإنسان ولا سيد ولا خالق ولا معبود إلا الإنسان إذ هو سيد الوجود المتصرف بنواميسه[٤].

---

(١) النزعة الإنسانية هي: هي اتجاه فكري عام تشترك فيه العديد من المذاهب الفلسفية والأدبية والأخلاقية والعلمية. الموسوعة الميسرة (٨٠٢/٢)

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة (٨٣٢/٢).

(٣) انظر: كتاب نقد القومية العربية للشيخ ابن باز (ص٤٤).

(٤)المذاهب الفكرية المعاصرة (٥٦٦/١).

٧. ومن مظاهر الإلحاد في العصر الحاضر إلحاد الداروينية التي تقرر نظرية التطور والارتقاء.

٨. ومن مظاهر الإلحاد في العصر الحاضر إلحاد مدرسة عبدة الشيطان[١].

٩. كما يقسم البعض الإلحاد حسب الدافع إليه إلى: ثلاثة أقسام:

أ-الإلحاد العاطفي: وهو الذي دافعه استشكال للقدر.

ب- الإلحاد المادي نفعي: وهو الذي دافعه الرغبة الجامحة في اللذات والشهوات بدون قيود.

ت- الإلحاد العقلي العلمي الفلسفي: وهو الذي دافعه ما يُزعم من نظرات فلسفية، وعلمية[٢].

ثانيا: العلاقة في أسباب الإلحاد في زمن ابن القيم وفي الوقت المعاصر:

تقدم أن من أسباب الإلحاد في زمن ابن القيم مايلي:

- فساد التصور.

---

(١) وهي حركة إلحادية في فلسفتها، وثنية في طقوسها، يهودية في دعمها، تنكر الرب جل وعلا، وترفض الأديان. انظر: الإلحاد وسائلة وخطره للدكتور صالح سندي (ص٢١).

(٢) انظر: الإلحاد وسائلة وخطره للدكتور صالح سندي (ص٢١-٢٢).

- فساد الإرادة والقصد.

- الجهل.

- كثرة الأهواء وخفاء التوحيد والسنة.

- كيد الكفار من اليهود والنصارى.

- كيد الشيطان الرجيم.

- ضعف ردود المتكلمين على الكفار من أسباب استطالة الملاحدة.

- ترجمة كتب الملاحدة ونشرها.

أما أسباب الإلحاد في الزمن المعاصر، فقد توسعت وزادت، وأذكر من ذلك مايلي:

١ -الهزيمة الحضارية التي استولت على نفوس كثير من الشباب، أدت لاحتقارهم لأمتهم وإرثهم العقائدي، مع انبهار وإعجاب بتفوق الغرب الملحد.

٢ -عدم فهم قضية القضاء والقدر على وجهها الصحيح.

٣ -غسيل العقول الذي يتعرض له من يسكن في الغرب كسائح أو مبتعث أو غير ذلك.

٤ -حب الشهوات والرغبة الجامحة في الانفلات تحت شعار "الحرية الفردية."

٥ -وقوع مشكلات وتناقضات في نظر الملحد – لاسيما الشباب – تجاه الدين، وهو سبب مفهوم في النصرانية، وراجع للخرافات من أهل البدع بين المسلمين.

٧- سبب راجع للملحد نفسه، من خلال الكبر في نفسه[1].

ثالثاً: العلاقة في أساليب وطرق نشر الإلحاد بين الملاحدة في زمن ابن القيم وفي الوقت المعاصر:

❋ من أساليب الإلحاد في زمان ابن القيم:

إن المتأمل في مظاهر الإلحاد في زمن ابن القيم – رحمه الله – يجد أن من أبرز مظاهره مايلي:

١- نشر الإلحاد من خلال بث الشبهات والشكوك في الديانات.

٢- استغلال المهن الرفيعة لنشر الإلحاد كالطب والهندسة والحساب.

٣- كتابة المؤلفات لنشر الإلحاد.

---

(١) انظر: الإلحاد وسائله وخطره وسبل مواجهته للدكتور صالح سندي (ص٢٣-٢٦).

٤- ترجمة كتب الملاحدة إلى اللغة العربية باسم الثقافة والعلم والرقي.

٥- تستر بعض الملاحدة ببعض الطوائف المنتسبة إلى الإسلام كالباطنية.

٦- الحط من الديانات والأنبياء، وتقديس العقل وزعمهم أنه يخالف الديانات.

* وفي عصرنا هذا نجد تلك الأساليب موجودة، فالملاحدة في زمانا ورثوا تلك الأساليب عن الملاحدة السابقين، فهم امتداد لهم ينشرون شبهاتهم، ويعظمونهم، ويعتنون بكتبهم، ويسلكون أساليبهم، وإن كانت أساليب نشر الإلحاد في زماننا أقوى وأكثر من زمن ابن القيم، وذلك لمايلي:

١- استخدام التقنية الحديثة في نشر الإلحاد والشبه.

٢- سيطرة الملاحدة على كثير من وسائل الإعلام.

لايخفى على كل ذي عقل مدى تأثير وسائل الإعلام على الناس في زماننا هذا؛ لما تحظى به تلك الوسائل من قبول ومتابعة من قبل أكثر الناس، ولقد سعى الملاحدة لاستغلال ذلك، وقاموا بالسيطرة على بعض وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة والتي تبث الشبهات وتنشر الإلحاد في أوساط المجتمعات.

وكذا عن طريق الكتب الإلحادية التي تباع أو تنشر، والقنوات الفضائية من خلال عرض مفاهيم إلحادية واضحة أو مبطنة، أو اللقاءات المباشرة مع الشباب، ومن أخطر وسائل نشر الإلحاد بين الناس.الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي واليوتيوب.

٣- سيطرتهم على بعض الجامعات الدولية، وتدريس الإلحاد فيه (نظرية دارون).

٤- نشر الإلحاد في أوساط الشباب عن طريق:

أ- بث الشبهات و الشهوات المغرية.

ب- ربط الإلحاد بالحضارة والتقدم والرقي، وأن الدين يحارب العلم والتطور.

٥- التستر بالمذاهب الفكرية التي تبث سمومها من خلال شعارات براقة تخدع فيها الناس مثل: العلمانية، الوجودية، الإنسانية.

٦- وجود المنظمات الصهيونية العالمية التى تسعى لنشر الإلحاد في العالم، وتدمير الدين في جميع المجتمعات، ومن أشهر تلك المنظمات: الماسونية[١]؛ التى من أعظم أهدافها:

أ-إنكار الخالق تبارك وتعالى.

ب- محاربة الدين وذلك بنشر الشبهات والشكوك والشهوات.

٧- وجود تقارب بين اتباع بعض الديانات والملحدين، ومن أسبابه:

أ-وجود التحريف في تلك الديانات:

نظرا لوجود الانحراف في بعض الديانات كالنصرانية، أدى ذلك لوجود ثغرات وتساؤلات عند اتباع تلك الديانة، ولما لم يجدوا الإجابة الصحيحة المقنعة من الكنيسة ورجالها، استغل الملاحدة ذلك بالطعن في الديانات والتشكيك في صحتها، وأن الحق في الإلحاد وإنكار الخالق.

ب- المصالح المشتركة بين الملحدين وبين اتباع تلك الديانات.

٨- تغلغل الملاحدة في كبرى الدول في الحكومات، والمؤسسات، والشركات.

---

(١) ينظر لهذه المنظمات وأهدافها: المذاهب الفكرية المعاصرة د. غالب عواجي (٥٧٠/١) وما بعدها.

معلوم أن الحكومات هي التي تصنع القرارات وتقود الشعوب إلى الالتزام بها، ولعلم الملاحدة بذلك تغلغل بعضهم في كبرى الحكومات مما يخولهم في صنع القرار، والإشراف على تنفيذه.

٩- عدم وجود الخوف من إظهار الإلحاد ونشره بسبب تقبل كثير من الدول لذلك بخلاف ماكان من التضييق عليهم بل وقتلهم أحيانا في الأزمنة السابقة.

١٠- الإلحاد في زماننا تتبناه وترعاه دول ومنظمات وأحزاب بخلاف ماكان في زمن ابن القيم – رحمه الله – فإنه كان على مستوى أفراد على تخوف وتستر منهم.

من ذلك قيام دول للملاحدة مثل(الاتحاد السوفيتي السابق) فكان يجبر شعوبه في الدول التي يسيطر عليها على اعتناق الإلحاد بالقوة وترك الديانات.

رابعاً: العلاقة بين شبهات الملحدين في عصر ابن القيم – رحمه الله – وشبهات الملحدين في العصر الحاضر.

هنالك شبهات للملاحدة في عصر ابن القيم تمثلت في شبهة الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وفي شبهة الطبائعيين القائلين بإسناد الخلق والتصرف إلى

الطبيعة، وفي شبهة الدهريين الذين أسندوا التصرف إلى الدهر، وفي شبهة الباطنية الداعين إلى العقل المجرد والقائلين بأن أمور الرسل تعارض المعقول، وشبهة القائلين بوجود العالم بالصدفة.

ودعائم الإلحاد ومرتكزاته في العصر الحاضر، والنهج الذي قام عليه الفكر الإلحادي تأصيلا ودعوة، – مع أنه لا يوجد نظرية متكاملة للإلحاد، وإنما هي ظنون وافتراضات – تستند على مرتكزين هما:

١ – نظريات علمية تجريبية تبين فيما بعد أنها غير صحيحة، أو أنها صحيحة لا تعدو أن تكون نظريات تكشف عن أسباب ووسائط وعلاقات بين المخلوقات، وليس تعليلا لوجود الكون، مثل نظرية الانفجار العظيم التي تقول بأن أصل الخلق كان كُرية بسيطة كرأس الدبوس ثم انفجرت فجأة فنتج عن ذلك هذا الكون(١).

ويرد عليهم : من أين جاءت نقطة الدبوس هذه، ثم ما سبب الانفجار، ثم كيف أنتجت هذه النقطة الجامدة حياة وعقلاً ومشاعرًا؟!

٢– نظريات فكرية فلسفية من أهم نظرياتها: تعظيم العقل من خلال توسيع نطاق ما يطيق وجعله لا محدود رغم كونه محدودا، ومن خلال

---

(١) ينظر: مذاهب فكرية د. غالب عواجي (١١٤٣/٢-١١٤٤).

إخضاع كل شيء في الكون إلى الحس، رغم ظهور عوار ذلك وسذاجته، فالجاذبية والأثير والإلكترون و..و..جميعها حقائق غير مدركة بالحس، وهو يؤمن بها! فإنكار مالم يدرك بالحس مكابرة.

* وهناك شبهات للملاحدة في العصر الحاضر تمثلت فيما يلي:

شبهات الملاحدة في إنكارهم وجود الله تعالى:

١- دليل الجاذبية[(١)]:

من شبه الملاحدة نظام الجاذبية و هو أنَّ هذا الكون محفوظ بقانون الجاذبية ومتماسك بسببها لا بقدرة إله خالق، ولا شك أن هذا باطل؛ إذ يقال لهم: من الذي أوجد نظام الجاذبية؟! ! أليس وجوده بهذا النظام العجيب يدل على خالق تبارك وتعالى؟! ! نعم وجوده دليل على وجود الخالق وعظيم قدرته جل وعلا

وفي كل شيء له آية　　　تدل على أنه واحد

٢- دليل التطور والارتقاء[(٢)]:

والمقصود بذلك: ارتقاء المخلوقات وتطورها في خلقها تلقائيًّا، وهي ماتعرف بنظرية (دارون) وهي أن المخلوقات تطورت بنفسها بفعل المادة، وأنها تولدت عن بعضها للتشابه بينها، وأن بقاءها يعود إلى قدرتها على التكيف مع الظروف التي تحيط بها.

---

(١) ينظر: المذاهب الفكرية د. غالب عواجي (١١٦٧/٢).

(٢) المرجع السابق (١١٦٩/٢).

ويقال لهم من الذي أوجد أول الخلق؟ أليس وجوده يدل على خالق؟!
ثم أليس نماء المخلوقات وتطورها بزعمكم بهذا الإبداع يدل على خالق قادر؟

ثم يقال لهم أن هذه النظرية لادليل عليها من الحس وإنما هي تخييلات وفرضيات باطلة تخالف العقل السليم، فما زال الإنسان إنسانا منذ خلق، وغيره من المخلوقات، فلما لم تتطور هذه المخلوقات بزعمهم وتتحول إلي شيء آخر؟!

لقد ذكر الله تبارك وتعالى نشأة الإنسان قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1] فهذه النشأة دليل على خلقه تبارك وتعالى.

٣- قانون العلة[2]:

وهو أن جميع ما يجري في هذا الكون إنما يحدث بسبب علل مادية دون تدخل خارجي، من الطريف أن العلماء الذين اكتشفوا هذا القانون لم يزعموا

---

(١) سورة المؤمنون: ١٢ – ١٤.

(٢) ينظر: المذاهب الفكرية د. غالب عواجي (١١٧٢/٢).

أنه بديل عن الله تعالى، بل صرحوا بأنه سنة الله في الخلق أن يجري الأمور بواسطة أسباب وعلل، فقد قال "نيوتن": "هذا هو أسلوب الله في العلم، فالله يجري مشيئته في الكون بواسطة أسباب وعلل"

وهذه الشبهة أيضا ساقطة وليست دليلا على إنكار الخالق، بل هي دليل على وجوده تبارك وتعالى وقدرته، فمن الذي أوجد العلة؟ هو الخالق القدير فالله جلا وعلا خلق الأسباب ومسبباتها، وقد يوجد السبب ولاتوجد نتيجته، فكلاهما بقدر الله السبب ونتيجته.

٤- دليل المادة(١):

وهي أن أساس هذا الكون كان مادَّة شبه غبار، ثم حدث أن تحرَّك حركة لم تنته إلّا بتكوين هذا الكون وما فيه في انفجار هائل.

فيقال لهم من الذي أوجد المادة الأولى؟ ثم هل لانفجارهائل أن يؤدي إلى هذا النظام العجيب في هذا الكون فالانفجار يشتت ولاينظم، مما يدل على بطلان ماقالوا، وأن هذا الكون ومافيه من نظام يدل على وجود إله واحد خالق قادر تبارك وتعالى.

---

(١) ينظر: المرجع السابق (١١٧٤/٢).

ثم يقال لهم أيضا:

إن جميع المخلوقات يلاحظ عليها الافتقار والنقص والحاجة الشديدة لمن يقوم بأمورها وهذا دليل على أنها مخلوق، وأن لها خالق يقوم على شؤونها، وهذا يدل على توحيده. وأن جعل المخلوق خالقا فيه يلزمهم أن يكون الضعيف المفتقر إلى غيره قويا غنيا عن غيره في نفس الوقت وهذا تناقض واضح.

وأنه لابد من وجود خالق ومخلوق، فهذان القسمان لاثالث لهما، والخالق متصف بصفات الكمال والقدرة والمخلوق متصف بالضعف والعجز والافتقار، ووجود المخلوقات بعد عدمها دليل على افتقارها، ودليل على أن لها موجد[1].

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – (وكل محدث فلا بد له من محدث أو كل ممكن فلا بد له من مرجح فضلا عن تقرير هاتين المقدمتين بل علم القلب بافتقار هذا الممكن وهذا المحدث كعلمه بافتقار هذا الممكن وهذا المحدث. . . وعلى هذا جاء قوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2]قال جبير

(١)الآيات الدالة على الله ص ١٣٩-١٤١.

(٢) سورة الطور: ٣٥.

ابن مطعم: لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع[١]. وهو استفهام إنكار يقول أوجدوا من غير مبدع؟ فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكون ويعلمون أنهم لم يكونوا نفوسهم وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه لا يحتاج أن يستدل عليه: بأن كل كائن محدث أو كل ممكن لا يوجد بنفسه ولا يوجد من غير موجد)[٢]

أن نسبتهم الكون إلى الدخان الذي هو جزء من الكون يقتضي القول بالدور وهو توقف وجود الشيء على شيء آخر، وهذا الآخر متوقف في وجوده على الشيء الأول، وهذا قول باطل معلوم الفساد بالضرورة عند جميع العقلاء، وكأنهم في ذلك يزعمون أن الكون خلق نفسه بنفسه. [٣]

٥- عدم رؤية الله:

من شبه الملاحدة أن الله جلا وعلا غير موجود لأنه غير مرئي، وللجواب على هذه الشبهة الباطلة يقال: أنه لايلزم لاثبات وجود الشيء رؤيته عند جميع العقلاء، بل آثار ذلك الشيء تدل على وجوده، كما قال الأعرابي:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/١٤٠) رقم (٤٨٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١١).

(٣) ينظر: الآيات الدالة على الله ص ١٤٧.

سماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، أفلا تدل على اللطيف الخبير.

وهم في أنفسهم قد آمنوا بأشياء لم يروها بل رأوء آثارها: كالجاذبية، والروح، ويؤمنون بالعقل كذلك ولم يروه، فهذا واقع أمرهم يدل على أنهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم، ولكن آثارها هي التي دلتهم عليها وهم فيها على يقين لا يخالطه الشك.

فيقال لهم أن آثار إثبات الخالق تبارك وتعالى أعظم من آثار تلك الأمور التي آمنتم بها ولم تروها؛ بل هي من آثاره التي تدل على أنه هو الخالق العظيم تبارك وتعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[(١)].

فآثار الشيء وآياته تدل عليه، بل إن الله جلا وعلا قد فطر الخلق على معرفته والإيمان به ولو لم تكن تعلم تلك الآثار الدالة عليه تبارك وتعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالمخلوقات كلها آيات للخالق. . . فكل مخلوق فهو دليل وآية على الخالق نفسه. . . ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات، فإنها قد فطرت على ذلك)[(٢)]

(١) سورة الذاريات: ٢٠ - ٢١.

(٢)مجموع الفتاوى (١/ ٤٨) مختصرا.

وآيات الله الكونية وغيرها تدل عليه بوضوح، والإهتداء بها يحتاج إلى تفكر وتأمل دون تكبر، قال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[1].

فالفطر السليمة تؤمن بالخالق تبارك وتعالى، ونظر المؤمن في آياته يزيده إيمانا بخالقه وعظيم قدرته تبارك وتعالى، ولايكون ذلك للمكابرين المعاندين ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[2]

٦- الشبهة السادسة: من شبه الملاحدة **أن الذي خلق الكون الطبيعة**.

وللجواب على هذه الشبهة يقال:

(إن هذه الطبيعة ليست متصفة بالحكمة والقدرة والإرادة، التي هي من صفات الخالق، وهذا النظام العجيب في الكون يدل على بطلان ماقالوا، فإنه لابد له من منظم، ويدل على وجود خالق عظيم حكيم عليم تبارك وتعالى،

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٢) سورة غافر: ٣٣.

وأن يقال لهم أن التأمل في نشأة بعض المخلوقات يدل على بطلان نسبة ذلك إلى الطبيعة.

فمن الذي جعل الحبة الصغيرة تنتفخ، ومن الذي جعل الجذر يخرج إلى أعلى، والساق إلى أعلى، ثم تنشأ الأوراق فالأزهار والثمار. فهذه الحبة لا عقل لها ولاتصرف فلو بقت خارج الأرض لم تنبت، ولو غرست ولم تسقى ويعتنى بها لم تنبت، ولايكون ذلك إلابقدرة خالق تبارك وتعالى. لا أن الطبيعة هي التي خلقتها، وخلقت مايخرج منها)[1].

كذا يقال عن الجنين من الذي خلق الماء الذي يكون منه، أهي الطبيعة، أتكون الطبيعة هي التي جعلته نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم كسي لحما، ومكث ماشاء الله في بطن امه ثم خرج بعد ذلك إلى الحياة. كل ذلك يدل على أن عظمة الخالق تبارك وتعالى، ويطلان قولهم أن الطبيعة هي من خلقت الخلق. بل إن نسبة ذلك إلى الطبيعة ضرب من الجنون، ومكابرة العقول والفطر.

وقد أحسن الإمام القحطاني – رحمه الله – في الرد على هذه الشبهة بقوله:

قل للطبيب الفيلسوف بزعمه		إن الطبيعة علمها برهان

(١)الآيات الدالة على الله ص ص ١٥٧-. ١٦٣.

أين الطبيعة عند كونك نطفة		في البطن إذ مشجت به الماءان
أين الطبيعة حين عدت عليقة		في أربعين وأربعين تواني
أين الطبيعة عند كونك مضغة		في أربعين وقد مضى العددان
أترى الطبيعة صورتك مصورا		بمسامع ونواظر وبنان
أترى الطبيعة أخرجتك منكسا		من بطن أمك واهي الأركان
أم فجرت لك باللبان ثديها		فرضعتها حتى مضى الحولان
أم صيرت في والديك محبة		فهما بما يرضيك مغتبطان
يا فيلسوف لقد شغلت عن الهدى		بالمنطق الرومي واليوناني[(١)]

٧- الشبهة السابعة: **أن الكون وجد صدفة**[(٢)].

أن هذا الكون بما فيه من دقة في الخلق وبراعة في الإتقان وجد صدفة.

وللرد على هذه الشبهة يقال:

أن هذه الشبهة في الحقيقة لاتحتاج إلى رد؛ لأن زيفها وبطلانها واضح لكل ذي عقل سليم، لأن معناها أن المخلوق وجد بلاخالق، وهذا فاسد عقلا وشرعا، لأن كل مخلوق لابد له من خالق.

ثم يقال لهم: إن هذا الكون بما فيه من كواكب تسير في مسارات وحسابات دقيقة لاتخطىء، يبطل قولهم أن ذلك وجد مصادفة، بل ذلك يدل على إثبات الخالق وعظيم حكمته.

---

(١) نونية القحطاني ت سيد أحمد (ص: ٢٩).

(٢) ينظر: العقل والنقل عند ابن رشد للجامي ص (٨٦)، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية د. آمال العمرو ص (٣٨٩).

ويقال كذلك: أن ملائمة الأرض للحياة بجميع متطلباتها لايمكن على أن يفسر على أساس المصادفة.

ويقال أيضا: أن الكرة الأرضية يحوطها غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة، ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير، وهذا يدل على فساد قولهم بأن الصدفة هي التي أوجدت هذا الكون، ويدل على وجود خالق عظيم تبارك وتعالى.

بل قوله بالمصادفة باطل عند كل ذي عقل، ولما حضر أناس إلى الإمام أبي حنيفة - رحمه الله - وسألوه عن وجود الله سبحانه وتعالى، قال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر أخبرت عنه، لقد ذكر لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها، من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل. فقال لهم الإمام أبو حنيفة: ويحكم؟! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة أليس لها صانع؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه لله رب العالمين[1].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/١٩٧).

ثم يقال لهم أيضا: إن القول بالمصادفة لايقول به إلاجاهل ضال أومكابر فإن هذا النظام المحكم والاتقان العجيب يبطل القول بالمصادفة وأوهامها ووأهامها، ويحل محلها الأحكام المعللة بأسبابها(١).

٨- الشبهة الثامنة: **إنكار الخالق لعدم معرفة الحكمة في بعض أفعاله:**

من شبه الملاحدة إنكارهم وجود الخالق لعدم معرفتهم الحكمة في بعض أفعاله سبحانه وتعالى، ومن ذلك قولهم: أن مما يدل على عدم وجود إله مانلاحظه من وقوع آلالام والمصائب، فلو كانت هناك عناية إلهية لم تقع تلك الأشياء.

والجواب من وجوه:

١- أن وجود الشيء بعد عدمه لايكون إلابموجد أوجده من العدم، وهذا باتفاق الشرع والعقل.

٢- أن ذلك الموجد لابد أن يكون أولا وأزليا لايحتاج إلى موجد له وإلا أدى ذلك إلى التسلسل وهو باطل شرعا وعقلا، قال تعالى مبينا أنه الأول الذي لم يسبق بعدم ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾(٢) ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ

---

(١) ينظر: الآيات الدالة على الله ص ١٦٧-١٧٢.

(٢) سورة الإخلاص: ١ – ٤.

وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[١].

٣- أن الإتقان والإحكام والدقة والحكمة المشاهدة في جميع المخلوقات تدل دلالة واضحة على وجود خالق حكيم عليم قدير، وإله واحد لاشريك له، متصف بجميع صفات الكمال والجلال والواحدانية.

٤- إن عدم معرفة الحكمة في بعض أفعاله لايعتبر مسوغا لإنكار وجوده سبحانه وتعالى وتوحيده وحكمته، ولاينكر ذلك إلا من فقد عقله، ولو أن رجلا مر بقصر قد شيد وبني أحسن البنيان فوجد في داخله جهازا لم يعلم الحكمة منه فهل يسوغ له إنكار أن يكون لذلك القصر مشيد وبان وصانع؟! .

أن جميع أفعال الله لا تخلو عن حكمة أرادها سبحانه وتعالى سواء علمها الخلق أم لم يعلموها، فهو أعلم وأحكم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[٢]

ويجمع الرد على جميع الشبهات وامثالها المتعلقة بإنكار وجود الخالق عز وجل أن يقال: أن الله جلا وعلا أخبر في كتابه أنه خالق كل شيء، وأن الشيء لايوجد بلا موجد، قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) سورة الحديد: ٣.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1].

فالمخلوق لابد له من خالق، لأنه يستحيل أن يكون العدم سببا في الوجود، فمن أنكر وجود الخالق لايخلو من حالتين:

أ- أن ينسب الخلق للعدم كمن ينسب الخلق الصدفة وأن هذه المخلوقات وجدت بدون موجد لها فهذا قول باطل بصحيح الشرع وصريح العقل ولايقوله إلا فاقد العقل، ومن كان كذلك فلاعبرة بقوله، لأن المخلوق لايوجد إلابشيء يؤثر فيه، والمعدوم ليس بشيء.

ب- أن ينسب الخلق إلى مخلوق سواء نسبه إلى نفسه أو إلى غيره، فإن نسبه إلى نفسه وأنه خلق نفسه فهذا باطل شرعا وعقلا؛ لأن ذلك يقتضي التناقض، وأن يكون الشيء موجودا ومعدوما في وقت واحد، فيقتضي أن يكون موجودا قبل نفسه؛ لأن الخالق لابد أن يكون وجوده سابقا ومتقدما على وجود المخلوق، ويقتضي أن يكون معدوما لأنه قبل خلقه لابد أن يكون معدوما وهذا تناقض واضح، وهو باطل شرعا وعقلا أيضا، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[3] فالمخلوق لا يستطيع

---

(١) سورة الزمر: ٦٢ – ٦٣.

(٢) سورة الطور: ٣٥ – ٣٦.

(٣) سورة فاطر: ٣.

أبدا أن يخلق شيئا لا نفسه ولا غيره، لأنه مفتقر إلى غيره في خلق نفسه، والمفتقر والمحتاج إلى غيره لا يمكنه أن يخلق شيئا؛ لأن فاقد الشيء لايعطيه، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾[2].

ولأنه لو كان المخلوق يستطيع أن يخلق شيئا لما سمي مخلوقا، بل خالقا وهذا باطل[3].

ويتبين من هذا السرد: أن شبهات الملاحدة في عصر ابن القيم استمرت إلى العصر الحاضر، وتلقفها ملاحدة اليوم، إلا أنهم زادوا عليها كثرة، وقوة، وقد ربطوا هذه الشبهات بتفنن ومكر وخبث، بالعلم الحديث والاختراعات، والابتكارات، بل جعلوها شعاراً للتقدم والتطور والرقي، حيث ألبسوها لباس النظريات العلمية.

---

(١) سورة النحل: ١٧.

(٢) سورة الفرقان: ٣.

(٣)ينظر الايات الدالة على الله (ص ١٧٧ –١٨٨).

الفصل الثاني:

أثر الإمام ابن القيم -رحمه الله- على من جاء بعده من العلماء إلى عصرنا هذا في الرد على الملاحدة

إن لابن القيم - رحمه الله - أثرًا كبيرًا على العديد من العلماء الذين أتوا بعده ممن رد على الملاحدة ومن أنواع أثر ابن القيم على من بعده ما يلي:

١- أثره على من بعده من العلماء في استدلاله بالنصوص الشرعية، في رده على الملاحدة، حيث استفاد العديد ممن تتلمذ على كتب ابن القيم - رحمه الله - في استدلاله بنصوص الكتاب والسنة في ردهم على الملاحدة، ومن أبرزهم الشيخ محمد جمال الدين القاسمي - رحمه الله - حيث ألف كتابا أسماه "دلائل التوحيد في الرد على الدهرية".

٢- أثره على من بعده من العلماء في تقديم النقل على العقل في رده على الملاحدة وغيرهم.

٣- أثره على من بعده من العلماء في أن الأدلة النقلية تؤيد الأدلة العقلية ولا تعارضها، ومن أبرز هؤلاء العلماء الشيخ صالح الفوزان[١] حيث قال:

---

(١) هو: الشيخ الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، ولد عام ١٣٥٤هـ عضو هيئة كبار العلماء، وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية، من مؤلفاته: "الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد"، "الملخص الفقهي"، "الضياء اللامع من الأحاديث القدسية الجوامع". انظر: ترجمته في فتاوى اللجنة الدائمة (١/٧).

(مع العلم أن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح، فإن اختلفا ففي أحدهما خلل)[١].

٤- أثره على من بعده من العلماء في إبطاله لأصول الملاحدة، فقد استفاد منه طائفة من أهل العلم في إبطالهم لأصول الملاحدة، ومن أبرزهم: الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - حيث صنف كتاباً سماه "الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين" رد فيه على الملحدين من أكثر من ثمانين وجهاً، حيث ذكر أصول الملاحدة وفندها أصلاً أصلاً.

٥- أثره على من بعده من العلماء؛ حيث نحى المنحى العلمي التطبيقي لعجائب خلق الله في الاستدلال على وجود الله ووحدانيته سبحانه وتعالى، مع ضربه لذلك أمثلة كثيرة جداً، وممن استفاد من هذا الأثر لعجائب خلق الله هو الشيخ حافظ حكمي[٢] - رحمه الله - حيث قال - رحمه الله -:

وأنـــه الـــرب الجليـــل الأكـــبرُ   الخـــالق البـــاري والمصـــورُ

(١)إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (٢/ ١١٠).

(٢) هو الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، أحد العلماء السلفيين، كان على جانب كبير من الورع والكرم، والعفة، والتقوى، ولد بجازان سنة١٣٤٢هـ، من مؤلفاته: "معارج القبول بشرح سلم الوصول"، "دليل أرباب الفلاح لتقيق فن الاصطلاح"، "السبل السوية لفقه السنن المروية"، توفي بمكة سنة ١٣٧٧هـ. انظر: ترجمته في مقدمة تحقيق كتابه معارج القبول (١٣/١).

(باري البرايا منشئ الخلائقِ مبدعهم بلا مثال سابقِ

"وأنه الرب" أي: وإثبات ربوبيته بأنه رب كل شيء ومليكه، رب الأولين والآخرين ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[(١)]، رب السموات والأرضين وما بينهما، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)] رب الآخرة والأولى، مالك الملك فلا شريك له في ملكه، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء، ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويصل من يشاء ويقطع من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾[(٣)]، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بعد موتها وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[(٤)]،

---

(١) سورة الرحمن: ١٧.

(٢) سورة الفاتحة: ٢.

(٣) سورة الشورى: ٤٩ - ٥٠.

(٤) سورة السجدة: ٥.

خلق فسوى وقدر فهدى، وأضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى، وأغنى وأقنى، وأوجد وأفنى، يبدي ويعيد ويفعل ما يريد، رفع سمك السماء فسواها، ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾(١)، وبسط الأرض ودحاها فراشا لعباده ومهادا، ونصب الجبال عليها أوتادا، سخر الفلك تجري في البحر بأمره، ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾(٢)، ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾(٣)، ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(٤)، ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٥)، خالق الكون وما فيه وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾(٦) وأسبغ على عباده نعمه الظاهرة والباطنة، و﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ

(١) سورة النازعات: ٢٩.

(٢) سورة الحج: ٦٥.

(٣) سورة الأنعام: ٩٦.

(٤) سورة يس: ٤٠.

(٥) سورة السجدة: ٧ – ٩.

(٦) سورة الفرقان: ٥٣.

﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[(١)]، علم وألهم ودبر فأحكم وقضى فأبرم لا راد لقضائه ولا مضاد لأمره ولا معقب لحكمه، ولا شريك له في ملكه ولا إله غيره، ولا رب سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

"الجليل" أي: المتصف بجميع نعوت الجلال وصفات الكمال، المنزه عن النقائص والمحال، المتعالي على الأشباه والأمثال، له الأسماء الحسنى والصفات العلى والمثل الأعلى، وله الحمد في الآخرة والأولى.

"الأكبر" الذي السموات والأرض وما فيهن وما بينهما في كفه كخردلة في كف آحاد عباده، له العظمة والكبرياء وهو أكبر كل شيء، شهادة لا منازع له في عظمته وكبريائه، ولا ينبغي العظمة والكبرياء إلا له، ومن نازعه في صفة منهما أذاقه عذابه وأحل عليه غضبه ومن يحلل عليه غضبه فقد هوى)[(٢)].

٦- ومن أثره على من جاء بعده من العلماء أنه ينبه على الصلة بين الفلسفة وعلم الكلام والإلحاد، ومن أبرز من استفاد من ذلك الدكتور عمر بن سليمان الأشقر، حيث قال: (زعم الفلاسفة أنّ الله يعلم الكليات، ولا يعلم الجزئيات، وكذبوا في قولهم، فعلم الله محيط شامل لا تخفى عليه خافية

---

(١) سورة الفرقان: ٦٢.

(٢) معارج القبول (١/١٣٠-١٣١).

من الأرض، ولا في السماء، يعلم كل حركة في برّ أو بحر، فما من ورقة تسقط من شجرة، أو حبّة تندثر في الرمال، أو نبتة صغيرة تشق الأرض، أو نبتة تيبس أو تموت إلا وعلم الله محيط بها ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[(1)])[(2)].

٧- أثره على من بعده من العلماء في الرد على الملاحدة، كمن رد على الملحد عبدالله القصيمي ومن أبرزهم:

- الشيخ عبد الرحمن السعدي في كتابه "تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله".

- الشيخ إبراهيم السويح في كتابه "بيان الهدى من الضلال".

- الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في كتابه "الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال على ما فيه من زيغ وضلال بالعقل والنقل".

- الشيخ عبد الله بن علي بن يابس في كتابه "الرد القويم على ملحد القصيم".

---

(١) سورة الأنعام: ٥٩.

(٢) العقيدة في الله (ص٢٠٣).

ولعل من المناسب أن أختم في نهاية هذه الرسالة بكلمات لبعض الملاحدة الذين نطقوا وأقروا بوجود الخالق جل وعلا، بعد تجارب كثيرة، ودراسات طويلة، ألزمتهم بذلك فنطقت ألسنتهم ببعض ما فطرهم خالقهم عليه، فمن ذلك قول بعضهم: (إن هذا العالم الذي نعيش فيه، قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال ان يكون قد نشأ بمحض المصادفة. إنه مليء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج إلى مدبر، والتي لا يمكن نسبتها إلى صدفة عمياء)[١].

وقال آخر: (إنني أقرأ النظام والتصميم في كل ما يحيط بي من العالم غير العضوي، ولا أستطيع أن أسلم بأن يكون كل ذلك قد تم بمحض المصادفة العمياء التي جعلت ذرات هذا الكون تتألف بهذه الصورة العجيبة، إن هذا التصميم يحتاج إلى مبدع، ونحن نطلق على هذا المبدع اسم الله)[٢].

وقال آخر: (إذا فكرت تفكيرا عميقا فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله، ولا بد أن اعلن عن موافقتي كل الموافقة على هذه العبارة.)[٣].

---

(١) انظر: الله يتجلى في عصر العلم (ص٥٢).

(٢) المصدر نفسه (ص٤٩).

(٣) المصدر نفسه (ص٢٧).

وقال آخر: (إنني أومن بالله، بل وأكثر من ذلك، إنني أوكل اليه أمري، ففكرة الألوهية بالنسبة إلى ليست مجرد قضية فلسفية، بل إن لها في نفسي قيمتها العلمية العظمى، وإيماني بالله جزء من صميم حياتي اليومية) (١).

وقال آخر: (ان المنطق السليم الذي يجعلنا نلاحظ أن الإنسان يستطيع أن يقوم بأمور معقدة، هو نفس المنطق الذي يجعلنا نعتقد بوجود خالق عظيم هو الذي أبدع كل هذه الكائنات) (٢).

وفي هذه الأقوال دلالة واضحة على صدق الله سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(٣).

---

(١) المصدر نفسه (ص٨٤).

(٢) المصدر نفسه (ص٦٣).

(٣) سورة الروم: ٣٠

.

الخاتمة

توصلت في ختام هذا البحث للنتائج الآتية:

١- خطورة آثار الإلحاد على البلاد والعباد، لمالها من عواقب وخيمة، تقتضي محاربة الإلحاد، وإبطال شبه أهله.

٢- أن القرآن الكريم أعظم مايستدل به على إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، وإبطال جحوده.

٣- تظافر أدلة الشرع والعقل والفطرة والحس على وجود الخالق تبارك وتعالى، وعلى بطلان إنكاره.

٤- إن الأمم أجمعت على إثبات الخالق، ولم ينكر ذلك إلاشذاذ الخلق؛ الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا.

٥- بيان ابن القيم - رحمه الله - لأسباب الإلحاد والتي من أعظمها: الجهل، وكثرة الأهواء، وفساد التصور، وكيد الكفار، وأن إبطال الإلحاد يكون بمحاربة تلك الأسباب.

٦- عناية ابن القيم - رحمه الله - في ذكر الآثار الوخيمة للإلحاد، وما يترتب عليها من فساد للعقيدة، وفساد للحياة، وأن السعادة الحقة إنما تكون بالإيمان بالله.

٧- أعظم فرق الملاحدة في زمن ابن القيم - رحمه الله - هم: الفلاسفة

والدهرية، والطبائعيين والباطنية، وقد أبطل ابن القيم - رحمه الله - شبهاتهم جميعا.

٨- منهج ابن القيم - رحمه الله - في الرد على الملاحدة، الاستدلال بأدلة الشرع وبراهينه، والاستدلال بأدلة الفطرة والعقل، وعظيم خلق الله تبارك وتعالى على بطلان الإلحاد.

٩- تَمَيّزُ منهج ابن القيم - رحمه الله - في رد شبه الإلحاد، وذلك بعرضها إجمالا والرد عليها تفصيلا، ونقضه - رحمه الله - لكل شبهة بجميع أنواع الأدلة.

١٠- بيان ابن القيم - رحمه الله - لفساد طريقة المتكلمين في ردهم على الملاحدة، وضعف حججهم، لبعدهم عن طريقة الشرع.

١١- عظيم الحاجة إلى تلقي منهج ابن القيم - رحمه الله - والإفادة منه، لكل من أراد الرد على شبه الملاحدة.

١٢- تأثير منهج ابن القيم - رحمه الله - في الرد على الملاحدة على من جاء من بعده من أهل العلم، لما لهو من منهج متميز وحجج دامغة.

١٣- من أبرز العلماء الذين تأثروا بمنهج ابن القيم - رحمه الله - في الرد على الملاحدة: الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ العلامة عبدالرحمن

ابن ناصر السعدي - رحمه الله - وغيرهما.

١٤- أن الإلحاد المعاصر امتداد للإلحاد القديم، إلا إن الإلحاد المعاصر زاد على القديم بشبه معاصرة ووسائل حديثة.

١٥- تناقض الملاحدة قديما وحديثا، وأنهم يكابرون المعقولات وينكرون المحسوسات، ويعارضون الشرعيات، ويعتمدون على حجج واهية يلبسون بها على الناس.

١٦- مسيس الحاجة لتحذير المسلمين من الدعوات الإلحادية، وتحصين أبناء المسلمين من هذا الفكر المشين، والتحذير من وسائل الملاحدة في نشر مذهبهم الفاسد.